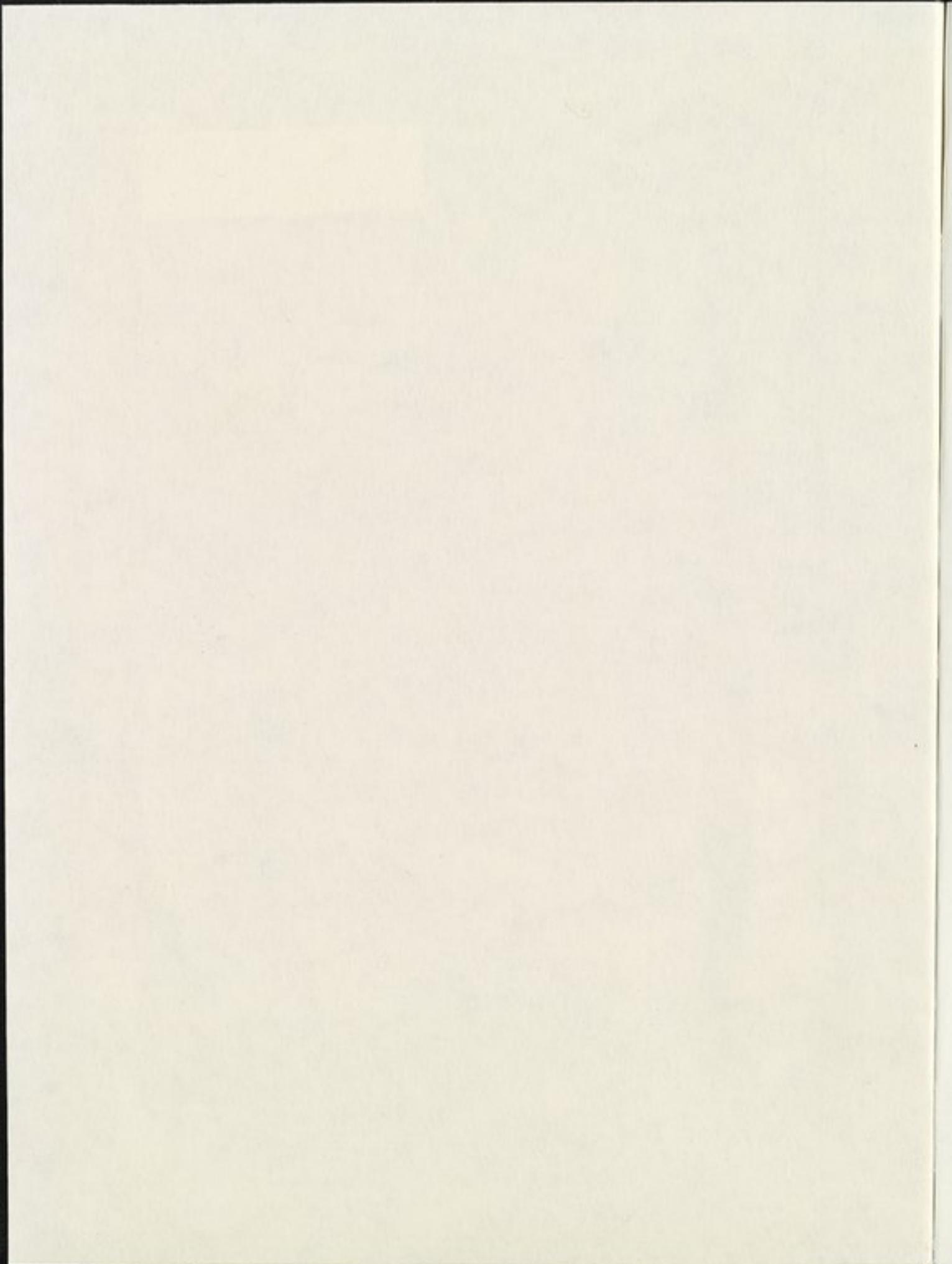


CORNELL UNIVERSITY LIBRARY



3 1924 073 798 393



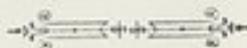
In compliance with current  
copyright law, Cornell University  
Library produced this  
replacement volume on paper  
that meets the ANSI Standard  
Z39.48-1984 to replace the  
irreparably deteriorated original.

1993

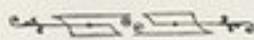


# الانقلاب العثماني

Y N A M S O - L A D A L E K N E - L A  
رواية غرامية تاريخية

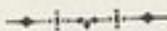


هي الحلقة الاخيرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام  
تتضمن وصف احوال الاحرار العثمانيين وجمعياتهم  
السرية وما قاموا به في طلب الدستور • ووصف يلدز  
وقصورها وحدثاتها وعبد الحميد وجواسيسه واعوانه  
وسائر احواله الى فوز جمعية الاتحاد والترقي ببيل  
الدستور في ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨



تأليف

عمر زبدان  
NADVAS YGREG  
منشور الهلال



مطبعة الهلال بالقاهرة

سنة ١٩١١

LALEH - LA

1911



CORNELL UNIVERSITY LIBRARY  
3 1924 060 172 263



Gilbert  
USA-TECH  
NOTES

## المقدمة

وصلنا في سلسلة روايات تاريخ الاسلام في السنة الماضية الى الحلقة الرابعة عشرة وهي رواية عبد الرحمن الناصر الاندلسي في اوائل القرن الرابع للهجرة . ولا يزال لدينا من هذه السلسلة عدة حلقات قبل الوصول الى الانقلاب العثماني في اوائل هذا القرن . ولكن القراء اقترحوا تأليف رواية عن هذا الانقلاب والحوا في ذلك فلم نجد بداً من اجابة اقتراحهم فكتبنا هذه الرواية وصفنا فيها الاحرار العثمانيين وجمعياتهم السرية ومساعدتهم في طلب الدستور ومثالا مما قاسوه في سبيل ذلك مع وصف يلدز وقصورها وحدائقها وعبد الحميد وجواسيسه واعوانه وسائر احواله الى فوز جمعية الاتحاد والترقي بنيل الدستور في ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨ . ولم نتجاوز ذلك الى الانقلاب الثاني الذي خلع فيه عبد الحميد وتولى جلالة السلطان الحالي محمد الخامس

وقد سميناها « رواية الانقلاب العثماني » وجعلناها من جملة سلسلة روايات تاريخ الاسلام . وبما اننا لا نعلم كم عدد الحلقات الباقية بينها وبين رواية عبد الرحمن الناصر فقد عدناها الحلقة الاخيرة من تلك السلسلة . وسنعود في السنة القادمة الى تتبع حلقات السلسلة حسب الاعصر . فنكتب رواية في اهم الحوادث الاسلامية بعد عبد الرحمن الناصر ونعلن ذلك في حينه وبالله التوفيق



Gilbert  
Northen  
HATFIELD

## الفصل الاول

## حديقة البلدية في سلانيك

سلانيك او سالونيك من اكبر مدن المملكة العثمانية وقد اشتهرت مؤخرأً بنيل الدستور على ايدي احرارها . وهي واقعة على البحر مثل موقع ازير وسكانها نحو ١٥٠ الفاً منهم ستون الفاً من اليهود والباقون من الاتراك والاروام والمقدونيين والالبان وسائر الاجناس . والسبب في كثرة يهودها انهم نزحوا اليها من اسبانيا كما نزحوا الى الاستانة وغيرها . ولا يزالون يتكلمون لغة الاسبان . والمدينة رصيف عريض يمتد على شاطئ البحر مسير نصف ساعة قد غرست الاشجار على جانبيه تحده المنازل الفخيمة من جهة والبحر من الجهة الاخرى وهو اجمل منتزهات سلانيك يؤمه الناس ساعات النزهة في العربات او الترامواي او مشاة على الاقدام

وفي سلانيك حديقة للبلدية هي احسن منتزه لتمضية الاوقات بالمنادمة والحادثة وهي كبيرة واسعة فيها كل انواع الاشجار والرياحين والازهار ومطعم وقهوات وتياترو نحو حديقة بتي شان في الاستانة وحديقة الازبكية في مصر يأتيها طلاب النزهة او اللهو نهراً ولبلاً وخصوصاً بعد الظهر الى العشاء . فانك تجدها غاصة بالواردين وفيهم الشاب والشيخ والصبية والعجوزازواجا واثلاثاً او جماعات على اختلاف الاديان والاجناس من الافريج او اليهود او الاتراك على تباين عاداتهم واخلاقهم . بعضهم يجلسون الى موائد يتعاطون المشروبات والبعض الآخر يمشون في طرقات الحديقة بين الاشجار يمتع الناس بالتفرج بعضهم على بعض وقد اختلط الحابل بالنابل وكل منهم في شاغل بنفسه او بعائلته واولاده يراعيهم ويهيئ لهم ما يطلبون . او يتحدثون بما يطيب لهم بلا مراقبة ولا حذر أما في زمن الاستبداد على عهد عبد الحميد فكان الناس اذا دخلوا الحديقة او غيرها من اماكن الاجتماع تخاطبوا همساً خوفاً من جاسوس او واث يغتم لفظه بسمعها فيتجر بنقلها الى المايين واصحابه فيعرض قائلها للموت او الخراب . وقد لا يكون لذلك القول غرض او مغزى . ولكن الجاسوسية في زمن ذلك الطاغية بلغت مبلغاً لم يكن له مثيل في زمن من الازمان وخصوصاً في اواخر ايامه اذ تبدأ روايتنا هذه

ففي اصيل يوم من ربيع سنة ١٩٠٧ كانت الحديقة المشار اليها في ابهي حللها قد

كستها الطبيعة حلة خضراء مزركشة بالأزهار والرياحين ورضا الجو وفاحت رائحة الحقل باجمل ما يكون . وتقاطر الناس اليها على جاري العادة وفيهم النساء اكثرهن بالزي الافرنجي وبعضهن على الزي التركي . والتركيات اذا اتين الحديقة اخترن ناحية منها منفردة يجلسن اليها حتى لا يكن عرضة لعيون المارين . هناك تحت شجرة من الكستناء غضة الاغصان جلست امرأة متوسطة العمر على مقعد من مقاعد الحديقة والى جانبها فتاة في مقتبل الشباب . ولوراقتني الى هناك في ذلك اليوم لرأيت ما يستوقف الخاطر من جمال وادب وذكاء وكمال

## الفصل الثاني

### شيرين

كان لباس المرأتين على الزي التركي الاخير لا يظهر منه الا رداء بنّي اللون كالبرنس له اكمام . يكسو الجسم كله كالجبة الواسعة . وعلى الرأس خمار شفاف يكسوه كله الا بعض الوجه . وكان شعر المرأة الكهله مصفوراً على الزي القديم . اما الفتاة فقد صفرته على النمط الافرنجي وغطته بالنقاب الشفاف ولا اظنك تحتاج الى امعان كثير في وجهيهما حتى يتبين لك ان الفتاة ابنة الكهله لكثرة ما بينهما من المشابهة

وكان في يد الفتاة جريدة فرناوية تطلع فيها وهي تحاذران يراها احد وقد طوتها طيات كثيرة حتى يصغر حجمها ولا ينتبه لها الناس فتقرأ ما يظهر منها ثم تديرها لقراءة ما بقي ووالدها تنتظر ما ترجمه ابنتها من المقالة التي تقرأها . فلما طال انتظارها قالت بلسانها التركي « ما بالك لا تقرئين يا شيرين ؟ »

فرفعت الفتاة رأسها من الصحيفة ونظرت الى ما حولها كأنها تحاذر ان يسمعها احد وقالت بصوت منخفض « ماذا اقرأ يا اماء ؟ اني ارى رامزاً قد شدّد اللهجة كثيراً هذه المرة »

قالت « انت تقرئين مقالة رامز ؟ كيف عرفت انها له ؟ هل وضع اسمه تحتها ؟ الا يخاف الرقباء ؟ »

قالت بحذر وهدوء « انه لا يوقع المقالات باسمه وانما يرمز عنه بحرف A وكل

مقالة في هذه الجريدة موقعة بهذا الحرف فأنها له ولا يعلم ذلك احد سواي وسوى صاحب الجريدة . ولو اطلع رجال الماين على نخوى هذه المقالة لاخذهم الغضب «  
قالت « وما هو فخاها ؟ »

فاقتربت منها وقالت همساً « انه يشدد النكير على عبد الحميد ورجاله ويهددهم بزوال ملكهم ويحتج عليهم وينسب اليهم الظلم والنهب . سامحه الله انها لهجة شديدة ولكنهم يستحقون اشد من ذلك »

فقالت والدتها « ولكننا نحاف على عزيزنا رامز من غدرهم »  
وكانت شيرين ذات جمال جاذب مهيب وفي عينيها مائة لامع يتم عن الذكاء وسرعة الخاطر وعن شدة عاطفة الحب . وكانت طويلة القامة مع اعتدال وتناسب والصحة بادية في بحياها وقوة الارادة ظاهرة حول فمها . لا ينظر اليها ناظر الاها بها . وقد زادها العلم رونقاً وطلاوة لانها تتقفت احسن تنقيف وهي تحسن التركية والفرنساوية والرومية لغة تلك البلاد تكلماً وكتابة والفضل في ذلك الى والدتها فقد كانت من فضليات النساء واقواهن عقلاً وقدرت ابنتها على الحرية وصدق اللهجة . فشببت شيرين كبيرة النفس قوية العزيمة تكره الظلم والظالمين . وقد احبت رامزاً كاتب تلك المقالة واحبها منذ الصبا وهو ابن خالتها وقد ماتت امه وهو صغير فعني ابوه بتربيته تربية خصوصية وغرس في قلبه حب الحرية وكره الظالمين لغرض سنذكره

فنشأت شيرين ورامز معاً وقد تحاببا وامتزجت روحهما وتعاهدا على الاقتران وكان هو من ارباب الاقلام يكتب الفرنسية كما يكتب لغته التركية . واشتهرين معارفه بحب الحرية فلم يجديسب لالارتزاق من خدمة الحكومة كما جرت عادة امثاله من الشبان المتخرجين من مدارس الحكومة وربما سعى له بعض المتنفذين في خدمة فلا يلبث فيها اياماً حتى يخرج منها . فجعل هم الارتزاق من قلمه بكتابة الصحف التركية في الاستانة والفرنساوية في باريس بتوقيع مستعار واكثر ما يكتبه في تلك الصحف انتقاد على الحكومة والكتابة لذينة وكانت تلذ لرامز على الخصوص لانه كان يجعلها وسيلة للاجتماع بشيرين . فاذا كتب مقالة واعجيبته قرأها لها وسمع ملاحظاتها عليها وكثيراً ما كانت ترشده الى الصواب في بعض المواضع لانه كان شديد الوطأة سريع الاندفاع فيقوده ذلك الى التطرف وكانت هي اعدل منه مزاجاً واربط جاشاً فتنتقده وتباحثه فيلذ له الرجوع الى رأيها — اما المقالة التي كانت تقرأها في ذلك اليوم فلم يكن اطلمها عليها قبل ارسالها فجاءت شديدة اللهجة

## الفصل الثالث

رامز

فلما قالت لها امها « ولكننا نخاف على عزيزنا رامز من غدرهم » ظهرت البغطة عليها كأنها انتبهت لشيء قاتمها وتصاعد الدم الى مجياها ونظرت الى امها وقالت « صدقت يا اماء ان رامزاً يعرض نفسه للخطر ولو اطلعني على هذه المقالة قبل ارسالها لعدلت لهجتها... سأعاقبه على ذلك متى جاء .. يا ربني ما باله تأخر والشمس كادت تغيب ؟ » قالت ذلك والتفت نحو باب الحديقة فرأت الداخلين يتزاحمون ورامز ليس معهم . ثم وقع بصرها على شاب بهي الطلعة منتصب القامة رشيق الحركة تتجلى الحماسة في وجهه ورأت امها تنظر اليه وتبتسم فقالت شيرين « من هو هذا يا اماء اراك تضحكين له ؟ » قالت « ألم تعرفه يا شيرين ؟ هذا نيازي بك صديق رامز ورفيقه في المدرسة » قالت « عهدته ضابطاً »

قالت « نعم ولكن يظهر انه جاء متنكراً »

ولم تكلم شيرين بعيد النظر الى نيازي حتى اختلج قايها لانها رأت رامزاً بجانبه وقد قبض على ذراعه وجعل يقوده نحو تلك الشجرة ونيازي يلتمس التخلص والرجوع . واما اقتراباً من مجلس شيرين واما سمعنا نيازي يقول « دعني يا رامز فقد داهمني الوقت »

ورامز يجرؤه من ذراعه وهو يضحك ويقول « دقيقة واحدة فقط »

ووقع نظر نيازي على والدة شيرين فاسرع اليها وحيها باحترام وحيها شيرين تحية صديق قديم لانها عرفته من قبل وقد خطب فتاة من بنات مناستير تعرفها جيداً . وتقدم رامز والتي التحية وابتدر شيرين بالاعتذار وقال « قد تأخرت عليكما ولكن الحق على صديقي نيازي » وضحك

فقال نيازي « اسمح لي يا رامز ان اودعكم الان لاني جئت خلسة ولا بد من رجوعي الليلة الى بلدي واني اتأسف لضياح هذه الفرصة فان هذه الجلسة تلذ لي كثيراً ولكنني لا احب ان اترك للقوم باباً للانتقاد حتى يأتي الله بالفرج » وابتسم

فقالت توحيدة والدة شيرين « تسافر الليلة ؟ الى اين ؟ »

قال « الى مناسير يا سيدي ومنها الى رسة . . استودعكم الله الى اللقاء . كم كنت احب ان ابقى معكم ولكن . . » قال ذلك وحيامم ونحوه راجعاً ورامز يتبعه ببصره حتى قرب من منعطفٍ فالتفت اليهم وحيامم وانصرف

وتقدم رامز نحو شيرين وهو يتسم ابتسام الاعتذار وقال « اظنني شغلت بالك علي . . ولكنني شغلت بصديقي نيازي وانت تعلمين صداقتي القديمة له » وخفض صوته وقال وهو يحاذر ان يسمعه احد « وقد جاء اليوم لمقابلة بعض اعضاء الجمعية فاجتمعنا بصديقنا الشهم انور بك » قال ذلك وهو يقعد على كرسي

فقطعت شيرين كلامه وهي تقعد وقالت « هل ادخلت نيازي في الجمعية ايضاً ؟ » قال « ادخله انور بك في غير سلانيك وقد احسن بادخاله لانه من خيرة الضباط اهل المرأة والنجدة ممن يرجي نيل الدستور على يدهم » واللفظ كلمة الدستور تهدي وانقبضت نفسه واطرق فادركت شيرين ما جال بخاطرهم فقالت « لا تنهـد ان والدك سيأتي ولو طال غيابه »

فهز رأسه وقال « يا حبيبا ذلك . . كيف ارجو رجوعه بعد دخوله ذلك القصر الجهنمي من عدة سنوات ولم نعد نسمع عنه خبراً ؟ . من من الاحرار يدخل يلدز الملعونة ويرجع منها حياً . . اني لا احسبه الا اغرق في البوسفور كما اغرق مئات قبله ولكنني سأنتقم له » قال ذلك وحرق اسنانه وكاد الدمع يتناثر من عينيه فاحبت شيرين ان تشغله عن ذلك فقالت « ساعحك الله يارامز على هذه المقالة انها كالنار المستعرة »

قال « انها اقل ما يستحقه اولئك القوم الاندال قد آن الوقت يا شيرين ولا تلبسين ان تري الدماء تجري انهاراً »

فاجفلت شيرين عند سماع قوله وتساعد الدم الى وجنتيها وقالت « ارجو ان لا تجري الدماء بل اتنى ان يظهر الحق ويزهق الباطل »

قال « وانا اتنى ذلك ايضاً ولكنهم لا يريدون الاذعان وهذا ناظم بك ( وخفض صوته ) قائد جند هذه المدينة صنعة ذلك الطاغية واحد ياورانه قد تاتي الاوامر بالتشديد في البحث عن اعضاء جمعية الاتحاد والترقي والقبض عليهم والتكيل بهم بلا شفقة لان ظهور هذه الجمعية في سلانيك ادشهم وهم يبحثون عن زعمائها ليفتكوا بهم » فبغنت وتوردت وجنتاها والتفتت الى ما حولها كأنها تحاذر ان يكون لتلك الشجرة آذان تسمعهم وتشي بهم وقالت « صحيح ؟ من قال لك ذلك ؟ »

قال « جاءنا الخبر من جاسوس لنا في يلدز وقد علمنا منه ان عبد الحميد وقع الرعب في قلبه لما علم ان الضباط ينتظمون في هذه الجمعية المقدسة وايقن ان الجيش لا يلبث ان ينقلب عليه فعمد الى التنكيل بهم فاستقدم ناظم بك اليه ورفع رتبته وزاد راتبه وارفقه بالاوامر المشددة في البحث عن رئيس الجمعية واعضائها العاملين ووعدته اذا هو استطاع كشفها بهيات جزيلة »

فقال توحيدة والدة شيرين « اسكت يا حبيبي . . ان للشجر آذاناً وذاك الله كيد الكائدين »

فقال شيرين « لله در ابيك اذ لولاه لم تعمد الجمعية الى هذه الخطة »

قال « بل لله در ذلك الثاوي في الطائف المقتول ظلماً وعدواناً انها وصيته قبل موته اودعها اذن والذي نجملها الى الاحرار ولكن آه . . ابن انت يا ابي وابن باقي الوصية لعلها تنفعنا اليوم ؟ »

فقال توحيدة « يكفي يا بني ان الحديث قد طال فاحتفظ بسرك واني انبهك الى شيء طالما انبهتك اليه . . احذر ان تذكر شيئاً من هذا القبيل امام طهماز والد شيرين فانه ضعيف الارادة بسيط القلب لا يؤمن معه ان يشغوبه بعض الجواسيس ويسرق منه خبرك . . ان طهماز قوي البدن لكنه ضعيف الارادة . » قالت ذلك وتنهت



## الفصل الرابع

### طهماز وصائب

وكانت الشمس قد غربت واخذ خدم الحديقة في ازالة القناديل والناس يتزاحمون دخولاً وخروجاً . ولاحت من شيرين التفاتة فرأت والدها قادمًا فصاحت « هذا والذي اتى »

وهي لم تظهر هذه البقعة من فرح بقدمه ولكنها ارادت ان تنبه رامزاً الى وجوده فالتفت رامز فرأى طهماز ومعه شاب يعرفه من ايام المدرسة حسن البزة قد ارخى لحيته على الطرز التركي وعلى عينيه نظارة مذهبة وقد ارتدى ثوباً اسود تعلوه الستامبولينا التي يلبسها الاتراك في المواقف الرسمية . رآه آتياً مع طهماز وهو يحادثه ويلاطفه فلما اقتربا منه

تقدم رامز لملافاة صديقه ورحب به وقدمه الى شيرين ووالدها قائلاً « هذا صديقي صائب بك »

فلما رآته شيرين نفرت منه وبان الانقباض في عينيها لكنها تجلجت تأدباً وحنث رأسها احتراماً فتقدم والدها طهماز وكان كبير الجسم عظيم العضل كبير الراس واسع الفم غليظ الشفتين معروفاً بين اهله ومعارفه بقوة الساعدين . يلبس ثوباً واسعاً اشبه بما يلبسه اهل الاناطول . يرفع الرجل يده الواحدة ويرميه الى الارض كأنه رغيغف . وكان كثير الاعجاب بقوته وهي الهبة الوحيدة التي وهبته اياها الطبيعة لانه كان ضعيفاً في ما خلا ذلك . وكان بطيئاً نهماً لا تكاد تراه الا وفي فيه شيء يفسخه من حلوى او نقولات او طعام . وكان ساعتئذ يأكل كمكة تناولها من احد الباعة في الطريق . فلما دنا من امرأته وابنته التي التحية ببرود ولم يسلم عليهما الا ليقدم لهما صديقه الفاضل الوجيه ا صائب بك فرحبا به . فصفق صائب بك لخادم الحديقة ان ياتيهم ببعض المشروب فاعتذر رامز انه لا يشرب شيئاً وكذلك فعلت شيرين وامها فابى الا ان يفتح قزايز البيرا والكازوزه ويعزم عليهم ان يشربوا فكان اكثرها من نصيب طهماز

وفي اثناء الشرب اجتمع صائب ان يستلفت انتباه شيرين الى حديثه بما اخذ يقصه من احاديث نفوذه في المابين وما اتاه من الجراة على كبار المقربين مثل عزت باشا وتحسين باشا وغيرهم وانهم يخشون بأسه ويهابون جانبته . وانه طالما انتقد رجال الحكومة على مسمع منهم وخوفهم العاقبة وغير ذلك . وشيرين لم تزدد الا نفوراً وتظاهرت انها احست بالبرد فجعلت والدها تساعدها في اثبات ذلك التماساً للنهوض . فاستاء طهماز وقال « انتم هنا من عدة ساعات ولم تشعروا بالبرد الا الان ؟ » قال ذلك بخشونة تعودوا سماع مثلها منه فاغضوا

اما صائب فحوّل حديثه نحو رامز وقال له « اني لا انسى الايام التي قضيناها معاً في المدرسة ... رعيًا لها . ان ايام الصبا ليس الة منها . هل تذكر من كان معنا ؟ » فلم ير رامز بأساً من مسابرة فقال « كان معنا كثيرون اذكر منهم نيازي و . . » فقطع صائب كلامه قائلًا « نيازي ؟ اظنه الان ضابطاً في الجنديّة »

قال « نعم »

قال « ولماذا لم تنتظم انت فيها ؟ »

قال « لاني لم اوفق الى ذلك وليس في استعداد لما على ما اظن »

قال « اذا شئت فاني اتوسط لك في خدمة اذا لم تكن في الجنديّة فني غيرها انت تحب

العلم والادب ولك معرفة جيدة باللغات لاني اذكر تقدمك على اقرانك فاذا شئت وجدت لك منصباً في المدارس او في الداخلية او غيرها . . . لا يثقل عليك ان تطالب مني كل ما تريده وهذا هين علي . طبعاً نحن اخوان لا تكليف بيننا وقد وعدت سيدي طهماز بك برتبة سنأته بعد ايام قليلة »

فلما سمعت شيرين ذلك شعرت كان احشاءها تتمزق ولم تنالك عن الوقوف وهي ترتعد وتظهر انها ترتجف من شدة البرد والحقيقة انها ترتعد غيظاً من ذلك الثقل فونفت ووقفت والدتها معها ووقف رامز فلم يجد صائب بدءاً من الاذعان وضرب على المائدة بعصا قبضتها من ذهب تلمع في النور فاتي الخادم ( جارسون ) فدفع اليه ليرة عثمانية ولم ينتظر ان يرد اليه الباقي فانحنى الجارسون الى الارض . ونهض صائب ونهض طهماز ومشوا يلتمسون الخروج من الحديقة وقد دنا العشاء واخذ الناس ينسلون

## الفصل الخامس

### الوشاية

فلما صاروا خارج الحديقة ودعهم صائب وانصرف وقبل انصرافه اطال النظر في شيرين وهي تتجاهل وودعه طهماز وداع الصديق الحميم . اما رامز فرافق شيرين وابويها وفي اثناء الطريق خاطبته بالفرنساوية وشكت له نفورها من صائب واوصته ان يبتعد عن صحبتته فقال « وما الذي يهمني منه ؟ »

قالت « لا ادري ولكنني شعرت بنفور منه ورأيت الشر ينبعث من وراء نظارته ولا يبعد ان يكون جاسوساً »  
قال « فليكن ما شاء »

وبعد قليل وصلوا الى طريق عرج منه رامز الى منزله بعد ان ودع رفاقه وقال لشيرين بالفرنساوية انه ذاهب الى منزله وسيكتب مقالة في تلك الليلة . فقالت له « من بجراسة الله » وتواعدا ان ياتي في الغد ليقرأ لها ما كتبه ويتغدى معهم

اما صائب فلم يفته ما اضممرته شيرين من بغضه اذ من القلب الى القلب دليل فشبت الغيرة في قلبه فركب مركبة سارت به الى الفندق الذي كان نازلاً فيه وهو يشرف على الرصيف الذي تقدم ذكره . قضى معظم الطريق وهو مستغرق في الهواجس وقد اخذت شيرين

بجماع قلبه . وكان قد لمخ الى والدها بشأنها فاطهر ارتياحه طمعاً بما وعده به من الرتب  
وصلت المركبة الى الفندق وهو لا يدري فلما وقفت اتبته لنفسه وتحول وهو يفكر في  
رامز وشيرين وكما تصور عيني شيرين وبسببها يخنلج قلبه . وكان قد شاهدها مراراً وهي  
لا تدري وافتنن بجيالتها وهو صابر هادي حتى لقي والدها وملكه باسلوبه ودهائه وصار له  
امل بنيلها فذهب معه وهو يرجو ان يرى منها انعطافاً فلما رآها تجافيه وتلاطف رامزاً هبت  
الغيرة في قلبه

ولم يصل غرفته حتى عزم على التنكيل برامز فاخذ في خلع ثيابه وهو يحدث نفسه قائلاً  
« اراها تستخف بي وما علمت اني قادر ان احرمها من ذلك الشاب المغرور الذي  
يعد نفسه من الاحرار . بحسب امره مجهولاً وفاته اني اعلم الناس به واقدر بكلمة  
يخطها هذا البراع ان الحقه بقاع البوسفور . . اليس هو عضواً في الجمعية السرية النافذة  
على السلطان ماذا يكون شأنه لو رفعت ذلك الى المايين ؟ اني فاعل الساعة »

وكان قد فرغ من تبديل ثيابه فتناول قرطاساً وقلماً واخذ يكتب تقريراً عن  
رامز واعماله ضد الحكومة وانه من اعداء الذات الشاهانية الخ . قضى ليله في كتابة  
ذلك التقرير وركب في الصباح باكراً الى ناظم بك وهو يعرف علاقته بالمايين فقال  
له « قد كشفت للذات الشاهانية عن شاب كل اسرار الجمعية عنده وهذا تقرير  
كتبته بهذا الشأن فاطلب اليك باسم جلالة البادشاه ان تقبض عليه وتجبسه وتبعث الى  
المايين خبره تلغرافياً وهذه صورة التلغراف « عثر صائب بك الخفية على احد كبار  
الجمعية الجهنمية وعنده اسرارها وقد قبضنا عليه وننتظر الامر بشأنه »

فبعث ناظم بك الى سامي بك رئيس البوليس ان يقبض على رامز واوراقه حالاً  
وارشده الى منزله وبعث صائب بتقريره مسوكراً الى المايين

وكان رامز قد قضى ليله في كتابة المقالة المشار اليها وتأخر في الفراش فاشعر الا  
والبوليس محيط بمنزله فابقظوه ودخلوا الغرفة وقبضوا عليه وعلى خادمه وجمعوا ما  
عنده من الاوراق جعلوها في ظرف كبير وختموها وقادوه الى السراي وحجزوه  
فيها فتأكد رامز انها فعلة صائب فلم يرد بدأ من الصبر

اما صائب فكان على موعد اللقاء بطهماز ذلك الصباح في احدى القهوةات على  
الرصيف فذهب في الوقت المعين كانه لم يفعل شيئاً فوجد طهماز بانتظاره في قهوة قرب  
قصر اللاطيني في آخر الرصيف فرحب به طهماز وآنسه فقال له صائب « كيف فارقت  
رامزاً ؟ »

فهز رأسه وقال « فارقناه بعد ذهابك بقايل الى منزله »  
 فاصبح صائب نظارته على عينيه وحك لحيته ثم اخذ يلاعب عصاه بيده وقال  
 « انه شاب لطيف لكنه كثير الغرور بنفسه فعسى ان لا يجزَّ غروره ضرراً عليه او  
 عليكم لان الجاهل عدو نفسه . وقد كنت ولا ازال راغباً في مساعدته اكراماً لبيبتكم  
 لانه ينسب اليكم على ما اظن »

قال « نعم هو ابن اخت توحيدة ولكنه كما قلت طائش »

قال « واذا كان طيشه يقتصر على ضرر نفسه فذلك هين »

قال طهماز « وما الذي بهمنا منه »

قال « اراه يحب التقرب منكم فوق القرابة التي ذكرتها »

فضحك طهماز وكان خادم للقهوة قد اتاهما بالقهوة فتناول الفنجان وشرق منه  
 شرقة وقال « يظهر انه يطعم بشيرين ولكنني لا ازوجها لرجل لا عمل له »

فد صائب يده الى جيبه واستخرج علبة للسكاير مذهبة واخذ منها سيكارة مذهبة  
 من احد طرفها ودفعها الى طهماز وهو يقول « ان شيرين تستحق رجلاً يستحقها  
 قاتها والحق يقال كاملة الاوصاف »

فتناول طهماز السيكارة بكف كالمدراة وقال وهو يشعل السيكارة من عود اشعله له  
 صائب بك وقدمه له « وانت كامل الاوصاف يا صائب بك » وضحك

فتصل صائب بك من معزى هذا التعريض وقال « اني اجل الفتاة . . . واراها  
 تستحق احسن مني »

فقال طهماز « انها لا تطمع باحسن منك يا سيدي »

فاجابه صائب بك « كل شيء نصيب . . » واطهر انه يريد تغيير الحديث تواضعاً  
 فقال « قد ارسالت تلغرافاً الى صديقي عزت باشا اطلب منه رتبة تليق بشأنك واذا  
 رأيت رامزاً يرضى خدمتي فاني اوصي له على منصب »

فعجب طهماز باريحية صائب وقال « ساخطبه بذلك اعلمه يرضى وهو عندنا للعداء  
 تعال نتغدى معاً »

فاجاب انه سيفعل



## الفصل السادس

## الانتظار شاق

اما شيرين فباتت تلك الليلة ونفسها تحذنها بشر توقعه - وكذلك شأن المرأة فانها كثيراً ما يدها شعورها على امور لا يدركها الرجل الا باعمال الفكرة والقياس العقلي اما هي فانها تشعر وتحكم بناء على شعورها بلا برهان ويصدق حكمها في اكثر الاحيان قضت معظم الليل في الهواجس وما صدقت بطلوع النهار فاخذت تنتظر الوقت المعين لمجيء رامز وقد سرها خروج ابيها باكراً ليخلو لها المنزل برامز . ولم يكن وجود والدتها يعكر عليها صفو ذلك الاجتماع لانها كانت مستودع اسرارها وهي تحب رامزاً حباً كثيراً وتعدّه بمنزلة شيرين لانه ابن اختها وقد ربي تحت نظرها

دقت الساعة العاشرة على الحساب الا فرنجي ولم يأت رامز فزادت دقات قلب شيرين وصارت تنتقل من النافذة الى الشارع ومن الباب الى الدهليز ثم تعود فتقع على المقعد فاذا سمعت شيئاً نهضت تظن رامزاً قادماً مع انها تعرف خطواته دون خطى سائر الناس ولكن القلق اذهب رشدها . فلما دقت الساعة الحادية عشرة ذهبت الى والدتها وكانت تشتغل بشؤون المطبخ تساعد خادمتها في الطبخ ليكون الطعام حاضراً الظهر والأغضب زوجها واسمعها كلاماً فظاً . فلما رات شيرين داخلة بادرتها قائلة « هل اتى رامز »

فكان لهذا السؤال وقع شديد انفجرت له عواطفها فقالت « لا . . . لم يأت . . . » وغصت بريقها

فاستغربت توحيدة اضطرابها وقالت « لم يفت الوقت على مجيئه ان الظهر لا يزال بعيداً لا تقلقي »

قالت « اعلم ذلك ولكن . . . » وسمعت حركة في الدار فاصغت فاذا هي خطى ابيها فتأملت ان يكون رامز معه نخرجت لملاقاه فوجدت اباها وحده دخل يتمايل اعجاباً بقوته وقد زاده مواعيد صائب بالرتب اعجاباً بنفسه . فلما اقبل على شيرين جينه فرد النجوة وابتدراها قائلاً « الم يحضر الغداء ؟ اين والدتك ؟ »

قالت « هي في المطبخ تعجل حضور الغداء » وهمت ان تسأله عن رامز فغلب عليها الحياء فذهبت الى والدتها وحرضتها على سؤاله  
نخرجت توحيدة من المطبخ وهي تشف يديها بمنزرها وتصلح ذيل فسطانها

وتأمر الخادم ان يضع المائدة ويحضر كل شيء لان الطعام قد حضر اعلمها ان ذلك يشرح صدر زوجها . فقابلها ضاحكاً فقالت « لم يأت رامن معك للغداء ؟ »

قال « لم اره اليوم »

قالت « دعوته امس للغداء معنا وها قد دنت الساعة الثانية عشرة ولم يأت . . »  
قال « لعله استغرق في النوم وبعد قليل يأتي لانتخافي »

قال ذلك وهو يحل سيور نعاله وقد اسرع اليه الخادم بالقلشين ثم اخذ ينزع رداءه والخادم يساعده فلما سمعت شيرين قوله « لا تخافي » ادركت انه يقول ذلك تهكماً فالتفتت الي والدتها فرأتها فهتت مرادها فقالت توحيدة « لست خائفة وما الباعث على الخوف ؟ »

قال « اما الباعث على الخوف فانه موجود لان رامنأ يتعرض لامور كثيرة لاتعنيه ولا تنفعه وقد تضره . . واذا خاطبه احد في سبيل مصلحته استخف به »

فهمت شيرين انه يشير الى حديث الامس وان اباه ناقم على رامن استخفافه بصائب فتحولت من بين يدي ابوها الى غرفة قريبة وجلست تسمع صوته ولا تراه فسمعت والدتها تقول له « هذا شأنه وهو يعرف حسابه »  
فقال بصوت عال « ولكن تردده الى بيتنا يوقع الشبهة علينا »

فعلمت توحيدة ان الكلام مع زوجها في هذا الشأن اصبح عبثاً بعد ان رفع صوته وقد تعودت طباعه وعرفت كيف تتجنب غضبه لانها كانت عاقلة حكيمة — والمرأة اذا عاشرت زوجها زمناً طويلاً يجدر بها ان تعرف ما يرضيه او يفضبه — فسكتت توحيدة واظهرت انها مشغولة في المطبخ فلحقها شيرين والدمع ملء عينها وصاحت فيها « اماء . . . يا اماء . . ان قلبي على مثل الجمر . . . »

فاشارت باصبعها على فمها ان « اسكتي » والتفتت الى الخادم وامرته ان يذهب الى مسكن رامن يسأل عنه ولا يطيل غيابه فذهب الخادم مسرعاً . وما عتم ان عاد وقص عليهم الخبر وان ناظم بك ارسل جنداً للقبض عليه واخذه مع اوراقه الى السراي فلم تملك شيرين ان لطمت خدها وقالت « ويلاه . . ان قلبي دلني على شر اتوقعه له . . منذ اتانا ذلك الجاسوس . . قد صدق ظني . . . »

اما والدتها فاخذت تخفف عنها لثلا يسمعها ابوها وكان طهماز قرب غرفة المائدة واقفاً عند البوفيه يتناول قدحاً من الكنيك قبل الطعام فلما سمع التهامس صاح بصوت كالرعد « ما بالكم . . ماذا جرى . . هل اتى رامن »

فأسرعت توحيداً إليه وقالت « ان ناظم بك قبض عليه وسجنه مع اوراقه » قالت ذلك وهي تفرك يديها حسرة واسفأً  
فضحك طهماز وقال « هذا الذي كنت اخافه عليه تهوره .. ولكن لا تخافي ان صديقي صائباً يقدر ان يخرجك من السجن لان ناظم بك براعي جانبه لنفوذ في الماين وسيأتي صائب بك بعد قليل فقد دعوته للغداء معنا »

## الفصل السابع

### الرياء

وكانت شيرين منزوبة في غرفتها وقد استغرقت في البكاء لعلمها بالخطر الذي يهدد من يقع هذه الوقعة وهي تعلم اعمال رامز ضد عبد الحميد فايقنت من تلك اللحظة ان رامزاً مقتول لامحالة فاخذت تندبه . فلما سمعت ابوها يطعنن امها بصداقة صائب مع ناظم تنفست الصعداء لحظة ثم تذكرت ان صائباً اصل هذه المصائب فعادت الى البكاء ولكن والدمعها اظهرت التصديق فدخات عليها وجعلت تحفف عنها قائلة « يقول ابوك ان صديقه صائباً ينقذه بكل سهولة وبعد قليل يأتي ونسأله » قالت ذلك وامسكت شيرين يديها كأنها تشغلها عن البكاء وهي تعتقد مثل اعتقاد ابنتها ولكنها ارادت تخفيف حزنها وهي خائفة عليها لعلمها ان بين اوراق رامز اوراقاً لها لا تقل خطراً لانها كثيراً ما كانت تساعده او تكاويه بمعنى الحرية والتقدمة على الماين واهله

« فاجذبت شيرين يديها من يد امها وغطت بها عينيها وهي تقول « نسألون صائباً انقاذه وهو الذي رماه .. دعيني .. لا اغير اعتقادي فان قلبي دلني »

وها في ذلك سمعا وقع حوافر افراس وفتت عند باب منزلهم وهرع الخادم لاستقبال القادم ثم سمعته يقول « اتى صائب بك »

فقال توحيداً « اتى الرجل . تجلدي وقومي للغداء لعله قادر على انقاذه وعهدى بك جلودة واسعة الصدر فمالي اراك تغيرت .. لا يبعد ان يكون لهذا نفوذ عند اولئك لانهم من طينة واحدة . قومي تجلدي »

فنفرت وهي تهز رأسها هز الانكار وقالت « قد فارقتي جلدي دعيني أم انت تطلبين مني ان ارى هذا الشيطان وآكل معه ؟ ابدل رامزاً به ؟ » ونهضت واخذت تجل از رارها وهي تقول « اني مريضة لا استطيع الجلوس . »

فاستحسنن والدمعها ان تمكث في الفراش لثلا يشاهدها ابوها على هذه الحالة فيغضب

وخرجت توحيدة لملاقة الضيف والترحيب به مراعاة لحق الضيافة وخوفاً من غضب زوجها واملاً بالنفع على يده فوجدته قد دخل الدهليز وهو يضع عصاه الذهبية على المشعمة فلما رآها أسرع اليها متأدياً وحياتها بلطف وانحناء وقد قبض على قفازه بيده الاخرى ثم تقدم الى طهماز فحياه وتلطف بمسايرته . فدعتهما توحيدة الى الصالون وهو مفروش على الطرز الافرنجي فدخلوا وجعلت توحيدة تسيره كما ينبغي لها

فافتتح طهماز الحديث عن رامز قائلاً « ان خوفنا على رامز كان في محله وقد بلغني انهم قبضوا عليه في صباح اليوم واخذوه الى السجن . . . . الم تعلم بذلك »  
فاظير صائب البعثة وقال « وهل الذي قبضوا عليه اليوم هو رامز؟ . . . كنت عند ناظم منذ ساعة واخبرني انه قبض على رجل من اعضاء الجمعية السرية ووجدوا معه اوراقاً مضمرة ارسلوها الى بلدز حالاً وارسلوا تليفرافاً بخبرها ولم يخطر لي ان الرجل هو صديقي رامز . . . لا حول ولا قوة الا بالله »

وكانت غرفة شيرين بجانب قاعة الاستقبال ( الصالو ) فكانت تسمع كل كلمة من الحديث — فسمعت اباءها يقول « ولكن رامزاً ابنتنا وانا اعدت نفسي بمنزلة ابيه وهو ايضاً صديقك الا تقدر على تلميصه من هذه الورطة؟ »

قال وهو يمشط لحينه « لو اخبرتموني في الصباح لكان ذلك هيناً علي . . . اما الآن وقد بلغت اخباره الى المابين وارسلت اوراقه الى الامتانة فكيف السبيل الى انقاذه »  
قل طهماز « انت تقدر يا بك »

فاطرق صائب حيناً يفكر ثم قال « اما اخراجه من سجن سلانك فقد اصبح مستحيلاً لكنني ابذل جهدي بتخفيف جرمه في الامتانة اذا امكن ولكنه سأل الله لم يدع باباً للمصالحة . اخبرني ناظم بك ان بين اوراقه ما يدخل كثيرين في الخيانة معه وفيهم امرأة »

فلما سمعت توحيدة قوله « سعد الدم الى وجهها وظهرت البنتمة عليها لعلها ان هذه المرأة انما هي ابنتها وانها واثمة في الفخ لا محالة . . ولكنها تجلدت واصغت لعلها تسمع شيئاً جديداً وودت لو ان ابنتها مستغرقة في النوم حتى لا تسمع ذلك . ونهضت تظهر انما تريد مخاطبة الخادم لاعداد المائدة ودخلت الى غرفة ابنتها فرأتها مستلقية وقد اصاحت بسمعها فحالما اقبلت عليها قالت شيرين « سمعت كل شيء »

قالت « هل سمعت آخر فقرة »

قالت « الاتعنين نهممة امرأة مع رامز؟ قد سمعتها . وهي تعزيتي الوحيدة لاني عند

ذلك احمل اليه فاما نموت معاً او نعيش معاً . . هل انا خير منه ؟ »  
 فاستولى الفشل على توحيدة لانها كانت تحسب وقوع شيرين تحت التهمة مع الامل  
 بالنجاة على يد صائب يجعلها تلين وترضى بمخاطبته لعله ينقذها لها . وهي وان كانت تب  
 رامزاً مثل ولدها لا يزال قلبها على ابنتها في الدرجة الاولى - فقالت « نعم يشق علينا وقوع  
 عزيزنا رامز تحت الخطر ولكن هل نلقي بايدينا الى التهلكة واذا كان في امكاننا تخليصك  
 فكيف لا نفعل ولعلنا بذلك ننجي رامزاً »

فقطعت شيرين كلامها قائلة « تريدن انقاذي على يد هذا الجاسوس وهل صدقت  
 قوله انه لم يكن يعلم من هو الذي وشى به ؟ فانا لا اريد نجاتي على يده بل اريد ان  
 يوء كد التهمة على لاشارك رامزاً في حظه خيراً كان او شراً . » قالت ذلك واستلقت على  
 سريرها وغطت وجهها بزندها فتركتهما والدتها وتوجهت الى المطبخ وامرت الخدم بالسكب  
 واتت الى زوجها فوجدته يتهمس مع صائب وهو يضحك فلما رآها سألتها عن الطعام هل  
 هو حاضر فقالت « تفضلوا الى المائدة »

فنهضوا فغسلوا ايديهم وصائب يتوقع ان يرى شيرين قادمة الى المائدة فلما جلسوا  
 ظل كرسيا فارغاً فقال « اني لا ارى شيرين معكم هل عليها بأس »  
 فقالت والدتها « انها تشكو من صداع اليم لم يفارقها من هذا الصباح . . »  
 فقال طهماز « دعها تأتي لا بأس عليها »

قالت « الحمت عليها كثيراً وأنا آتية من عندها الساعة فلم تقدر ان ترفع رأسها واستولى  
 عليها البكاء من شدة الالم » قالت ذلك حذراً من ان ينهض ابوها فيراها باكية  
 ويتمها بشيء آخر

فقال له صائب « سلامتها لا بأس عليها . هل علمت بحديث رامز لاشك انها تزعل  
 كثيراً عليه . سامحه الله ما كان اغناه عن تلك الاعمال الصيبانية »

وكان الطعام قد حضر وصب في الاطباق واستغرق طهماز في الانتقام والمضغ  
 فوضع صدر دجاجة كما هو في فيه ولما سمع كلام صائب هم ان يجاوبه وفمه مملوء فاستمهل  
 بضم اصابعه الثلاثة اشارة الاستمهال ريثما يبلغ بعض اللقمة ثم قال وهو يقطع الخبز ويهيئ  
 لقمة اخرى « كثيراً ما نصحته فلم ينتصح ان شبان هذا الزمان لا يعجبهم العجب . لا  
 يعجبهم سلطاننا ايده الله مع انه من احسن سلاطين آل عثمان هل كان عبد العزيز احسن  
 منه ؟ انه لا يفوت الصلاة مطلقاً وفي الاستئانة الوف من الناس عاشون من بقايا مطبخه فلو  
 افقلت بلنذا الآن مات هو لاء جوعاً ثم هم كيف يستطيعون مقاومة خليفة الرسول كان ينبغي

ان يكون لهم عبرة بالذين تقدموهم من امثالهم الشبان المغرورين كيف كانت عاقبة امرهم -  
 ماذا ينالهم من هذا العذاب غير العذاب الا يرضون ان يعيشوا كما عاش اباؤهم واجدادهم  
 .. « وقد اختصر طهماز خطابه البليغة لئلا يضيع عليه لقمة وعاد الى الاكل  
 فقال صائب « انا لا اوم الاحرار على التشكي من الخلال فانه موجود لكنني الوهم  
 لاستعمال العنف في مساعيهم كعمل المكائد لقتل الخليفة او اعوانه والكتابة الشديدة  
 في الجرائد الاجنبية هذا لا يفيد ولا بد من استعمال التوادة »  
 وكانت شيرين تسمع قوله وتكاد تثب من السرير لتجاوبه لكنها صبرت  
 نفسها وسكنت

## الفصل الثامن

### حديث الخطبة

ولما فرغوا من الطعام تناولوا القهوة ونهض صائب للانصراف فودع طهماز وزوجته  
 وكلفها بالسلام على شيرين ودعا لها بالسلامة وركب عربته وانصرف  
 ودخل طهماز لمشاهدة ابنته فراآها نائمة فتركها وذهب للقيولة ولم تمض بضع دقائق حتى  
 ملأ شخيره البيت . وكذلك فعلت توحيدة لكنها لم تنم لما تولاهما من القلق على ابنتها فضلاً  
 عن خوفها على رامز  
 وفي الاصيل نهض طهماز وبعد ان تناول القهوة نادى امرأته الى غرفته فانت وهي  
 تقول في نفسها « ماذا اعسى ان يكون الغرض من هذا الطلب » فلما دخلت عليه ناداها  
 للجلوس الى جانبه فجلست فقال لها « بعد قليل باقي صائب بك . . . ماذا تقول له ؟ »  
 فلم تفهم مراده فقالت « عن اي شيء ؟ »  
 قال « عن شيرين »

ففهمت انه يريد خطبتها له ولكنها تجاهلت وقالت « من اي جهة .. »  
 قال « الم تفهمي ؟ . لا ينبغي عليك ان رامز المسكين لن ينجو من هذه الواقعة وهو  
 الذي رمى نفسه فيها وهذه شيرين اذا لم تفهم حقيقة مركزها تكون طائشة مثله . وقد تقدم  
 لها هذا النصيب اعني صائب بك وهو رجل وجيه صاحب نفوذ وثروة واذا صاهرناه نلنا  
 العز على يده وربما استطعنا بواسطته ان ننقذ رامزاً . لا يخطر ببالك اني اكره هذا الشاب

ان رامزاً مثل ابنتي كما تعلمين لكنه طائش تأخذه الحدة ويتناول الى ما هو فوق طاقته حتى التي نفسه في ورطة لانجاة له منها واخشى والكلام في شرك ان تقع الشبهة علينا غداً لكثرة تردده الى منزلنا فنقع في الشرك . فاذا كان صائب بك صهرنا كنا في مأمن من ذلك كله »

فأرت في كلامه تعقلاً لم تعبه من قبل فقالت « ارى الحق في جانبك ولكن هل تفعل ذلك بدون رأي شيرين ؟ »

قال « نساها .. ولكنها لا تخالف رأي والديها طبعاً .. »

قالت « لا نقدر ان نخطبها لاحد الا بارادتها »

فهز راسه وقال « ان بنات هذا العصر مثل شبانه لا يعملون الا ما يخطر لهم . وكنا في زماننا ناتي اناكنا على ابائنا . وهذا هو سبب الشرور التي تراها فتنا بنا من كل ناحية لم يعد يعجبنا العجب .. نريد ان نتدخل في كل شيء ونعمل على هوانا حتى صرنا نطلب ان نشارك سلطاننا بالحكومة واذا ابى علينا ذلك نعمنا عليه وارداً قتله .. ما لنا ولتلك فاذهبي الآن الى شيرين واقنعها بوجه الحق وافهمها مركز صائب واهميته »

فهضت توحيدة وهي على ثقة من رفض ابنتها لكنها اطاعت زوجها ودخلت على شيرين وكانت قد تولاهما الوسن لحظة فلما سمعت وقع اقدام والدتها استيقظت مذعورة وجلست على الفراش حالاً وهي تنظر الى ما حوالها وتفرك عينيها لتتحقق انها في بقعة فلما رأت والدتها صاحت « اماه ! اين رامز اين رامز؟ ويلاه اني في منام ... » وعادت الى فرك عينيها

فادركت والدتها انها رأت رامزاً في المنام لفرط تفكيرها فيه وتقدمت اليها وضمتها الى صدرها وقبلتها في عنقها تقبيلاً طويلاً شاركتها الدمع بالانحدار عليه . فاحست شيرين بالدمع يتساقط على عنقها سخياً فاسفت لانها سببت لها ذلك الحزن فتباعدت عنها قليلاً وتفرست في وجهها وتوحيدة تحاول اخفاء دموعها بالابتسام فلم تقدر فقالت شيرين « قد سببت لك حزناً وتعباً يا اماه »

قالت « كلا يا حبيبتي ان تعبك راحة ولكنني لا احب ان يستولي عليك اليأس وعهدي فيك عاقلة حازمة اصبري .. ولا تستسلمي للحزن . »

فقالت شيرين « صدقت يا اماه لا بد من الصبر » ومسحت عينيها وتهدت تهادياً خفياً وهي تصلح شعرها وتنظر الى مرآة معلقة بالحائط مقابل باب الغرفة المستطرق الى الدار فرأت خيال ابها في المرآة يمشي حافياً على رؤوس اصابعه مسرعاً فاجفلت عند رؤيته وظهرت البغته في وجهها ولحظت والدتها فيها ذلك فقالت « ما بالاك يا شيرين؟ »

ما الذي تفكرين فيه ؟ »

فاجبتها وهي تلتفت نحو الدار وقالت بصوت منخفض « لا افكر في شيء لكنني رايت والدي ماراً من هنا . العله استيقظ ؟ »

قالت « نعم يا عزيزتي وكنت معه الان نشرب القهوة في غرفته وانا قادمة من عنده »

فدلتها قلبها على شيء تكتمه والدتها لانها دقيقة الشعور الى درجة التنبؤ فلا يكاد جليسا بهم بالكلام حتى تفهم مراده لكنها كانت تصبر نفسها عن التصريح بما يجول في خاطرها فقالت « لامر ما اتيت الي .. خيراً ان شاء الله »

فدلت توحيدة يدها الى شعرات مسترسلة على جهة شيرين وجعلت تعبت بها كأنها تضفرها وقالت « لم آت الا لخير يا حبيبتي » وغصت بريقها وتلاً لا الدمع في عينيها فتداركت نفسها بالكلام فقالت « قد كلمني ابوك بشأن صائب بك .. ان الرجل سيعود الينا بعد قليل »

فاجفلت شيرين عند ذكر اسمه وحولت وجهها نحو الحائط وقالت « مالي وله .. ان عاد او لم يعد .. اني لا اريد ان اراه »

قالت « ليس الامر ان تربه او براك فقط »

ففهمت مرادها لكنها استبعدت ان يقدم صائب على خطبتها بعد ما لاحظته من جفائها وتباعدها فقالت « ما الذي يبغيه اذا ؟ »

قالت « ان والدك خاطبني بشأنه وكلفني باقناعك انه شاب وجيه غني مقدم عند رجال الدولة وهو الان صاحب النفوذ الاكبر .. فثله لا يرد طلبه يا عيوني » قالت توحيدة ذلك وهي لا تعنيه لكنها تعلم ان زوجها لا بد ان يتلصص لسامع ما تقوله لابتها لسوء ظنه بها وتحققت مما قالته شيرين انه دخل الصالون لسمع ما يدور بينهما وهي مع ذلك على ثقة ان ابنتها سترفض ذلك الطلب بتاتا

## الفصل التاسع

### الرفض

اما شيرين فاستغربت كلام والدتها بهذه اللهجة مع علمها بما في نيتها عن رامز فلحظت انها تقوله كأنها على مسمع من ابيها تتجنب به غضبه وفظائله فرأت ان تجاريها

بالملاطفة لنفس هذا السبب فقالت « انه نعم الشاب او فليكن كما يشاء ما الذي يعنيني من امره .. انه لا يعنيني »

قالت « ان والدك الح علي ان اقتعك بانه شاب يليق بك وانه اذا قبلت به قد يكون واسطة لاتقاذ رامز بنفوزه »

فاجبت شيرين ان تبقى على تجلدها لكنها غلبت على صبرها فقالت « انقاذ رامز؟ هو يتقنه؟ واذا اتقنه ماذا يفيدني اتقاذه اذا كنت عند هذا الجاسوس .. بل كيف يتقنه وهو الذي رماه في هذا الفخ و . » فبادرت توحيدة فاقفلت فم شيرين بكفها وهي تشير بوضع سبابتها الاخرى على فمها اشارة السكوت خوفاً من سامع او منلص ففترت شيرين وازاحت كف والدتها عن فمها وقالت « والماذا اسكت ... باي قلب تخاطبونني بهذا الشأن؟ » وغلب عليها البكاء فلم تر والدتها خيراً من تركها اثلاً تقول ما يكدر والدها خوفاً من الفضيحة لانه اذا غضب لا يقدر عواقب ما يقوله فتنحت عن سرير ابنتها وهي تقول لها « اني تاركتك الان ريثما تفكرين في الامر وساعود اليك بعد قليل » و اشارت بعينها انها تفعل ذلك محاذرة من طهماز. وخرجت واغلقت باب الغرفة وراءها واظهرت انها ذاهبة الى غرفة زوجها لتخبره بما جرى وهي تعلم انه في الصالون . فما مشت خطوتين حتى راته يمشي في اثرها وهو يشتغل باخراج فضلات الطعام من بين اسنانه بظفر خنصره ويتلمظ . فتظاهرت بالبعثة واومات اليه ان يتبعها فدخلت غرفته وقالت له « لا بد من الصبر ياسيدي ان شيرين لا تزال منحرفة الصحة فلنتركها الان .. »

قال « نتركها؟ ولماذا؟ وبعد قليل يأتي البيك ويجب ان نجيبه سلباً او ايجاباً وانا وعدته بالايجاب فهل اكذب عليه ام كيف تريدن . يا هانم افندي » قال ذلك بتهمك وجعل يعبث باخمص رجله اليسرى باصابع يده اليمنى

فاهتمت توحيدة بالامر لعلمها ان زوجها لم يعط الثبات والحزم الا في معاكستها . فهو ضعيف مع كل انسان كثير الاصغاء والاذعان لاهل الدسائس يدار بكلمة ويقاد بشعرة الا مع امراته فانه عنيد لا يرجع عن قوله لانه بعد رجوعه ضعفاً — كيف وهو رجل البيت لا يكون كلامه نافذاً؟ فلما رات توحيدة تصميجه قالت « لا بد من التاني ياسيدي .. لان شيرين الان مشغولة الخاطر على رامز مثلنا فتركني ريثما خاطبها في فرصة مناسبة »

قال « بل هي مشغولة الخاطر عليه اكثر منا جميعاً لانها تريد ان تكون من الاحرار

ما شاء الله .. هل تظنين سكوتي عنها في الماضي كان عن رضى وقبول بما كانت تأتيه ؟  
ولكنني كنت اغتفر لها ذلك احياناً لان رامزاً ابن خالتها واتوقع ان تنهي من نفسها فاذا  
هي لانزداد الاتمادياً حتى كادت توقعنا في ورطة لا خلاص لنا منها .. الا على يد صائب  
بك وقد تفضل علينا الرجل وحذرنا ببارك الله فيه .. فكيف نقابله بالكذب او الجفاء  
ها اني صرحت لك بكل شي .. فهمت ؟ « قال ذلك وهو يثير يديه متحمساً ثم استخرج  
سيكارة من صحن بين يديه واشعلها وانكأ واخذ يدخن ولسان حاله يقول « قد فعلت  
ما علي فافعلي ما عليك »

اما توحيدة فلم يبق عندها شك في حرج مركزها فاستندت الى الحائط واخذت  
تفكر في الامر وقد بدا القنوط في عيها خوفاً على شيرين من دناءة ذلك الجاسوس  
واستبداد والدها . وهي تعلم جيداً ان ابنتها لا تقبل بدلاً من رامز فكيف اذا كان البديل  
مثل صائب . لكن خوفها على حياتها و حياة رامز هون عليها الاقتناع برأي زوجها - وهم  
في عصره كل مفعول فيه جائز - عصر الجاسوسية والظلم وقد اصبحت الارواح  
والاعراض والاموال في ايدي الجواسيس يضعون من شاؤا ويرفعون من شاؤا لا  
يتكفون في ذلك الا كلمة يقولونها بتقرير يرفعونه الى ذلك الطاغية السفاح . وقد  
عرفت اناساً ذهبوا غرقاً في البوسفور او قتلاً بحد السيف او بالسم وهم ابرياء نخافت  
ان يصيب ابنتها شيء من ذلك وهي متهمة بالحرية ولا بد من اوراق لها عثروا عليها في  
جملة اوراق رامز وفيها ما يكفي لاثبات التهمة عليها . واذا اغضبت صائباً تمت اسباب  
التعاسة لانه يسعى في الانتقام لنفسه من رامز ومنها

## الفصل العاشر

### التلغراف

مرت هذه الخواطر امام مخيلة توحيدة وهي مسندة كتفها الى الحائط وقد  
اطرقت واستغرقت في لجج الافكار وزوجها مشتغل بالتدخين يتلاهي عنها بمراقبة  
حلقات الدخان وهي صاعدة . او ينفذ الرماد عن طرف السيكارة وان لم يكن هناك رماد  
وهي في ذلك سمعت جرس الدار يدق فاستيقظت من هواجسها واسرعت دقات  
قبلها خوفاً من ان يكون القادم صائباً فاصغت ريثما يفتح الخادم الباب . ولم يمض يسير

حتى جاء الخادم مسرعاً وهو يقول « آني البيك .. آني صائب بك »  
 فهب طهماز من مجلسه ولم يعرف كيف يتعامل قلشينه من البغته والدهشة . وانصرفت  
 توحيدة الى بعض مهام البيت وهي تود ان تعود الى ما كان يريد زوجها من التحجب  
 عن كل زائر لتخاص من رؤية هذا القادم لانها هي التي حملته على التساهل في امر  
 الحجاب جرياً على مقتضى القصد الحديث . على ان الاتراك وخصوصاً في سلانيك  
 كانوا قد خففوا الحجاب على الاجمال فالمرأة تجالس الرجال وهي مكسوة الراس بالنقاب  
 او الشال ولم يكن طهماز باذن ان تلاقى غير الاخصاء مثل صديقه صائب  
 فودت توحيدة في تلك الساعة ان تكون محجبة لانها كرهت ان تعود الى  
 موضوع خطبة هذا الرجل لابنتها رغم ما همها من امره بعد ما سمعته من التهديد .  
 فتولتها الحيرة وذهبت من تلك الغرفة الى غيرها وهي تسمع قرقرة عصا صائب وهو  
 يضحها على الشماعة . ثم سمعت طهماز يرحب بضيفه العزيز ويدعوه الى الصالون  
 فظنر لها ان تفتقد ابنتها لتري حالها بعد سماع جرس الدار وعلمها بقدم صائب .  
 فدخلت الغرفة من باب داخلي فوجدتها قد توسدت الفراش واحاطت راسها بعصابة  
 كأنها تشكو صداعاً . فهرعت اليها واخذت تجس يدها لئلا تكون محمولة فلم تجدها  
 باساً فنسبتها وقبلتها وهي تقول « ما بالك يا عيوني .. مم تشكين ؟ »  
 فاجبت شيرين بصوت ضعيف « اشكو من صداع خفيف لا تخافي »  
 فقبلت جبينها وكأنها تجسه بشفتيها لتتحقق خلوه من السخونة ثم قالت « توسدي  
 يا حبيبي نامي .. ان النوم يخفف الصداع »

فقال « انا احاول النوم جهد طاقتي » و ارادت توحيدة من اغرائها على النوم  
 ايضاً نجأتها من سماع ما قد يدور بين ابنيها والضيف من الحديث الذي يؤلم عواطفها لقرب  
 غرفتها من الصالون فسرها انها اذعنت حالاً ونامت بدون ان تبدل ثيابها . وخرجت  
 توحيدة وهي تسمع صوت زوجها يناديها فاصلحت من شأنها ووضعت الحمار على  
 راسها ودخلت الصالون . فوقف صائب بك وهو يهش لها ويرحب بها وقال « آني في  
 غاية الامتنان لاطف سيدي طهماز بك وانسه فانه يعدني من اهل المنزل كاحد اولاده .  
 وانا اعلم انه لا يفعل ذلك مع كثيرين وهذه هي المرة الثانية التي جئت بها اليكم اليوم ..  
 تفضلي اجلسي » قال ذلك وجلس

فجلست باحترام وهي تجامله بالترحاب فوقع نظرها على ورقة في يد طهماز بتصفحها  
 وهو يتنسم لسان حاله يقول « اسألوني عن فحواها »

فادركت توحيدة غرضه فقالت « ما هذا ياسيدي » وأشارت الى الورقة  
فقال « تلغراف من الاستانة » وابرقت عيناه  
فتبادر الى ذهنها انه تلغراف باطلاق سبيل رامز فتسارعت دقات قلبها وهمت ان  
تختطفه من يده لتقرأه لكنها امسكت نفسها تأدباً وقالت « اعلمه بشأن رامز ؟ »  
فهز كتفيه وقال « ان امر رامز بعيد المنال . ولكنه بشأن آخر لا اقله لك »  
وفي غنة صوته دلال او مداعبة  
فلم يرق لها ذلك الدلال بعد ذهاب امليها ان يكون التلغراف بشأن رامز ولكنها  
تجدت وقالت « باي شأن ياسيدي ؟ هل يهمني ان اعرفه »  
فضحك وقال « طبعاً يهكم لانه بشأن زوجك .. لا تخافي ايس فيه امر بالنبي  
ولا السجن والحمد لله . »

فتناول صائب الحديث وهو يتواضع وقال « طبعاً لا ينبغي ان يكون فيه شيء من  
ذلك لان المخلصين للذات الشاهانية يعاملون غير معاملة الخوارج المارقين » وتشاغل  
باصلاح نظارته لحظة وتحنج ثم قال « هذا تلغراف ياسيديتي من المايين الهايونى بنىء  
بان جلالة مولانا البادشاه اعزه الله قد انعم على سيدى طهباز بك برتبة سنية بناء على  
ما تحققوه من صدق عبوديته للذات الشاهانية المقدسة .. »  
فقطع طهباز كلامه قائلاً « ومن ابن عرفوا ذلك لو لم يتفضل سعادة البيك بابلاغه  
اليهم - فانك صاحب الفضل في هذه الرتبة .. »  
فاخذ صائب يتلطف ويتواضع وانه لم يفعل شيئاً وان طهباز انما نال تلك الرتبة  
عن استحقاق لصدق عبوديته ولما برجوه امير المؤمنين من الخدم النافعة على يده .  
وطهباز يجيب معتدراً متواضعاً وتوحيدة بينهما جامدة كالصم لاشتغال خاطرهما بما  
تخافه من حديث زوجها بشأن الخطبة او ما يجري مجراها . فاجبت ان تشغلها عن  
هذا الموضوع فقالت « الم يعلم صائب بك شيئاً عن رامز ؟ »  
فتحزح صائب عن كرسية وهو يظهر الاحتفاء بحديث توحيدة وقال « نعم يا  
سيدتي ان امر هذا الشاب همني كثيراً نظراً لما علمته من علائق القربى بينكم وبينه وقد  
سألت ناظم بك القومندان عما جرى بشأنه فقال انه جاءه تلغراف من المايين يطلبون  
فيه توجيه رامز الى الاستانة حالاً واظنهم يحملونه اليها بقطار الليلة »  
فاجفقت توحيدة وندمت لانها فتحت هذا الحديث خوفاً من ان تسمعه ابنتها  
رادت تحويله فلم تجد غير الرجوع الى حديث الرتبة فقالت « كم ينبغي ان نشكرك

سعيك في هذه الرتبة .. »

فقطع طهماز كلامها قائلاً « وسنشكر فضله أكثر من ذلك متى نجح سعيه في سبيل  
رامز .. لا اظن ذلك يصعب عليه . ابن ولدنا شيرين ؟ »  
قالت « لا تزال مريضة وقد مررت بها قبل مجيئي الى هنا فوجدتها نائمة مشدودة  
الراس من صداع طرأ عليها »  
فقال وهو يتناول سيكارة من علبة بين يديه ويقدمها الى صائب « طبعاً اصابها  
الصداع من الزعل .. ولكن .. »

## الفصل الحادي عشر

### الهدية

فقطع صائب كلامه قائلاً « الا يحق لها ان تزعل والشاب ابن خالتها وقد تعاشرا  
كلاخوين ؟ . اني قاسيت كثيراً ومرت بي احوال عديدة ومع ذلك فان امر رامز اقلق  
راحتي .. مسكين .. سابدل جهدي في التخفيف عنه .. وانا اعدت ذلك واجباً عليّ  
بالنظر لما لاقيته من مؤانسة سيدي البيك وحضرة هانم افندي (واشار الى توحيدة)  
واود ان استطاع امراً معجلاً يخفف عن شيرين لاني اشعر بالنعطاف خصوصي نحوها  
بعدها آتسته من ادبها ولطفها وحسن تربيتها .. حفظها الله .. » قال ذلك ومد يده الى  
جيبه واستخرج علبة مكسوة بالخممل المزركش وقال وهو يفتحها بين اصابعه « واظن  
بما الاقيه من لطفكم ان شيرين تشعر نحوي بمثل ما اشعر به نحوها . فاذا قبلت هذه  
الهدية مني بتحقيق ظني وعند ذلك اعد نفسي سعيداً »

ثم وجه خطابه الى توحيدة وقال « لا تستغربي ياسيدي هذه الجسارة مني فان  
سيدي طهماز بك جرأني على ذلك » وقدم العلبة مفتوحة الى توحيدة فوقع بصرها  
فيها على قطعة من الحلوى بشكل الطير مرصعة بحجارة من الماس والياقوت يأخذ  
لعانها بالبصر لا يقدره العارفون باقل من خمسمائة ليرة . فتناولت العلبة وبدها ترنجف  
من الارتيباك لعلمها ان شيرين لا يرضيها شيء من ذلك فلم تعرف ماذا تجيب  
فاجاب طهماز عنها قائلاً « ان شيرين عاقلة ومدركة وهي من بنات هذا العصر  
اللواتي اخترن وطالمن . فهي لا تجهل مركز صائب بك بل هي تقبل هديته مع

الامتنان .. « وتناول العلبة وجعل يتفرس باحجارها ولعائها وقال « انا اقدم لها هذه الهدية عنك » قال ذلك ونهض وهو يتهدى بشيئته والعلبة في يده فتبعته توحيدة وقلبا يختلج خوفاً مما تخشى وقوعه على اثر تلك المقابلة

وكانت شيرين متوسدة الفراش واذناها مصغيتان لما يدور من الحديث في الصالون فلم تفهها كلمة قبلت هناك . فلما سمعت قول والدها وعلمت انه مشى نحو غرفتها ارتعدت فرائصها وغلب عليها الغضب وودت لو انهم يعفونها من تلك المقابلة لكنها ما لبثت ان سمعت نضحة والدها بالباب . واسرعت والدتها امامه تسترق الخطى نحو سريرها وتحسبها نائمة فاذا هي قد جلست واخذت تفرك عينيها فقباتها والدتها وقالت لها « كيف تشعرين الان يا شيرين ؟ »

فلم تجيبها لكنها تجلست وحولت نظرها نحو الباب فرأت اباه داخلًا وقد استخرج الطير المرصع من العلبة وتقدم نحوها بلطف لم تعهده فيه من قبل . حتى اذا دنا من السرير تبسم وهو يتجشأ وقدم الطير اليها قائلاً « كيف تجددين هذا الطير يابنية الا تستلطفينه ؟ »

فتباعدت شيرين عن الطير كأنها تخاف ان يسمعها ولم تجب . فتفرس ابوها في وجهها وهو يضحك وقال « لا تخافي انه لا يعرض بل هو حلي ثمين يليق بعنقك الجميل » وقربه نحو صدرها

فتراجعت وهي لا تنظر اليه ودفعت يدها عنها بلطف فقال « ما بالك العلك لا تزالين مريضة ؟ »

فسرَّها سؤاله لانه فتح لها باباً للكلام فقالت « نعم يا ابي .. اني اشكو من صداع شديد » واطهرت ميلها الى الرقاد

فامسكها بذراعها لينعها من النوم وقال « اذا كنت تشكين صداعاً ضعي هذا الطائر على راسك فانه يشفيه » ورفعه الى راسها

فردته واطهرت التمتع فاطهر انه غاب عليها وقال « اقدم لك هدية وترفضينها يا شيرين ؟ »

فنظرت اليه نظر الاستعطاف وقالت « انك والدي وتقدر ان تأمرني بما تريد فاطيعك الا هذا الامر فاني لا طاقة لي به »

فقال « لا اظنك فهمت مرادي .. اني اقدم لك هدية ثمينة جاءها بها صديقنا صائب بك »

قالت وصوتها يرتجف « اذا كان صديقك قدمها لك فالبسها انت واعفني منها »  
 قال « انها هدية لك وليست لي »  
 قالت « لا اعهد بيني وبينه ما يسوغ له تقديم هدية من هذا النوع »  
 قال « ان الرجل ذو فضل علينا وقد اراد اكرامنا ايليق بنا ان نرفض اكرامه »  
 قالت « يمكنك ان تقبل ما يقدمه لك اما انا فلا »  
 فظهر الغضب وقال « انا اقول لك اقبلها »  
 فلم تعد تستطيع صبراً على الكظم - فقالت وقد ارتفع صوتها رغم ارادتها « لا لا ..  
 لا يمكنني قبولها يا سيدي . »

## الفصل الثاني عشر

### قلب الوالدة

وكانت والدتها واقفة وقد تولتها الحيرة ونظراً للهفتها على ابنتها واملها بمساعدة صائب في انقاذ رامز احست بميل الى قبول شيرين بما يعرضه عليها ابوها فقالت « لا تتشبثي برايك يا شيرين يا حبيبتى . . استوعبي المقصود ثم قولي ما يبدو لك »  
 فالتفتت الى والدتها الفتة العتاب وقالت « وانت ايضا يا اماء ؟ » وغصت بريقها وبان الدمع في عينيها فكان لذلك المنظر وقع شديد على قلب والدتها فسكتت . فعاد ابوها الى الكلام فقال « الا ترينني اطيل بالي عليك واتلطف في محادثتك ؟ فاصغي لا اقوله لك . انا اعلم انك غاضبة مما اصاب عزيزنا رامز اليوم ولكن ... »  
 فقطعت كلامه ولم تعد تتالك عن البكاء . فادارت راسها نحو الحائط واكبت على ذراعها فوق الوسادة وبكت همساً لكن والدها عرف بكاءها من اهتزاز كتفيها فغضب لانها قطعت كلامه بالبكاء وقال « وتبكين ايضا ؟ وانا اترلف اليك واراعي خاطرك ؟ تبكين لذكر رامز وهو الذي جرى البلاء على نفسه وعلينا وانا اسعى في رقيع ما مزقه بطيشه ؟ الا تعلمين انه اوقع نفسه في غضب الباد شاه واخشى ان يكون اوقعنا معه ؟ وقد وفقت بمعونة الله الى من ينقذنا من هذه الشرور عند الحاجة . اعني صديقي صائب بك وهو مع ذلك يعرض علينا مودته فكيف ترفضينه بهذه الفظاظة . . قومي .. اجلسي .. »  
 وامسكها بذراعها يريد اجلاسها فانترت منه وظلت مكبة على ذراعها وقد اغرقت في البكاء

فالتفت طهماز الى توحيدة وهز رأسه استكفافاً من تصرف ابنته فوقعت توحيدة في حيرة وخافت الفضيحة فشارت الى زوجها بضم اصابعها الثلاثة اشارة الاستهمال واومات اليه بعينيها ان يخرج ويتركها معها على انفراد . فاستبشر انها ربما استطاعت اقناعها فتسحى الى بعض جوانب الغرفة ثم خرج الى الدار

فعلت شيرين بخروجه من صوت مشبه ومن سعاله وهو خارج ثم سمعت والدتها تهمس في اذنها قائلة « لا يلبق يا حبيبي ان تحببي والدك على هذه الصورة .. ولو علمت ما فعلوه برامز بعد القبض عليه لما .. ؟ » فقطعت كلامها قائلة « نعم علمت »

فقال « هل علمت انهم سبأخذونه الليلة الى الاستانة بامر من السلطان ؟ »

قالت « نعم . وانا اتوقع اعظم من ذلك .. ؟ »

قالت « فاذن .. تبصري بالمركز الحرج الذي نحن فيه وانا على يقين اننا اذا سايرنا صائب بك يقدر ان يتخذ رامزاً ويتخذنا اذا لحقتنا تهمة بسببه ... بالله الا خفت من جفائك وسايرت اباك بحسب الظاهر لئلا يكون .. قومي قبلي يده وخذي الهدية فانها لا تقدم ولا تؤخر .. »

فرفعت شيرين راسها عن الوسادة وقد احمرت عينها كأنها محمومة وتكسرت اهدابها من فرط البكاء وقالت « لم اكن احسبك تصدقين الا كاذب او تخدعين باقوال المنافقين .. وهي ان الرجل صادق بما يقول فاني لا استطيع ان تصوره ولا ان اقبل شيئاً منه .. لا تنعبي نفسك »

قالت « اخاف ان تندي يا شيرين اذا علمت بعدئذ انه كان في امكانك ان تنقذي رامزاً من الخطر ولم تفعلي »

فخرقت اسنانها وهي تنهد وقالت « لا . لن اندم لان هذا الرجل الذي يدعي الغيرة علينا وعلى رامز هو الذي رماه في ذلك الفخ »

فغطت توحيدة فم شيرين بكفها مخافة ان يسمعها احد وقالت بصوت ضعيف « لا تقدر ان تثبت عليه هذه التهمة .. وما علينا الا ان نلحق الكاذب الى باب الدار » فبادرتها قائلة « كفى يا اماء اني لم اعد استطيع صبراً على هذا الجدل ان موتي وموت رامز اهون علي من قبول هذا الرجل .. » قالت ذلك وشرقت بريقها وعادت الى البكاء

وهما في ذلك سمعا وقع اقدام طهماز داخل الغرفة وهو يقول « اسمعي يا توحيدة

ان صائب بك يجب ان يكلم شيرين رأساً . اعلمها تقتنع منه «  
 فلما سمعت شيرين قوله وثبتت عن السرير ووقفت واسندت يدها الى احدى  
 قوائمه وقد حولت وجهها عن باب الغرفة كأنها تحاذر ان يقع بصرها على ذلك الرجل  
 الذي لا تقدر ان تخفيه  
 فاعاد طهماز كلامه قائلاً « ان صائب بك يريد ان يكلم شيرين على انفراد . فهل  
 من بأس ؟ »

فارتبكت توحيدة من هذا الاقتراح لانه يخالف العوائد المألوفة ونظرت الى  
 زوجها كأنها تستشيريه فقال « دعيهما يتحادثان اذ ربما كان صائب بك اقدر على الاقتناع منا  
 وهو لم يقدم على ذلك طبعاً الا لشدة محبته .. الا اذا كانت شيرين ترفض هذا الطلب  
 مني ايضاً »

اما شيرين فاستجمعت رشدها وتجلدت وأحست بميل الى مشافهة ذلك الرجل  
 وهي في تلك الحال من الغضب لتقول له في وجهه ما تعتقده فيه وتشفي غليلها بتوبيخه  
 وتعنيفه والتفتت الى ابيها وقالت « لا بأس من دخوله »

## الفصل الثالث عشر

### صائب يتكلم

وكان صائب واقفاً بالباب ينتظر الاذن بالدخول فلما سمع قولها استبشر واستبشر  
 ابوها ايضاً . نخرج الابوان من الغرفة ودخل صائب وهو ينظر الى شيرين نظراً المحب  
 الوهان ويتشاغل باصلاح نظارته باحدى يديه وقد حمل بيده الاخرى العلبه وفيها  
 الطير المرصع  
 فلما دنا منها وهي واقفة بجانب السرير التفتت اليه شزراً وقالت « ما الذي تريده  
 يا سيدي ؟ »

فتقدم بلطف كأنه يحاذر ان يدنو منها وقال « اريد رضاك »

قالت « وما الذي يهمك من رضي ؟ »

قال « ذلك كل ما يهمني فاذا حصلت عليه فقد حصلت على السعادة .. وتكونين انت  
 سعيدة ايضاً بل تكونين اسعد مخلوقة على وجه الارض » قال ذلك بنغمة التذلل والتودد

فقلت « اية علاقة بين سعادتني وسعادتك ؟ »

فابتسم وقال « لانك اذا رضيت وقبالت هذه الهدية الحقيمة بذات نفسي في سبيل سعادتك » وقدم العلبة على كفه نحوها فتباعدت هي عنه وخبأت يدها وراء ظهرها وهي تقول « انت لا تقدر ان تجعل احدا سعيداً »

فاستبشر بذلك التوبيخ وقال « جربي يا شيرين وانظري .. فانك تريين .. في خادماً مطيعاً اصدع باوامرك واكون طوع ارادتك . فابذل جهدي في كل ما تريدينه »

فالت « اصحبح ما تقوله ؟ »  
فسرء سؤاها وتأكد رضاها فقال بلهفة « اقسم لك اني افعل ما تريدينه »  
فقلت « ان غاية ما اريده ان تكون بعيداً عني .. فاذا كنت صادقاً في ماتقول فانصرف بسلام »

فنظر اليها نظر العتاب وقال « ابمثل هذا الجواب تقابلين توددي .. نقي يا شيرين اني مفتون بك لا اذخر وسعاً في سبيل نيل رضاك .. »  
فقطعت كلامه قائلة « اكان من عظم حبك لي وشغفك بي انك رميت ذلك الشهم الحر في اعماق السجن ؟ »

فتحمس عند سماع كلامها وقال « انا رميته في السجن ؟ اعوذ بالله .. انا رميته ؟ .. انما رماه طيشه وسوء تدبيره .. ولكنني مستعد ان انقذه من ذلك الفخ اكراماً لعيونك »

فالت « تنقذه من الفخ ؟ ومن رماه فيه سواك ؟ »

فبالغ في الاستغراب وقال « انا ؟ انا رميته ؟ ارجعي الى رشذك » واطهر الاستخفاف بقولها ليعبد التهمة عنه وتجاهل وقرب يده والعلبة فيها وقال « دعني الاوهام عنك وارجمي الى رشذك واقبلي هذه الهدية واعلمي ان ذلك الغلام ليس اهلاً لك . بل هو اوشك ان يوقعك في خطر لا ينجيك منه احد . اوشك ان يجعلك سجيناً مثله لتهمة مثل تهيمته . ولولاي .. ولولا حبك لكنت الان تحت غضب الذات الشاهانية .. صدقيني يا شيرين اني خدمتك خدمة لا تمن بالاموال » قال ذلك والعلبة لا تزال مرفوعة على كفه يقدمها نحوها وهو ينظر في عينيها نظر العاشق المفتون

فاختطفت العلبة من يده ورمتها الى الارض وهي تقول « دعني من هديتك الملطخة بالدم وقل لي كيف انقذتني من الهلاك ؟ ان حبل الكذب قصير »

فشق عليه عملها ولكنه تجدد والنقط العلبة فوضعها في جيبه وقال « اني اعنرك

لجنونك ولا اعاملك بعملك . لكنني انصح لك ان تصدقيني . صدقيني يا شيرين اني انقذتك من الهلاك »

قالت « كذبت ان مثلك لا يستطيع غير ايقاع الناس في المهالك . »  
قال « ولكن الذي يقدر ان يوقع الناس في المهالك يقدر ان يخلص الناس منها »  
ومد يده الى جيبه واستخرج ورقة قبض عليها وقال بلحن التهديد « اعلمي ان حياتك وموتك في قبضة يدي هذه »

فضحكت ضحك الازدراء وقالت « خسئت ... يكفيك تمويهاً يكفيك ما ارتكبته بايقاع ذلك الشاب الحر في ايدي القوم الظالمين . اوقعته بين مخالب الموت لترضي ذلك الطاغية السفاح .. قبحك الله من اشرار .. ويل لكم من موقفكم يوم الحساب » وغصت بريقها رغم ارادتها ثم تجردت وقد احست بقوة وبسالة لم تشعر بمثلهما من قبل وحوّلت وجهها عنه وجعلت تمشي في الغرفة مشية الاسد الظافر

## الفصل الرابع عشر

### التهديد

فأخذ الحنق من صائب مأخذاً عظيماً وحرق اسنانه ومد يده وهو قابض بها على تلك الورقة وقال « لا اراك فهمت ما اقوله لك . . قلت ان موتك وحياتك في قبضة يدي هذه فاذا اطعنتي ورجعت الى رشدك ورضيت بما عرضته عليك كنت سعيدة والا فاني ... »

فقطعت كلامه وقالت « انك اقصر باعاً مما تشير اليه .. »  
فتقدم نحوها وقد اخرج تلك الورقة وامسكها بسبابته وابهامه حتى ظهرت كلها وانحنى انحناء التهكم وقال « الا تعرفين هذه الورقة ؟ »  
فلما وقع بصرها عليها علمت انها من الورق الذي كانت تكتب به رامزاً احياناً فاجفلت ولكنها كظمت وقالت « وما عساها ان تكون ؟ »  
قال « انا اقول لك ما هي . هي كتاب منك بخط يدك وجدته بين اوراق ذلك الطائش الغر... اتعلمين ماذا تقوين له فيه ؟ »

فاوجست خيفة لعلمها انها كانت تكتب الى رامز بدون حذر وقد يكون فيها ما

تؤاخذ عليه لكنها ادارت رأسها وقالت « لا اعلم ما بها ولا يهمني ان اعلم »  
 قال « ألا يهمك اذا كنت تقولين له فيها انك تجدين بقاء الذات الشاهانية جلالة  
 مولانا امير المؤمنين مصيبة على الامة العنانية ؟ »  
 قالت « اليس ذلك حقاً ؟ »

قال « لا ادري ؟ ولكنني اعلم ان وصول هذه الورقة الى يدي جلالته يجعلك  
 ان تندمي ساعة لا ينفخ الندم . واذا كنت لم تصدقي ما اقله فهنا خطك اقرأه » قل  
 ذلك وفتح الورقة فوقع بصرها عليها فعرفت خطها فام يبق عندها شك بوقوع الخطر  
 لكنها ظلت تظاهر الاستخفاف

اما هو فقال « هل تظنين هذه الورقة لا تحوي غير ما ذكرته لك ؟ لو قلت لك  
 خوى ما بقي منها لتراميت على قدمي تاتسين كتمان هذا الكتاب ... تقولين له فيه انك  
 تستغربين صبر الاحرار على بقاء هذا السلطان حياً » هل في الدنيا ذنب اعظم من  
 هذا ؟ هل تجدين سيلاً للانكار ؟ « ثم خفض صوته وقال « هل تحققت الان ان  
 حياتك وموتك في قبضة يدي ؟ » قال ذلك وشمخ بانفه ووقف وهو يتوقع ان  
 ترامي شيرين على قدميه كما قال . لكنه رآها لا تزال مستخفة به كأنه لم يقل شيئاً  
 فتقدم نحوها وقال « ومع ذلك فانا حتى الساعة اعرض عليك حياتك . اي اني اهبها  
 لك على شرط ان ترجعي عن غييك وتعندري عما مضى وتعندي اني احبك والآن ... »  
 فحولت وجهها عنه وهي تنظر اليه بطرف عينها ازدراء وتمتمت « اعتذر عما  
 مضى ... ! » ثم توجهت نحوه بحسرة وقالت « اسمح لي ان اثبت كذبك قبل كل  
 شيء ... لما قلت لك انك القيت رامزاً في السجن بوشايبتك تبصمت وانكرت وانت  
 تقول الان انك اخذت هذه الورقة من بين اوراقه فكيف وصات لها لو لم تكن انت  
 الساعي فيه . ثم اعلم ان الحياة ليست هي وحدها غاية الانسان في دنياه ... هل  
 تحسب السعادة بالطعام والشراب او باكتساب الاموال ؟ اذا كنت تعد ذلك سعادة  
 فاعلم انها سعادة حيوانية وانما السعادة سعادة الضمير الحر . سعادة القلب السليم .  
 تلك سعادة النفوس الابية طلاب الحرية . ولكنك لم تنق هذه السعادة ولن تذوقها .  
 انك وامثالك تحسبون الغرض من الحياة ان تجمعوا الاموال باية وسيلة كانت تبعون  
 ضماؤكم بالجانسونية فتجربون البيوت العامرة وتقتلون النفوس البريئة سعياً وراء  
 الدينار كما تسعى الكلاب وراء الجيف المنتنة . . . هنيئاً لكم تمتعوا ما شئتم واقتلوا  
 ما شئتم . ليس هذا مذهب الاحرار الصادقين . فاذا علمت ذلك هان عليك ما تجده

من استخفاني بتهديتك .. فافعل ما تراه .. فما انا خير ممن سبقني الى هناك »  
وكانت تتكلم كأنها تخطب على جمهور وصائب يسمع كلامها ويهز راسه تارة ويقب  
شفته تارة اخرى ولسان حاله يقول « هذا هو الجنون بعينه » فلما فرغت من كلامها  
سكت هنيهة وهو مطرق وقد اخذته الحيرة ثم رفع بصره اليها وقال « لا ازال اراك  
تتكلمين كلام اهل الطباخة الذين يتفلسفون فيضيعون ايامهم بالكلام الفارغ . وقد كان  
يجدر بي بعد ما سمعته منك ان اکتني برفع امرك الى صاحب الامر وهو يعرف شغله  
معك . لكنني لا ازال ضئيلاً بجياتك شفوفاً على شبابك اكراماً لايبك ولا تي احبك .  
فانا اعرض عليك الحياة مرة ثانية واجيبك على قولك ان ما ذكرته من الالفاظ الضخمة  
كالضمير والحرية والنفس الالوية اما يلجأ اليها اهل الفاقة الذين تضيق دونهم سبل الرزق  
فاذا عجزوا عن اكتساب المال عدوا اکتسابه رذيلة .. اي فائدة لاصحاب تلك التبعوت  
ان لم يكن لديهم من المال ما يدفعون به الجوع والبرد ؟ وما هي الحرية أو ما الفائدة  
منها لمن خلاجيه وخوى جوفه ؟ هل تجدين بين اولئك الذين يسمون انفسهم احراراً  
من يستطيع ان يعيش من ماله — حتى اصبح لفظ حر لقباً لاهل الطيش الافاقين  
الذين يضربون في الارض تلخو ايديهم من المناصب فيزعمون انهم تخلوا عن الخدمة  
رغبة في الحرية . ولكنهم يفعلون ذلك عن عجز ولو أعطيت لهم المناصب لتبذوا الحرية  
واركنوا الى العبودية .. كما فعل كثيرون منهم انا كنت الوسيلة في ردهم الى رضى  
الذات الشاهانية .. ما لنا ولذلك الآن هذه آخر كلمة اقولها لك ثم يكون دمك على  
راسك — اني اعرض عليك النجاة من خطر الموت . ولا ازال اقول اني اعدك بانقاذ  
رامز ايضاً ولا اشترط شيئاً غير رضاك بي والا فلا تلومي الانفسك » قال ذلك بلحن  
التهديد وتحول نحو الباب وهو يتوقع ان تندم فتستقدمه وتباحثه فلم يسمع منها الا  
قولها « افعل ما بدالك .. واذا كانت الحياة على يدك وايدي اثنالك لاحاجة لي بها »  
فعاد صائب اليها بعجلة وهو يشير بيديه اشارة الوعيد والتعنيف وقال « تزعمين  
انك تحبين رامزاً وها انت تقتلينه بيدك . قد سنحت لك فرصة لانقاذه فلم تفعلي .. »  
فاجابته « ان حبي رامزاً لا دخل لك فيه . وان رامزاً لا يرضى ان تكون حياته  
منة من جاسوس منافق . واما انا فاني افضل ان يموت رامز واموت انا معه نجيحة  
الحرية وقول الحق ولا نعيش عيشة المقلقين المنافقين . وزد على ذلك فان يدك اقصر  
من ان تستطيع خيراً .. انك لاتقدر على غير الشر فانصرف عني ودعني »  
فضحك صائب فحكة طويلة وان كانت اغصابية وتحول وخرج وهو يردد قولها  
باستهزاء « نموت نجيحة الحرية وقول الحق » ما شاء الله

## الفصل الخامس عشر

### الخلوة

وكان طهماز وامرأته جالسين في الصالون يسمعان ما دار بين شيرين وصائب وكانا يتوقعان ان تدعن شيرين خوفاً فلما رايا هذا التصلب قال طهماز « قبح الله هذه الفتاة ما اجنبا . . اذا كانت لا تخاف على حياتها فاننا نخاف على حياتنا بسببها » فلما خرج صائب بدر طهماز اليه واخذ يستعطفه ان لا يتعجل بالانتقام وان يعذر شيرين على طيشها ويتمهل ريثما يقنعونها . فرفض في بادئ الرأي فبالغ طهماز في استعطافه فوعده انه صابر يوماً أو يومين اكراماً لخاطره وودعه وانصرف وهو ينتفض من شدة الغيظ لما سمعه من شيرين وكان يتوقع استسلامها له بمجرد اطلاعها على ذلك الكتاب وكان قد وجده بين اوراق رامز فاحتفظ به ليتخذ ذريعة لاذلاها . فلما راى جفاءها حدثته نفسه ان ينتقم منها لكنه علم انه اذا فعل خرجت شيرين من يده فلما استمهله والدها ووعده باقناعها تربص ليري ما يكون من امرها

اما توحيدة فانها اصبحت لا تعلم ما اذا تعمل وقد لامت ابنتها على ما بدا منها وصممت على اقناعها بالرجوع عن عنادها وتقدمت الى طهماز ان يعول عليها في اقناع شيرين وان يلحق بصائب ويؤكد استعطافه ويعتذر له عما بدا . فلبس ثيابه وسار في اثره

أما شيرين فلما خرج صائب من غرفتها اغلقت الباب بعنف واظهرت انها تلتبس الانفراد والراحة في الفراش فتركها والدتها وذهبت الى غرفتها لتعمل فكرتها في حيلة تخترعها لاقناعها

فلما خلت شيرين بنفسها فكرت في ماسمعه ورأته فتحقت وقوع الخطر عايبها وعلى رامز وايقنت انهما مقتولان . . وكانت الشمس قد مالت الى المغرب وهي ساعة تستولي فيها الوحشة على قلوب البشر كأنهم يشاركون الطبيعة بالاسف على فراق سيدة العالمين فتقبض القلوب وتظلم النفوس وتسلط السويداء على العقول فلا يرون من الدنيا الا وجهها المظلم فكيف في من كان في مثل حال شيرين من اليأس بعد ان قضت نهارها بين جدل وبكاء وحزن وخوف ؟

فاغلقت شيرين غرفتها وقد جاش الحزن في خاطرها فتذكرت حبيبها وكيف كان يأتيها في مثل تلك الساعة فيخفف احزانها ويذهب وحشتها بلطف حديثه فيتشاكبان ويتحادثان . وتصورت ماهوفيه من الضيق وكيف انه لا يابث ان يصير فريسة لذلك الظالم ولا تدري ما يكون من امره هناك . اذ قد يسجن ويعذب أو يقتل او يلقى في البوسفور فيذهب فريسة للاسماك . فلما تصورت ذلك اقشعر بدننها وغلب الحزن عليها ولم تجد ما يفرج كربتها غير البكاء . فاطلقت لنفسها العنان واخذت تندب سوء حظها وتبكي وتشهق كالطفل وجعلت تناجي نفسها قائلة « رامز . . حبيبي رامز اين انت الآن يارى ؟ . انك مسجون وعمما قليل يحملونك الى بلدز قبر الاحرار ومدفن الحرية . . لا تحف . . لا تبال بلموت في سبيل الحق والحرية . . ولكن اه . . يموت رامز . . يموت حبيبي رامز الحر الصادق ويبقى هذا الجاسوس واصحابه في قيد الحياة ؟ »

قالت ذلك وحرقت اسنانها ووثبت من فراشها وقد اظلمت الغرفة فاتسع مجال الخيال فتصورت رامزاً في ضحك وانه لاشك يفكر فيها ويحاف عليها ويخشى ان يحظى صائب بها بعده فقالت « لا تحف يا حبيبي اني ثابتة على وداك . . اني متفانية في حبك . . وان يد ذلك المنافق اقصر من ان تنال مني شعرة وابعده من ان يحظى مني بنظرة . . ولكن آه ما الفائدة من ذلك وانت تحت خطر القتل الشنيع . . ما العمل الآن يا شيرين ؟ »

وكانت تقول ذلك وهي تمشي في الغرفة وقد اصبحت في غفلة عما يحيط بها ونسيت موقفها فاخذت تستجمع قواها فرجعت الى السرير واستلقت عليه واطلقت لتصورها العنان فسمعت وقع خطوات في الدهايز عرفت انها خطوات امها ثم سمعت تقرأ على الباب فعلمت ان والدتها تطلب الدخول عليها فنظاهرت بالنوم ولم تجب فالحمت والدتها في القرع خوفاً على ابنتها من تلك الوحدة لئلا يصيبها اغمء او سوء آخر . فلم تجد شيرين بدءاً من النهوض فهضت وفتحت الباب وهي تتجد لتخفي ما في نفسها . فدخلت والدتها وفي يدها مصباح وقد بلل الدمع عينها فتأثرت شيرين من حنو تلك الوالدة التي ليس لها تعزية في الدنيا سواها . وكانت رابطة شيرين بوالدتها اشد من رابطة سائر البنات بامهاتهن لان شيرين كانت مستودع اسرار تلك الوالدة النعسة التي خانها الحظ وصارت زوجة لذلك الرجل الجاهل . فاحتملت فظاظته وحماقته اكراماً لابنتها . فربتها احسن تربية ولما كبرت اتخذتها صديقة تشكي اليها همومها ومصائبها وهي التي سهت عليها الاجتماع

برامز . وكانت تسرباجتماعهما وينشرح صدرها لتعابهما وكانت تعد الايام ايتهم قرانهما .  
وقد احبت رامزاً محبة الوالدة لولدها فكان وقوعه في هذه الورطة من اكبر اسباب  
شقائها . وزاد بلباها لما علمت مما دار بين شيرين وصائب ان ابنتها عرضة لذلك الخطر  
الا اذا رجعت عن عنادها ورضيت بصائب مع كرها له واستنكافها من دناءة اخلاقه .  
ولكن غلب عليها الحنو الوالدي فاخترت اهون الشيرين لعلمها ان صائباً اذا لم ينس  
رضائها وشي بها وساعد على قتلها

كل هذه الهواجس مرت في خاطر توحيدة لما انفردت في غرفتها بعد ذهاب صائب  
وكانت تنوي ان تؤجل مخاطبة شيرين الى الصباح لكنها لما تراكت عاينها الهواجس  
لم تعد تصبر عن رؤيتها لتطمئن عاينها واعلمها تستطيع اقناعها بالقبول . وكان زوجها قد  
غادر البيت فرحاً برتبته ايقضي السهرة مع صائب ويطمئنه على نيل بغيته . فحمت المصباح  
وانت الى غرفة شيرين كما رايت

## الفصل السادس عشر

### شيرين ووالدها

فلما تلاقى نظراها ابتسمت كل منهما للاخرى تخفيفاً عنها والدمع يتقطر  
من اعينهما . وغلب حنو الوالدة فوضعت المصباح من يدها على طاولة هناك واكبت على  
ابنتها وضممتها الى صدرها وقبلتها وهي تقول لها « اين كان هذا البلاء محباً لنا ؟ .  
قبحك الله يا صائب . . قد كنا في نعيم وراحة فابيت وكدرت عيشنا » ثم رفعت راسها  
عن عنق شيرين وقالت « سامحك الله يا طهماز . . » وأمسكت شيرين من يدها واجالستها  
على المقعد وهي تقول لها « لا تحزني يا عيوني .. لا تيأسي .. ان الله لا يتركنا »  
فظلت شيرين ساكنة وقد اطرقت وعيناها . مغرورقتان بالدمع ولا تقدر على الكلام  
فاستخرجت توحيدة المنديل من جيبها ومسحت عيني ابنتها وهي تقول « لا بأس عليك  
يا حبيبتى . تكلمي . فقد ايتتك وابوك خارج البيت لاخفف عنك . ما من علة الا  
ولها دواء »

فتهدت شيرين تهدياً عميقاً ولم تجب  
فقالت توحيدة « ان الامر صعب ولكن نجاتك في يدك .. » وسكنت وهي تراعي

ما يبدو من شيرين فاذا هي لم تزد على ان نظرت الى والدتها بطرف عينها ولم تتكلم  
فقلت توحيدة « ألا ترين الحق معي يا حبيبتي . . اليس خلاصك في يدك ؟ »  
فتنهدت شيرين ثانية وقالت « اذا كنت تعنين خلاصي من الموت فنعم » فقالت  
« اذا فافعلي . . ارجعي عن عزمك وقولي كلمة فتقندي حياتك وحياة رامر أيضاً »  
فقالت « ولكن اذا رضيت انا بانقاذه على هذه الصورة لاسمح الله فانه لا يرضى »  
فاستبشرت بقرب رضاها فقالت « اما رامر فانا اضمن انه يرضى . . لا أعني ان  
تقبلي بصائب فعلاً بل اعني ان نسايره ونعده ريثما نرى ما يكون من امره . . فاذا اتقد  
رامراً فيفعل رامر به مايشاء . . وانما نحن نتجو من الخطر الذي يهددنا به »  
فقالت وهي تهز رأسها هز الانكار « وان رضى رامر فانا لا ارضى . . لا ارضى »  
قالت « لقد حيرتني . . بالله عليك اشفقي على والدتك اذا كنت لا تشفقين على  
شبابك . ان هؤلاء القوم لا يخافون الله ولا يباليون بماذا يفعلون . . دعينا نخادعهم مرة  
واحده التماساً لحياتك وحياة حبيبنا رامر وحياتي . »  
فقلامت شيرين وباعت ريقها كأنها تهم ان تقول شيئاً وتمسك نفسها فعادت توحيدة  
الى الكلام قائلة « بالله قولي يا شيرين . قولي انك اصغيت لتوسلي . »  
فقالت « دعيني الآن يا أماء اني لا املك نفسي »  
قالت « سأتركك . . تفكري في الامر الليلة وارجوان تتحقي صواب رأبي وتطيعيني  
وسأعود اليك في الغد ان شاء الله . . هل آتيك بالطعام؟ انك لم تأكلي شيئاً اليوم . »  
فاشارت براسها ان « لا »  
فألحت عليها ان تأكل فقالت « لا اشعر بالجوع الآن واذا جعت فاني اعرف مكان  
الطعام كوني براحة »  
فاطمأن بال توحيدة ونهضت وانهضت شيرين معها وساعدتها على خلع ثيابها ووضعها  
في الفراش ومضت وقد أنعشها الامل



## الفصل السابع عشر

## الى اين ذهبت

ونهدت توحيدة في الصباح باكراً قبل ان ينهض زوجها من الفراش وذهبت الى غرفة شيرين فوجدت الباب مفتوحاً وليس في الغرفة احد . فظنتها في مكان آخر من البيت ففتشت في سائر الغرف فلم تجدها . فعادت الى غرفتها وأمعت النظر فيها فعلمت من عدم وجود نعالها والثوب الذي تلبسه في الخارج انها ليست في البيت فاقشعرت بدنها واعملت فكرتها في المكان الذي يمكن ان تذهب اليه فتذكرت صاحبة لها كانت مستودع اسرارها تسكن على مقربة من بيتهم فنادت خريستو ( الخادم ) لترسله في التفتيش عنها فلم تسمع جواباً فظنته لا يزال نائماً فاسرعت الى حجرة ينام فيها فوجدتها مفتوحة وليس فيها احد فوقعت في حيرة وترقرق الدمع في عينيها . ولكنها ما زالت ترجو ان تقف على خبرها فلم تشأ ان تبكي فعادت الى غرفة شيرين وجلست على المقعد خائرة القوى واسندت رأسها بين كفيها واخذت تفكر في خروج ابنتها على تلك الحالة خلسة . واول خاطر بدا لها انها هربت خوفاً من غضب الماين عليها اذا اطعمهم صائب على كتابها . ولكنها لم تجد سبباً لفرارها خلسة عنها . ولكن الى اين تفر ؟ فتذكرت الخادم خريستو وهو الباني الاصل متقدم في السن وقدرني شيرين في صغرها وكان يستهلك في سبيل مرضاتها . وهو نشيط همام يحب الحرية ويكره اهل الاستبداد وكان يزداد احتراماً لشيرين وتقانياً في خدمتها كلما رآها تحب الاحرار وتخدم مصاحبهم فتصورت توحيدة ان خريستو أغرى شيرين على الفرار الى بلده

على انها لم تجد باعثاً على خروجها بدون ان تخبر والدتها فوقعت في حيرة واذا هي تسمع سعال زوجها وهو خارج من غرفته . ثم رأتة وعليه لباس النوم وعلى رأسه طاقية حمراء وقد انتفش شعر رأسه ولحيته وحمل على كتفه منشفة واتجه نحو حنفية الغسيل وهو يحك رأسه ويفرك عينيه . فلم تشأ ان تباغته لكنها سمعته ينادي خريستو ويلح في المتناداة فتقدمت نحوه وقالت « ان خريستو ليس هنا »

فالتفت اليها وقال « الى اين ارسلقوه في هذا الصباح ؟ . »

قالت « لم ترسله الى مكان ولكن شيرين ايضاً .. » وغصت بريقها وغلب عليها البكاء

فاستغرب بكاءها فقال « ما بالك تبكين ؟ ماذا فعلت شيرين ؟ انها لا تزال تتعبنا

باعمالها وعنادها »

فتجلدت توحيدية وقالت « شيرين ليست هنا . لا ادري الى اين ذهبت . » وكانت تتوقع ان يشاركها طهماز بالاستغراب والبغته فاذا هو تحول نحو الخفية واخذ يعالج الصابون ليغسل وجهه وهو يقول « ولا أنا ادري . . يظهر انها توجهت الى بعض صواحبها اللواتي يوافقنها على التحدث بالحرية والطعن في السلطان واعوانه . . انها سترميننا في ورطة لاخلص لنا منها » واخذ في الغسيل كأن الامر لا يهمه فاستخفاف طهماز بخروج شيرين خفف دهشة توحيدية لانها اعتقدت نفسها مبالغة بالخوف اذ قد تكون في زيارة عند بعض صواحبها كما قال على انها لم يطل صبرها على هذا الاعتقاد فعادت الى الوجمل واحبت ان تبعث من يفتش عن شيرين في مطاها وليس عندهم احد ولم تجسر ان تطلب الى زوجها ان يذهب بنفسه فاخذت تستعد للذهاب . فلبست ثيابها ولم تقل شيئاً حتى فرغت من اللبس وكان طهماز قد فرغ من الغسيل وهي تعلم انه سيطلب القهوة ثم الطعام فاذا وافقته ضاع الوقت فغافلته وخرجت الى الاماكن التي تظن شيرين ذهبت اليها وهي قريبة من المنزل ولم تغب نصف ساعة حتى عادت ولم تقف لها على خبر هناك فوجدت زوجها قد طبخ القهوة لنفسه واخذ في لبس ثيابه فقالت له « ذهبت للتفتيش عن شيرين فلم اجدها عند احد من اصحابها »

فقال « ستجدينها بعد قليل . . ولكن يظهر من ذهابها مع خريستوانها هربت وكم من مرة اردت اخراج هذا اللعين من بيتنا وانت لا تريدين . انه من جملة اسباب تمسك شيرين بعنادها ومتابعة اوائك الاغرار الذين يسمون انفسهم احراراً لانه من اهل ذلك الجنون ايضاً — اذا كنت تظنين شيرين قد هربت فلاحيلة لنا فيها ولاذب لنا لاننا نصحنها لها وكدنا تقبل يدها لترجع عن غيرها وتوافق صائب بك على طلبه لتسجوا ونحيينا من الخطر فلم ترض . . وها هي قد هربت وتركت الخطر علينا . فان الحكومة اذا طلبتها ولم تجدها تمسكت بنا . . . اخاف ان يكون صائب بك قد دفع كتابها الى ناظم بك رغم التماسنا ان لا يفعل »

قال ذلك وهو يلبس ثيابه وتوحيدية واقفة بباب الغرفة مطرقة لا تدري ما تقول ولما ذكر صائباً وكتاب شيرين خافت ان يصح قول طهماز ويكون صائب قد بعث الكتاب الى المايين غيظاً من شيرين ولم يصبر فقالت « صدقت اني اخاف ان يفعل صائب ذلك . ما العمل ؟ »

قال « وعدني امس انه يصبر الى صباح اليوم فاذا لم ترض بعث الكتاب وتواعدنا ان يأتي البنا في الصباح فلا يلبث ان يكون هنا . . اعدي لنا الفطور »

فهدنت نحو المطبخ واخذت في اعداد الطعام وركبتها ترتجفان من شدة النأثر  
وتعجبت كيف يخطر لزوجها ان يطلب الاكل وهم في تلك الحال من الاضطراب

## الفصل الثامن عشر

### الاستمهال

وبعد ساعة سمعت توحيدة قرقة المربة بجانب البيت تلاها الوقوف فعلمت انها  
مربة صائب فاخذتها الرعدة فتشأغلت باعداد المائدة ريثما يدخل . ثم سمعت وقع  
خطواته وطرق عصاه على السام وما لبث ان صار في الدار ووضع عصاه على الطاولة  
وخف طهماز لاستقباله وهو يهش له . فتصافحا ودخلا الصالون وصائب يشي مرحاً  
مشية الظافر ويتكلف التواضع والتلطف . وجاءت توحيدة بعد قليل للسلام عليه  
فلحظ دمعاً في عينيها فسأل عن السبب فقال له طهماز « لا شيء . لكننا اصبحنا اليوم  
فلم نجد شيرين في البيت فاضطرب باننا عليها »

فاجفل صائب واول شيء خطر بباله انها هربت فصاح « الى اين تهرب . . .  
ونهمس كأنه يهم بالخروج وقد بدا الغضب في عينيه فاستوقفه طهماز قائلاً « تهرب ؟  
لا نظنها تفعل ذلك . . انها لا تلبث ان ترجع اليانا . . افرض انها اختبأت عند بعض  
اصحابها يوماً او يومين ثم . . . »

فابتدره صائب قائلاً « كيف تذهب وحدها ؟ »

قال « يظهر انها ذهبت مع خريستو الخادم لاننا لم نجد في البيت »  
فجلس وهو يهز رأسه للتهديد وقال « مع خريستو الالباني ؟ هاها . . . » واخذ  
يقتل شاربيه وهو يعمل فكرته ثم استخرج علبة السكاير واخذ سيكارة فاسرعت توحيدة  
الى عود من الكبريت اشعلته وقدمته له وبدها ترتجف . فاشعل سيكارة منه ونفخ  
الدخان نفخة طويلة وهو ينظر في صورة معلقة بالحائط كأنه يتشأغل عن الغضب الذي  
تولاه فابتدرته توحيدة قائلة « ان شيرين لا يمكن ان تفر يا سيدي . لعلها عند بعض  
اصحابها وان كانت لم تفعل ذلك من قبل »

قال « تفر ؟ الى اين ؟ وكيف ؟ .. اننا نسد الطرق دونها . . . واذا هربت فاتها  
تطلب موناستير او غيرها او لعلها تذهب الى رسنه لان لكم اهلاً بها . وهب انها فرت

مع خادمها الى البانيا بلده فانها تحمل الينا صاغرة «  
فصاحت توحيدة بلهجة الاستعطاف « اتوسل اليك ياسيدي ان تساعدنا في  
استرجاعها . . . »

فقال « ولكنني لا استطيع ذلك الا اذا ابليت الحكومة ذنبها لتبعث الرسائل البرقية  
الى محطات السكك الحديدية لتوقيفها »

قالت « لا . لا ياسيدي . ليس هذا ما نطلبه واخاف حينئذ ان تقع نحن فيما هو  
اشتر من ذلك وانت لا ترضي ان تلحق بنا هذا الاذى اذ لا ذنب لنا ولا الذنب لشيرين  
ولكنها مغرورة . ولو صبرنا عليها يوماً او يومين واخذناها بالتؤدة لانصاعت الى ما نريد  
ولكننا تعجلنا رضاها وهي في ابان غضبها فلم تطع . . ومع ذلك لا اعتقد انها خرجت  
من سلانيك لانها لم تعود الخروج من المنزل فكيف تطلب موناستير او غيرها . فلنصبر  
هذا اليوم فقط ونحن نفتش عنها في بعض الاماكن التي نظنها توجد فيها الى المساء فاذا  
لم نجدها تكلمنا في الطريقة المثلى للتفتيش عنها » قالت ذلك وعيناها تدرقان الدمع  
وصوتها محتق ولم تعد تستطيع الوقوف فانصرفت الى غرفها

فلما خلا طهماز بصائب قال له « لا تخف انها لا تهرب . . وكيف تهرب وهي  
لا تقود عندها ؟ انها سترجع صاغرة مطيعة وتعترف بخطأها . وقد صدقت توحيدة باننا  
اخطأنا بما غتتها وتعجل رضاها . . انا وعدتك بها وانا مطالب بوفاء الوعد . . قبحها  
الله اين تجد احسن من صائب في كل الذين حولنا ؟ »

قال صائب « لا يهمني الآن رضيت ام لم ترض بعد الذي شهدته من فظاظتها  
وعنادها . . لكنني اصبحت مطالباً ان لا اخون ولي نعمتي . . »

فادرك طهماز انه يشير الى الكتاب الذي بيده منها وانه ينوي تبليغه الى المايين  
فقال « لا تفعل ياسيدي فانك اذا بلغت خبر هذا الكتاب الى الحكومة ولم يجدوا  
صاحبه وقع الغضب على اهلها . هل اذنبنا نحن لك ؟ ألم تجد اننا اخلص الناس للذات  
الشاهانية فهل تريد ان تؤخذ بذنب سوانا ؟ »

قال « انت والحق يقال مخلص لامير المؤمنين ولو كان السكل مثلك تخلصت البلاد  
من القلاقل . وستنال المكافأة اللازمة . ولا ريب عندي انك اذا اطعني وذهبت معي  
الى المايين ستلقى ما يسرك . . . »

فابرت أسرة طهماز اعجاباً بنفسه وقال « اذن فلننتظر يوماً او يومين ولا بد من  
ظهور الفتاة بعد ان تكون قد قاست الهوان والعذاب فترجع عن غيرها وتثوب الى رشدتها

وتعلم انك نصحت لها . ولا ينبغي لنا ان نحاسبها على ما فرط منها فانها لم تخرج عن كونها امرأة . وهل تحاسب النساء على اعمالهن وهن ناقصات عقول . وخصوصاً في هذا العصر الذي اصبح رجلاه لا يحاسبون على غاظهم اشد واذم عن المؤلف في ايامنا . انهم يخرجون على الخليفة ويطالبون قلب الحكومة . . اليس هذا من الطيش وهل يحاسب صاحبه على عمل يعمله فكيف اذا كان فتاة والنساء لم يخلقن الا للطبخ والخدمة وتربية البنين . . ولكن الزمان تغير وقانا الله عاقبة اعمالنا »

فصادق صائب على ما قاله طهماز ووافقته على الانتظار وكانت المائدة قد اعدت فنهضوا للطعام

## الفصل التاسع عشر

رامز

لنتركهم يفتشون عن شيرين ولنذهب الى رامز لنرى ماذا جرى له . انه سبق الى سراي الحكومة مخفوراً كما يساق المجرمون في مركبة مقفلة ومعه اثنان من الضابطة وحملوا اوراقه معه في محفظة كبيرة قد ختموها في غرفته بوجود ناظم بك . فكان وهو في المركبة المقفلة مستغرقاً في تصوراته وقد علم انه صائر الى اشد الاخطار فلم يبالي بشيء منها لولا شيرين . لانها كانت مستقرآمله ومستودع مسراته يكفيه منها نظرة تودد او كلمة اعجاب بما يكتبه حتى يستفزه الطرب وتهب فيه الحماسة وينشط الى مواصلة الاخذ بناصر الاحرار . وكانت هي التي زادته تمسكاً باذيال الحرية والدفاع عنها بشدة والطمع بالظالمين حتى تهور والقى نفسه في ذلك الخطر

وللمرأة روح تبثها في قلب الرجل فتنبه عقله وتثير همته ويصبح طوع ارادتها يجب ما تحب ويتفانى في سبيل ما يرضيها . فاذا كانت قويمة المبدأ سامية الخلق شريفة الاحساس صعدت به الى سماء المجد واصبح همه التخلق بتلك الاخلاق . وقد علمت ان شيرين كانت مفطورة على حب الحرية تعشقها وتتغزل بها فكيف لا يعشقها رامز ويستملك في نصرتها . وكم من قائد يخوض ساحة الوغى ويعرض حياته للخطر وهو لا يرجو من وراء ذلك الا ابتسامة من حبيبته او كلمة اعجاب من شفتيها . وكم من كاتب او جواد او مصلح انما يشقى في جهاده النعاساً لرضى حبيبة عاقلة فطرت على

حب هذه الفضائل . فبا لسعادة الامة التي تسمو فيها اخلاق المرأة حتى تعشق الفضائل فتكون عوناً للرجل على المبرات او الحسنات او السعي في سبيل الحق والحرية اذ تكون محرصة له تستهض همته بنظرة او كلمة - الام محرض ابنها والحبيبة حبيبها والاخت اخاها وويل للامة التي انحطت فيها اخلاق المرأة فاقصر همها على الاكل والشرب والمحصرات احاديثها في الخرافات والاوهام

قضى رامز مدة الطريق من منزله الى سراي الحكومة وهو غارق في بحار الهواجس لم تبرح صورة شيرين من مخيلته كما فارقتها للمرة الاخيرة . وتذكر نصيحته له ان لا يستخلص صائباً فقال في نفسه « لا بد ان تكون هذه الوشاية منه » ثم اكبر ان يرتكب صديق بصديقه مثل هذه الرذيلة

ولم ينتبه لنفسه الا وقد وقفت المركبة به وفتح بابها فزل منها وهو يتجلد ويظهر عدم المبالاة باعمالهم . فاستقبله ضابط كان واقفاً هناك وأشار اليه ان يمشي في أثره فتبعه حتى دخل قاعة ناظم بك القومندان . وكان رامز طويل القامة جميل الطلعة متناسب التكوين وفي عينيه ذكاء ومهابة . حسن الهندام نظيف الثوب ولكنه لم يستطع اصلاح شأنه في ذلك الصباح لانه نسي نفسه وانصرف بكتبته لما بين يديه . فلما دخل قاعة ناظم بك وجده جالساً في صدرها بلباسه العسكري وبين يديه المحفظة المختومة وبجانبه صائب بك . فلما رأى صائباً اجفل وتحقق ظنه فارتعدت فرائصه من الغيظ ولكنه تجلد فابتدعه ناظم بك قائلاً « كيف ترى نفسك يا رامز افندي . »

قال « لا أرى شيئاً .. » وهز كتفيه ازدراء

فتصدى صائب للكلام بلطف وهو يظهر الاسف وقال مخاطباً ناظم بك « ان رامز افندي مغشوش في الطريق الذي سار فيه . وانما اغراه اهل الطياشة ولا شك عندي انه حمل على ما فعله مراعاة لاصدقائه »

فقال ناظم « كيف يكون كذلك وهذه الاوراق تؤيد انه خائن الدولة والملة وهذه كتاباته في الجرائد التركية والفرنساوية تشهد عليه . واطنك تدافع عنه لانه من اصدقائك »

فقال صائب وهو يظهر الاهتمام « افندي . نعم ان رامز افندي صديقي لكنني اقول الحق وانا اعرف اخلاقه فانه مغرور . . » ثم حول خطابه الى رامز وقال « اليس كذلك ؟ »

فهز رامز رأسه بانفة ورفعة وقال « لا »

فقال ناظم لصائب « وتقول انه مغرور .. ان هؤلاء الغلمان المهوورين الخارجين على جلاله البادشاه ينبغي ان نجتث ارومهم ونعلمهم كيف تكون عاقبة الخائنين ... » وهم ان يأمر بأخذه الى السجن . فوقف صائب واظهر انه يبذل وسعه في الدفاع عن صديقه رامز وقال « افندم . تمهل . اتي اعرف رامزاً من الصغر وكننا معاً في المدرسة .. انه مغترٌ ومن غروره انكاره ذلك بين يديك »

ثم تحول نحو رامز وقال « لا يغرنك الغلمان الذين يزعمون انهم ينصرون الحرية فانهم انما يطلبون وظيفة متى حصلوا عليها نركوك في الخطر . وقد سبق وخذعوا كثيرين من امثالك ثم رجعوا الى صوابهم ونالوا رضى الذات الشاهانية وتعموا بخيراتها . وانما المطلوب ان نعرف الاشرار الاصليين الذين يجركون هذه الشرور وهم قليلون واكثر الذين معهم مغشوشون نظيرك . فانت الآن اذا دلتنا على رؤساء هذه العصاة التي تسمي نفسها جمعية الاتحاد والترقي او دلتنا على محل اجتماعها فقط فانا الضمين لك باطلاق سراحك . واحفظ هذه المحفظه بما فيها من الاوراق امامك وامن لك مكافأة عظيمة بالرتب السنية والرواتب الباهظة ... » ولما وصل الى هنا بلغ ريقه وتحنج يتشاغل لحظة ليرى ما يبدو في انائها من رامز فوجده ساكناً مطرقاً فتخيل له قرب قبوله فعاد الى الكلام فقال « واعلم انه لا يمكن ان يعجزنا الوصول الى سر هذه العصاة ومكانها من احد اعضائها اذ لا بد من ان بعضهم الجوع ويتعبوا من مناطق الصخر فيرجعوا الى مرضاة مولاهم ومولانا جلاله البادشاه امير المؤمنين كما فعل الذين سبقوهم في باريس وجنيف ومصر وغيرهم ولا بد من ان ينال المكافأة الكبرى من يبلغ خبر هذه الجمعية ويقع الغضب على الباقيين . فكن انت ذلك المبلغ ونحن نوافقك في اخراج من شئت من الاعضاء الذين تعتقد انهم مغشوشون نظيرك .. يكفي ان تجربنا عن المكان الذي يجتمع فيه أولئك العصاة الخوارج »

وكان ناظم بك يسمع كلام صائب وعيناه تراعي رامزاً وما يبدو منه فلما طال سكوته استبشر . فلما فرغ صائب من كلامه رفع رامز بصره اليه وقال « ان عزة النفس والحرية الشخصية وشرف القول الفاظ لا معنى لها عندك . ولا تقدر ان تتصورها فالكلام معك عبث .. انا لست مغروراً ولا رفاقي مغرورون وانما المغرورون انتم الذين تبيعون وطنكم وتسوقون اهله الى الحراب طمعاً بالمال . فاذا كان عندك كلام تقوله في غير هذا الموضوع ومنه فائدة قل . والا فافعلوا بي ماتشاؤون »

فرجع صائب وهو بهز راسه استغراباً وجلس على كرسيه وتناول ناظم بك الكلام

قائلاً « ان صائب اخاص لك النصيح . . فكيف تخاطبه بهذا الاسلوب ان غاية ما يطلب منا ان نرسلك مغلولاً الى الاستانة مع هذه الاوراق وانت تعلم مصيرك . لكن صائب بك اراد ان ينجيك فعرض عليك هذا الامر فاجبته بكلام قبيح تستوجب عليه القصاص » قال « لاحاجة لي بنصحه فافعل ماشاء . »

قال « خذوه الى السجن »

فشى رامز بقدم ثابتة وهو لا يبالي . وبعد انصرافه اتفق صائب وناظم بك على ارسال تلغراف الى المايين بالقبض على احد اعضاء الجمعية واوراقه ويسألهم عما يريدون ان يفعلوا به

## الفصل العشرون

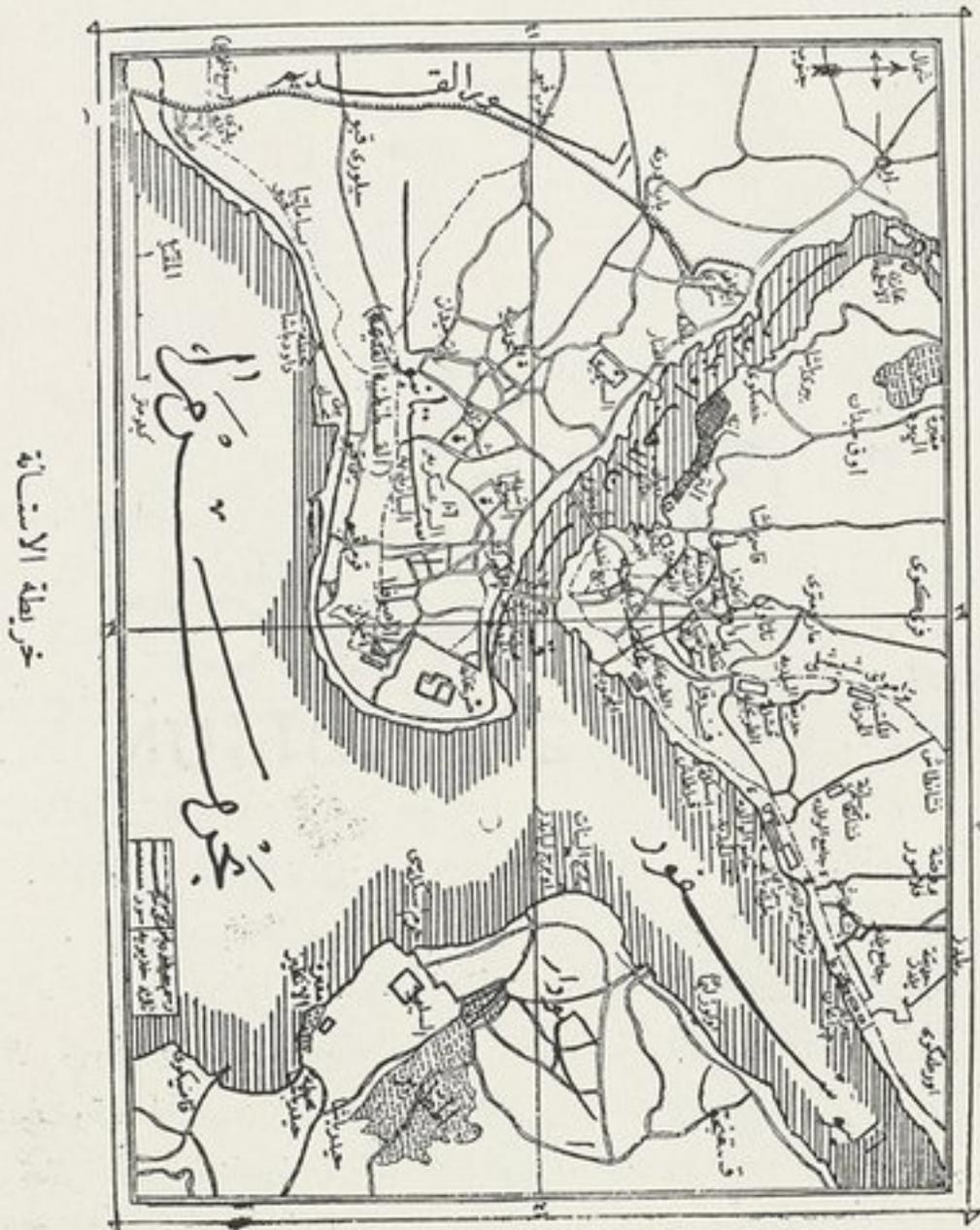
### الاستانة

ترك اهل سلانيك ونذهب الى الاستانة دار الخلافة ومصدر متاعب الاحرار ومرجع آمالهم . ونشرف على بلد زمدفن الافكار الحرة وبؤرة الجواسيس ومسرح اهل المطامع والاغراض

الاستانة هي القسطنطينية مدينة قسطنطين الكبير وكانت قبله تسمى بيزانطية فسميها باسمه وجعلها سنة ٣٣٠م كرسي المملكة الرومانية الشرقية او مملكة الروم في اصطلاح العرب . وقد خصها الله بموقع طبيعي لا مثيل له على سطح هذه الكرة لانها موصلة بين القارتين ووسط بين البحرين تمنعها المضائق وتصورها البواغير . وتقسّم الى الاستانة المدينة الكبرى والى الضواحي

والاستانة ثلاثة اقسام اثمان في اوربا والثالث في اسيا كأنها تتجاذب للمعانقة فتحول بينها المياه . او هي ثلاث مدن برية تفصل بينها ثلاثة اجح كما ترى في الخارطة . فالاقسام البرية هي استامبول في الجنوب وبك اوغلي او بيرا في الشمال وكلاهما في اوربا واسكودار في الشرق وهي في اسيا يفصل بينها البوسفور في الشمال الشرقي ومرمر او الدردنيل في الجنوب وقرن الذهب في الغرب الشمالي - تلك هي اقسامها اليوم اما في زمن الروم فلم يكن عامراً منها الا استامبول وهي البلد الذي فتحه العثمانيون وجعلوه مقر حكومتهم ولا تزال الى الآن مقر رجال الدولة وفيها ابنية الحكومة والجمامع والمساجد والمدارس

وهي تعد اسلامية لان اكثر سكانها من المسلمين . ولتلك فاكثر الآثار التاريخية فيها . وكانت يرا عند الفتح ضاحية بقيم فيها بعض الاجانب اذا نزلوا الاستانة ثم عمرت فصار ت بلداً اكثر سكانه من الافرنج ونحوهم . ويوصل بين استامبول ويبراجسرا ن احدهما جسر غلطة القديم وهو اقربهما الى البوسفور وثانيهما الجسر الجديد الى غريه . اما اسكودار فانها بلد اسلامي تربي يتفاهل به الاتراك خيراً لانهم نزلوه قبل الفتح ومنه انتقلوا الى اوربا ومدوا سلطانهم فيها .



خريطة الاستانة

وضواحي الاستانة اهمها واقع على شاطيء البحر وهي قسمان شمالي وجنوبي والشمالي على ضفاف البوسفور والجنوبي في جنوبها مما يطول شرحه فندكر اهمها وهو البوسفور (البوسفور) يمتد من الاستانة شمالاً الى البحر الاسود على مسافة ٢٧ كيلو متراً فهو موصل بين البحر الاسود في الشمال وبحر الدردنيل في الجنوب وعرضه عند مدخله نحو كيلو متر ونصف واضيق المسافات فيه عند روملي حصار واناطول حصار نحو ٥٠٠ متر واوسعها عند بيوك دره فان المسافة بين الشاطئين هناك ٣٥٠٠ متر . وهو عبارة عن قرى متقاربة تمتد على ضفتي البوسفور شرقاً وغرباً . يهمنسا منها مما على شواطيء اوربا محلة بشكطاش التي فيها يلدز وقصورها وحدائقها

وفي جنوب الاستانة عدة قرى على شاطيء اوربا وراء سور استامبول والبعض الآخر على شاطيء اسيا وهناك خط آخر بحري تكتشفه القرى من الجايين في قرن الذهب وهو يعد من الاستانة نفسها . والاستانة كثيرة الشواطيء عليها الاغراس والاشجار وينها الابنية . ثم ان هذه الشواطيء سلسلة تلال او هضاب بينها الاودية . حتى الاستانة نفسها فانها مؤلفة من هضاب تكسوها القصور والجوامع والشوارع اذا اطل عليها القادم بالبحر راي تلك الابنية تتدرج صعوداً من الشاطيء الى قم الهضاب وتتخللها الحدائق . فاستامبول مثلاً مؤلفة من سبع هضاب متصلة العمارة ممتدة على شاطيء قرن الذهب لا تظهر جلياً الا للمعتمل : اولها تشرف على الدردنيل وعليها الآن بناية الطوبخانة والسراي القديمة (طوب قبو) وجامع اياصوفيا وجامع السلطان احمد . وعلى الهضبة الثانية جامع نوري عثمانية . وعلى الثالثة سراي السر عسكرية وجامع السلطان سليمان او السليمانية . وعلى الرابعة جامع السلطان محمد الفاتح او الحمدي . وعلى الخامسة جامع السلطان سليم او السليمية وحي الاروام المعروف بالفنار وفيه بئر كخانة الروم . وعلى السادسة ابنية سراي لكفور عند محطة بلاطه وبعدها وعلى السابعة جامع ايوب وغيره . (انظر الخارطة) وبين هذه الابنية البارزة القصور والمنازل والاسواق والبساتين وغيرها متلاصقة او متقاربة تظهر للناظر اليها من البحر كأنها معرض منضد بعضه فوق بعض بشكل امفيقياتر

واعتبر ذلك بييراً تجاه استامبول على قرن الذهب فانها مؤلفة من تلال متقاربة . وهكذا ايضاً ضفتا البوسفور وشواطيء الدردنيل فانها عبارة عن تلال متحاذية على الشاطيء . يختلف طول قاعدة كل منها من نصف كيلومتر الى كيلومترين او اكثر او اقل . وعلوها من مئة متر الى بضعة مئات . اجملها على ضفاف البوسفور فانك ترى

القرية من قراها اشبه بمعرض من الحمايل والقصور تتدرج بعضها وراء بعض من الشاطيء الى قمة التل وبينها بسايتين بعضها من الشجر القديم كالسندبان والصنوبر والذلب ونحوها تقادم عهدها واهملها الانسان فتمت على الفطرة بلا تعهد ولا تقليم فاشتبت اغصانها وتعانقت افنانها ثم جاء الانسان فابتنى بينها قصوراً متفرقة او بيوتاً صغيرة من الخشب سقوفها من القرميد - وانما عمدوا الى الخشب دون الحجر لانه اقل كلفة وابتعد عن خطر الزلازل فوقعوا بذلك في خطر الحريق

فالتوغل في البوسفور على الباخرة يرى انه في بحيرة تحيط بها الهضاب المكسوة بالحمايل والحدايق يذنها الابنية مختلفة الالوان والاشكال مما يشرح الصدر ويطلق عنان الخيال . واجمل ما تشاهده من مناظرها قبيل الغروب انعكاس اشعة الشمس عن زجاج النوافذ من منازل الشاطيء الاسوي لامعة تبهر النظر كأنها منعكسة عن الماس ترصعت به تلك المنازل . ثم تحمر فيخيل لك ان النار شبت في الغرف حتى كاد لسان لهبها يندلع من الشبايك مما يستوقف النظر . فاذا غربت الشمس وخيم الظلام ارتسعت السماء على صفحات الماء . والجالس في اي منزل من منازل تلك القرى سواء كان على الشاطيء قرب الماء او في سفح الهضبة او على قممها فانه يشرف على المياه والبواخر نسبح فيها ويرى وراءها التلال المكسوة بالاشجار والابنية

ذلك شأن ضفاف البوسفور وغيرها من شواطيء الاستانة وضواحيها . واذا اوغلت في البر وراءها لا يقع نارك الاعلى واد خصيب او غابة غضة او جبل مكسو بالاشجار الكثيفة بينها ينابيع باردة مثل ينابيع لبنان تجري صافية كالزلال . وقد اقيمت هناك اما كن للترهة يقصدها الناس يقضون عندها الساعات والايام كما يفعل المصطافون بلبنان في خروجهم الى الينابيع المشهورة كعين الرمانة وعين حمانا ونبع العسل ونبع اللبن وغيرها وان كانت هذه اشد برودة من ينابيع الاستانة الا ان هذه اجمل منظراً واكثر خضرة لان معظمها يجري في جبال تكسوها اشجار هائلة الكبر قد تعانقت اغصانها وتكاثفت اوراقها حتى تحجب اشعة الشمس لكنها لا تضيق الصدر لانها عالية وبين جنوعها منفرجات . وقد تعاطم جرمها لقدم عهدها ويندر ان تكون للانسان يد في اصلاحها . وهذه الينابيع كثيرة بعضها في شاطيء الاناطول والبعض الاخر في جهات الرومي . واشهر المياه في الرومي نبع الكاغدخانة في اخر قرن الذهب وهو منتره جميل مساحته عشرات من الافدنة مكسوة بالاشجار والاعشاب وتجري فيها المياه فبقصدها الناس زرافات ووحداً في فصل الربيع . وجر جر نبع كثير الشبه بموقعه

وبرودته بعين الرمانة بلبنان . وبالقرب منه نبع خونكار ( خونكار صو ) وهو اعلى كثيراً من جرجر لا يمكن الصعود اليه الا بالمركبات ويصعب تساقه على الدواب فالطبيعة وهبت الاستانة هبات يعز منها في مشارق الارض ومغاربها ولكن الانسان لم يحسن استخدام تلك الهبة - فبين ترى منازل الاستانة متراسة بعضها وراء بعض تشرف على البحر وعلى ما جاورها من المنازل ترى شوارع المدينة ودروبها تكاد تكون خراباً لتقلل بلاطها وقلة العناية في اصلاحها فضلاً عن ضيقها . كأن حكام العصر الماضي لم يكن يهمهم الا ما يخصهم او يول الى منافعهم الشخصية لانك ترى منازلهم على اتم نظام وحدائقهم على اجمل ترتيب يتعهدون اشجارها بالمقراض على احسن هندام ويرصفون الطرق بين المسالك بالحصى الملونة على شكل الفسيفساء . وكانوا ينفقون الملايين على بناء منازلهم ومنزلاتهم ويضنون بالقروش على الاماكن العمومية

## الفصل الحادي والعشرون

يلدز

اما وقد عرفت الاستانة فتعال معي الى بلدز وان كان ذهابنا اليها في زمن روايتنا خطراً . فاني اطير بك الى عالم التصور لاصف لك تلك السراي التي جرت اكثر وقائع هذه الرواية فيها . وهي وان سموها بالسراي او القصر ليست قصرأ واحداً نجماً كما يتبادر الى الذهن وانما هي عدة قصور قد لا يرى في احدها نخامة ما يراه في قصر طوبه بفتح او الجمال الذي يراه في قصر جرانان . وانما هي هضبة كبيرة واقعة في بشكطاش وراء محطة اورته كوي فوق قصر جرانان تكتنفها الاودية والتلال وقد انشئت فيها الحدائق والبساتين والبحيرات وبذبت فيها تصورات متفاوت قدرأ وجمالاً وهي عديدة ومتفرقة بين الحمايل والغابات على غير نظام . وليس في وصف هذه القصور كثير مما يدعش القارئ ولكن العبرة بما هنالك من الحيات الغريبة التي نفتقر اليها في اثناء حوادث روايتنا واليك تفصيل ذلك :

ان البقعة التي اقاموا فيها تصور بلدز واسعة تزيد سعتها على مساحة بلد كبير اكثرها غابات كثيفة الاشجار بينها حدائق غناء وبحيرات تجري فيها القوارب وتقسّم بحملتها الى قسمين كبيرين ( ١ ) الحديقة الداخلية ( ٢ ) الحديقة الخارجية . وبلدز باب



بلدز من الباب الخارجي الكبير الى باب الحديقة الداخلية

خارجي كبير تدخله المركبات الى بقعة فيها طريقان احدهما الى اليسار يؤدي الى باب الحديقة الداخلية والآخر الى اليمين يؤدي الى طريق الحديقة الخارجية وفي كل من الحديقتين قصور وابنية سنذكر ما يهمنا منها

#### الحديقة الداخلية ومسارح الطير

فالحديقة الداخلية عبارة عن بستان كبير محاط بسور عال اشبه بأسوار الحصون منه بالحدايق يفصله عن الحديقة الخارجية . يدخل الى الحديقة الداخلية من باب كبير مذهب هو باب السراي المؤدي الى القصور الداخلية . وهي قصر الماين الصغير مسكن السلطان المخلوع وقصر جيت وقصر مالطة وقصر جهان نما ومعروض الحيوانات . فهذه القصور متقاربة كل منها يستطرق الى الحديقة الداخلية . وفي الحديقة المذكورة بحيرات تجري فيها القوارب . ومسارح للطير هي عشرات من الغرف المتقنة مصنوعة من الخشب المزخرف ملاصقة لجدار الحديقة الشرقي . ولها واجهات من الزجاج وشبابيك من الاسلاك وبعض الغرف كلها من الزجاج . يسرح فيها الحمام كل نوع في غرفة او بضع غرف متقاربة وبينها الحمام الابيض والاسود والمرقط وذات العرف الطويل او الذيل العريض على اختلاف الاجناس . ولها في مسارحها مجالس تأوي اليها وتبيض او تفقص فيها على ابداع نظام . ويبي مسارح الحمام غرف لتربية الازهار الشتوية التي يضر بها البرد مصنوعة من الزجاج المضبوط التماساً للدفع . ويبي ذلك اقصاف فيها بنات آوى او بعض الكلاب الضخمة . وفي بعض جوانب هذه الحديقة اسطبلات فيها مواقف للنخيل في كل موقف اسم الجواد الذي كان يقف فيه .

وامم القصور الداخلية في بلدز قصر جهان نما وهو صغير لكنه في غاية الاتقان يشرف على البوسفور اشرفاً رحباً . وقصر چيت سمي بذلك لانه مبطن بالانسجة بابه خارج باب الحديقة الداخلية لكنه يعدُّ منها لانه من جملة ابنتها . وقد يدخل اليه من باب سري فيه . ومعرض للحيوانات فيه انواع الطيور وغيرها مخنطة . وقصر چادر وقصر مالطة وقصر مراسم في الحديقة الخارجية وهو اجملها كلها وانخمها وفيه من التحف ما يعجز القلم عن وصفه . وقصر المايين الكبير في تلك الحديقة ايضاً . وهناك جامع لتلك القصور اسمه الجامع الحميدي . ثم المايين الصغير او مسكن عبد الحميد وهو اهمها كلها بالنظر الى ما نحن فيه وهو اول قصر يستقبله الداخل من باب الحديقة الداخلية الى يمينه وليس هو بالقصر الفخيم . يرقى اليه على بضع درجات بسيطة ومدخله باب اعتيادي يؤدي الى فسحة صغيرة ومنها الى الدهاليز والغرف على غير نظام وفيها غرف المائدة والاستقبال والكتابة وغيرها وسيأتي وصفها في عرض الكلام

## الفصل الثاني والعشرون

بلدز بعد نصف الليل

نام اهل الاستانة واستغرقوا في احلامهم - والاحلام بقظة نانية يكابد فيها الناس شقاء نانياً في عالم آخر . وكانت الليلة مقمرة وقد وقعت اشعة القمر على الاستانة وضواحيها فانعكست عن مياه البوسفور فاصبح سطحه كالصحيفة البيضاء لا يخرقه قارب ولا تمخر فيه سفينة خوفاً من غضب رب بلدز لانه امر الناس ان لا يعكروا ماءه ليلاً والا ارسلهم الى قاعه جثثاً هامدة . حتى الريح فانها اطاعته ولم تهب في تلك الليلة فظل سطح البوسفور هادئاً لا تتلاطم فيه امواج ولا يتحرك فيه ساكن . او لعله شارك اهل الاستانة في رقادهم فانه كان رقيقاً بهم وقد عاصروا جيلاً منهم فلم يمر به جيل اتعس حالاً من هذا الجيل - حتى في اقدم ازمنة الاستبداد . شاهد اليونان والرومان والفرس والعرب والأتراك واخرقه داريوس وقسطنطين ومحمد الفاتح وغيرهم من كبار الرجال . وقطعه الصليبيون في طريقهم الى الحرب المقدسة فلم ير بين هؤلاء ولاغيرهم من اشبع جوفه من الجثث كما فعل صاحب الاستانة ورب بلدز في هذا العصر

نام اهل الاستانة بين كهل يحرق الارم اسفاً على ما ذهب من شبابه عبثاً في معالجة باب الرزق فلم يجد له فيه مدخلاً . وسجين يدعو ربه خلصة ان يقتص له من القوم الظالمين . وارملة اغرق بعلمها في مياه البوسفور فحيت الجواسيس . ويتامى يتضورون جوعاً ولا ذنب لهم الا انهم ولدوا في عصر طاغية لا ينم عن الاذى تتناهبهم المخاوف حتى في الاحلام فيتصور لهم عبد الحميد كالتين فاغراً فاه او كالثعبان ينساب بين اسرتهم ينث سمه في جراحتهم

حتى اهل يلدز - وهي الجنة باغراسها وقصورها ومياهها والنار بمن نقشى في اكنافها من اعداء الانسانية الذين تغمض عيونهم للرقاد ولاتنام افكارهم عن نصب الحبائل . يمضي النهار بنوره ويقبل الليل بديجوره وتبديل مظاهر الوجود ولا يتغير ما في نفوسهم . اذا خيم الظلام سكنت الطبيعة وتجلت هيبتها واتسع مجال الخيال وانقضت بهرجة النور عن وجه الحقيقة فيرى العقل من مساوى النفس ما لا يراه في رابعة النهار - كالسكوت اذا استولى على المكان اسمعك اخفت الاصوات . فالليل بديجوره يكشف لاهل الارض سيئاتهم ويحسم اعمالهم . اذا نظروا الى السماء راوا نجومها كالعيون المحدقة بهم او كالضابطة تراقب اعمالهم - وكأن النوم مجرد النفوس من الاجساد فتقابل وتتعاب لا فرق فيها بين الملك والصلوك والظالم والمظلوم كأنها في حضرة الديان العظيم - ان الظلمة تكشف لاهل الظلم موبقاتهم فيرونها مكبرة في ذلك السكوت المهيب كان الطبيعة صامته غضباً من اعمالهم

ذلك موقف يريك فضل الحيوان على الانسان . ان الحيوان لا يؤذي اخاه الا اذا جاع فيتنازعا على الفريسة فاذا شبعاً تألفا وتكاتفوا . والانسان كلما زاد شبعاً زاد طمعاً وكلما زاد ثروة زاد جشعاً . اذا شبع قتل اخاه الجائع وقد يقتل المئات ليقال انه قاتل . ويستعبد الالوف ليسي نفسه الحاكم . فيموت هو من التخمة واخوه بجانبه يموت من الجوع

انظر الى اهل يلدز فقد ناموا ملء جفونهم بعد ان تأمروا وتجسسوا وتخاذعوا وتواطأوا على خراب بيت او تعذيب نفس او ابتزاز مال . ولو اطمانت نفوسهم وهدأت ضمائرهم لم يركنوا الى الاسوار العالية والابواب الموصدة يقيمون عليها الحفظة سبعة آلاف رجل من الالبان والشراكسة

هناك الحدائق الغناء والقصور الزهراء . يعيش من فضلات طعامها الوف من المتزلفين وقد ابيح دخولها للديابات تشرح في ساحاتها والطيور تدف في اكنافها

ولم يمنعوا الافاعي من الانسياب بين اغراسها - حتى الحشرات والديدان وادنى انواع الحيوان وجدت فيها مقبلاً او مسرحاً . وانما اوصدت ابوابها في وجه طلاب الرحمة من بني الانسان

انظر الى تلك القصور وما اتفق فيها من الالوال وما اهرق في سيل بيناتها وزخرفها من الدماء وقد اقيم على ابوابها وفي طرقاتها وحول اسوارها الوف من الرجال الاشداء باسحتهم وافراسهم وعيونهم كالشهب وقلوبهم كالرجم . وقد جردوا السيوف وانغمدوا الفمائر وباعوا الآخرة بالدنيا لحماية رجل واحد لا تقع العين عليه الا بعد اختراق الابواب وتسلق الاسوار . بحسبه غير العارف متنعاً باشهى . ملاذ الحياة وهو محروم مما يتمتع به احقر رعاياه مع مخاوفهم ومظالمهم . انهم ينامون بلا حراس واذا خافوا تزحوا وبلاد الله واسعة وهو لا يستطيع تزوحاً . لانه يخاف على حياته من كل احد حتى من اعوانه وحراسه ومن اولاده ونسائه . يخاف من طعامه وشرابه . يخاف من فراشه ووساده لا يستقر به مضجع ولا يهدأ له بال . يقضي ليله ساهراً حذراً واذا غلبه النعاس توسد كرسياً وكان نومه متقطعاً يتقلب على اشواك المخاوف

## الفصل الثالث والعشرون

عبد الحميد في ليله

كذلك كان عبد الحميد سلطان البرين وخاقان البحرين الذي دانت له الرقاب وقبض على الحياة والموت . ويزعم المقلقون انه اذا غضب غضبت العناصر وان رضي ابتسمت الطبيعة . تحييه الرياح وتطيعه الامطار - لم ينفعه ذلك بعد ما ارتكبه من الشطط في تلك السيادة فتجاوز بها الحد فتولاه الخوف والقلق . تلك كانت حاله في ذلك الليل ولو اوتيت المعجزة حتى لبست قبع الاخفاء ودخلت ذلك القصر الفخيم في غفلة من الحراس واقبات على المابين الصغير مسكنه الخصاص في الساعة الثالثة بعد نصف الليل لعلمت ان اهل تلك القصور قد استغرقوا في نومهم حتى الحراس الموكلين بالسهر والحذر - حتى هؤلاء غلب عليهم النعاس فناموا ولم يبق احد ساهراً هناك ولا الحشرات - حتى الاشجار اطبقت ازهارها تلتبس الراحة . الا صاحب ذلك القصر وسيدته الذي اوصدت الابواب لوقايته واقيم الجند لحمايته . فانه ما زال

ساهرأ يتقلب على كرسي طويل توسده وقد النف بملاءة من الصوف واخذ يقرأ  
تقريراً جاءه من بعض جواسيسه فقلق راحته وحرمه النوم . وقد غلب عليه التعب  
والارق وهو يطلب الرقاد ليرج جسمه ويبعد مخاوفه فلا يجد اليه سيلاً  
فلما دقت الساعة الرابعة اطبقت اجفانه واصبح كالتأم ولكنه ساهر مستيقظ  
بما انتابه من الاحلام المزعجة ففضل اليقظة لان النور يؤنسه — والاستغراق في الافكار  
المتضاربة اولى من الذهاب فريسة تلك الاحلام . فعمد الى كتاب تعوّد ان يلهو بقراءته  
تأليف ما كياغالي الشهير . ففتحه وقرأ فيه هنيهة . ثم تركه وخطر له ان يلهو بالنجارة  
وعنده في ذلك القصر غرفة فيها كل معدات هذه الصناعة واسكنه تكاسل

وظن العلة من الفراش فغادر الكرسي في غرفة المائدة الى كرسي في غرفة البيانو  
فلم يجده التغيير نفعاً . فرمى الورق من يده ومشى يطلب رقاداً في غرفة اخرى . ثم ندم  
فعاد والتقط تلك الاوراق المتناثرة فجمعها ورتبها واحتفظ بها وضمها الى صدره وذهب  
الى كرسي آخر في غرفة الكتابة وطفق يقرأ وهو لا يفهم ما يقرأ لفرط التعب فغلبه  
النعاس فنام حتى طلع الفجر . وكان صياح الديك نبيه فنهض ودقت الساعة السادسة  
ثم سمع صوت المؤذن فعرف ان الصلاة قد اذفت نخرج للوضوء فرأى صاحب الوضوء  
بانتظاره - ووضوءه عبارة عن الاستنجام مختصراً فهرع بالبنطوف في الحمامة الخاص  
في ذلك القصر وفيه الاجران الرخامية المعرقة بالذهب والحنفيات المذهبة وسائر  
معدات الاستنجام فاستحم وافكاره تائهة . وادى فرض الصلاة وعاد الى التقرير فتأبطه  
ومشى نحو باب من ذلك القصر يستطرق الى الحديقة الداخلية وقد النف بعباءة  
كستنائية اللون واسعة الاردان تكسو اثوابه

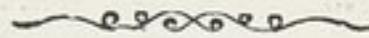
وهو نحيف الجسم ربة او تحت الربة لا يزيد طوله على خمسة اقدام عصبي المزاج  
وكان في شبابه طلق الحيا مستدير الوجه فاصبح يومئذ وقد تغيرت سمخته لفرط ما عاناه  
من بواعث الحذر على حياته — لانه قاسى عذاب الموت خوفاً من الموت وكابد مرارة  
الاستعباد رغبة في الاستبداد . فمن عرفه في شبابه قد ينكره في ذلك اليوم كما ترى الفرق  
بين رسميه . فقد برز فكاه ووجنتاه وانفه وخفت لحيته وغازت عيناه لارتخاء الجفن  
العلوي من الشيخوخة وظهرت غضون وجهه وتساقط شعر رأسه فصار يعطي صلته  
بطربوش كبير ينزل الى اذنيه وقد لبسه في ذلك الصباح فبان امتقاع وجهه من تحته  
واصبح في شيخوخته سوداوي المزاج فاذا رايتة تحسبه مثقلاً بالهموم ولو كان في  
اسعد احواله فكيف وهو في ما تقدم من القلق



عبد الحميد في ذلك الصبار

عبد الحميد في شبابه

دخل الحديقة وهو ملثف بالعباءة وقد تأبط ذلك التقرير تحتها . وكانت الشمس قد اطلت من وراء جبال آسيا فاصابت اشعتها اطراف الاغصان فاستيقظت العصافير واخذت ترفرف وتزقزق . وابتسمت الازهار وصفقت الاوراق وسرح الاوز في البحيرة حول القوارب . وتطابرت الحمام في ابراجه واخذ يتداعب هذه تنقل وتلك تهدر وتلك تحضن فراخها . وبسط الطاووس ذيله وتبختر في قفصه مرحا . وتجاوبت الكراكي والحسائين وصهلت الخيول . واصبح كل حي في تلك الحديقة ضاحكاً مسروراً الا عبد الحميد فانه مشى في اكنافها مقطب الوجه منقبض النفس في غفلة عن كل ذلك والفهوجي باثني يسير في اثره ومعه ادوات القهوة لعل سيده يطلب طبخها . ولم يكن هناك سواهما مع كثرة من في تلك القصور من النساء والرجال وعددهم يزيد على خمسة آلاف . لكنهم لا يجسرون على الظهور في حضرته الا بطلبه . على انهم كانوا يتشوفون اليه من النوافذ يراقبون حركاته خلسة



## الفصل الرابع والعشرون

### البيغاء

وبعد ان جال في الحديقة هنيهة تحول الى كشك من الخشب بجانب البحيرة وجلس على مقعد فوق وسادة من الحرير و اشار الى القهوجي باشي ان يطبخ له القهوة واستخرج التقرير من جيبه وعاد الى تلاوته . ثم جاءه القهوجي بالقهوة فتناولها وهو يعمل فكرته في ما قرأه . واذا هو يسمع ضحكاً عرف من طوله واطلاقه انه ضحك ابنه احمد نور الدين افندي وهو يومئذ في السابعة من عمره - ومن يجسر على الضحك في حضرة البادشاه سواء ؟ فالتفت نحو الصوت فرأى الغلام يلعب ببغاء جميلة اللون بين يدي مربيته ويضحك لرفرفة جناحيها وصياحها

ولم تكن المربية عالة بوجود السلطان هناك فاسترسلت في ملاعبة الغلام . ومالبت ان سمعت نحنة السلطان فاجفلت وهمت بالفرار . ثم سمعته يناديها فتلامت واحتجت بالغلام فقادته بيده الى الكشك تلتمس الاعتذار عن جسارتها بوجوده معها . فافلت الغلام من يدها واسرع بدالة الطفل على ابيه ورعى نفسه عليه . فاستقبله ابوه وقبله واراد ان يخفف ما به بمحادثة فاعده على حجره وسأله عن سبب قدومه الى الحديقة في تلك الساعة

قال الغلام «جئت لا كلم سديقتي البيغاء» وضحك ضحكة الطفل و اشار الى البيغاء في يد المربية . وكانت لا تزال واقفة في الخارج وقلبها يختلج خوفاً من غضب السلطان لئلا يظن بها سوءاً فيقتلها . وقد عرفت كثيراً من امثال هذه الفضائح في بلدز يقتل فيها الرجل او المرأة بطلق ناري من يد عبد الحميد لمجرد التوهم انه جاء بدسيسة . فظلت واقفة في الخارج وودت لو ان الارض تبتلعها وتخيفها . ولولا علمها ان عبد الحميد يكون في مثل ذلك الوقت منزوياً في مكتبه يقرأ التقارير مارافقت الغلام الى هناك

فلما اشار الغلام الى البيغاء التفت ابوه الى المربية واوما اليها ان تعيد الطير الى قفصه . وكان قفصه معلقاً بشجرة من الدلب قريبة من الكشك . فما صدقت انه امرها بذلك حتى مشت الى احد البستانيين فاعانها في ادخال البيغاء الى القفص وانزوت في بعض جوانب الحديقة

واخذ عبد الحميد في مداعبة ابنه فقال له « تحب البيغاء كثيراً يا نور الدين ؟ »  
قال « نعم يا بابا احبها »

فقال السلطان « أكثر مني ؟ »

فأهّم الغلام بذلك السؤال رغم طفوليته لان تعظيم شخص عبد الحميد كان قاعدة متبعة يتدارسها الكبار والصغار . ولعله آانس في عيني ابيه ما بعثه على الاهتمام . فقال « عفو افندم .. لا ينبغي ان نحب احداً في الدنيا اكثر من الذات الشاهانية »  
فادرك عبد الحميد ان مثل هذه العبارة لا يقولها هذا الغلام من عند نفسه فقال له « ومن علمك ذلك ؟ »

نخاف الغلام ان يكون قد اخطأ فبدأ الخوف في وجهه مع التردد ولم يدر بماذا يجيب فضحك ابوه تشجيعاً له على الكلام فقال الغلام « علمتني اياه قادين ج ... »  
فبدأ الغضب في وجه عبد الحميد عند سماع ذلك الاسم وتمم قائلاً « انها تحال في استرضائي .. يالها من خائفة .. وتظن هذه الحيلة تطلي علي ؟ » ثم تجاهل وعاد الى مداعبة ابنه فاستخرج من جيب عباءته سبحة من الكهرياء دفعها اليه وجعل يلاعبها ويداعبه والغلام يضحك وابوه يتضحك ويتلاهي فتحرك الغلام حركة اوقعت التقرير من حجب السلطان فتناول ليلتقطه فاضطر لذلك ان ينهض من مقعده فتحول وجهه نحو البيغاء في القفص فرأى ان يعود الى مداعبة ابنه بها فقال « الا تعطيني هذه البيغاء واعطيك هذه السبحة الجميلة ؟ »

قال « ان البيغاء لك أيضاً .. السنا جميعاً ملكاً لك تفعل بنا ما تشاء ؟ »  
فعلم ان ذلك الجواب من دروس تلك القادين ايضاً فلم يعبأ به ولكنه اشار الى بستاني ان يأتي بقفص البيغاء الى ما بين يديه . فجاء به ووضع على مقعد خارج الكشك فخرج الغلام وطفق يكلم البيغاء وهي تقلد كلامه . وشغل عبد الحميد باختلاس النظر الى ما يحدث به من المطال فرأى نادراغا وهورئيس الخصيان وصاحب النفوذ الأكبر في تلك القصور - رآه خارجاً من مكان لم يكن يتوقع ان يراه فيه . فلما وقع نظره عليه صاح به « نادراغا ! نادراغا ! » بنعمة الأمر المستبد فاسرع نادر حتى وقف بين يديه وسلم بالاحترام اللازم والدعاء فقال له « من اين انت آت ؟ »

قال « من حوالي قصر مولاي »

قال « وما الذي كنت تفعله ؟ »

قال « كنت ساهراً على راحته لاني شعرت بما اصابه من الارق وياحبذا لو استطعت

نفعه بشيء »

فتحقق عبد الحميد صدق قوله وكان حسن الظن به ويرى سواد جلده بياضاً

وكثيراً ما جعله عيناً على حرسه الخاص الموكل بحراسته لانه كان يسيء الظن به .  
فانبسطت نفس عبد الحميد واثني عليه ثم قال « ادع سر خفية (رئيس الجواسيس)  
وقل له ليقابلني في المايين ويتناول الفطور معي »

فالتى تحية الاحترام وانصرف . واخذ عبد الحميد يهتم بالتهوض واذا هو يسمع  
صوتاً مثل صوته تماماً ينادي « نادر آغا نادر آغا » وفيه نعمة الاستبداد مثله فاجفل وما  
لبث ان رأى نادر آغا قائداً ويكاد يتعثر بساقية لطولها فقال عبد الحميد « من دعاك ؟ »  
قال « الم يدعني مولاي ؟ اني سمعت امره باذني »

وكان نور الدين افندي واقفاً بازاء قفص البيغاء وقد اغرب في الضحك . فقال له  
ابوه « وما يضحكك ؟ من نادى نادر آغا ؟ »

فاشار الغلام الى البيغاء وقال « هذه » قال ذلك وهو يتوقع ان يبدو سرور  
الاعجاب في سحنة ابيه لاتقان البيغاء التقليد ولكنه راي عكس ذلك فبان الغضب في  
عيني عبد الحميد وصاح « اخرجوا هذا الطير من قصري او اقتلوه فاني لا اطيق ان  
اسمع صوتاً يأمر وينهى غير صوتي » قال ذلك بلحن الحنق والاستبداد حتى سمعه  
كل من في الحديقة من الحاشية والنساء والسياس وتولاهم الرعب من شؤم ذلك النهار  
الذي ظهر غضب السلطان في اوله . وبادر البستاني فاخذ القفص وطار به وتبعه  
البرنس احمد نور الدين يتوسل اليه ان يستبقي ذلك الطير ولم يعد يجسر ان يخاطب  
اباه بشأنه

## الفصل الخامس والعشرون

### السر خفية

اما عبد الحميد فمشى الى قصره ونظر الى القهوجي نظرة فهم منها انه يريد التدخين  
فقدم له سيكارة وبادر الى اشعاله . فسار وهو يدخن وجعل طريقه في دهليز يستطرق  
الى باب القصر الرئيسي حيث يقف الحرس الالباني بالاسلحة . فرأى بين صفوفهم وهم  
يجيونه التحية العسكرية وهو يرمقهم خلسة ويلاحظ حركاتهم ويده في جيبه تحت العباءة  
على المسدس لئلا يكون هناك من يترصد قتله فيسبقه هو الى القتل بالرصاص — وكان من امهر  
الناس باطلاقه — حتى وصل الباب . وكان نادر آغا واقفاً في انتظاره هناك ففتح له الباب

فدخل يطلب غرفة اللبس . ومر بطريقه اليها في ممر قد كسيت جدرانها بالخزائن المملوءة بالتقارير السرية وفيها الوف منها جمعت بتوالي السنين . فلما وصل الى غرفة اللبس ساعده نادر آغا في تبديل ثيابه فلبس الاسطنبولين السوداء كالعادة وسأل نادر اذا كان استدعى السر خفية

فقال « نعم افندم هو آت حسب الامر ومعه يريد هذا الصباح »

فلما سمع لفظ البريد تذكر التقرير الذي كان معه فتنفقه فاذا هو على مائدة هناك . وبعد ان فرغ من اللبس توجه الى غرفة المائدة وهي قاعة واسعة في ارضها بساط واحد فيه رسوم جميلة تشبه رسوماً مثلها في السقف بلوانها واشكالها . وفوق البساط مائدة كبيرة تسع حولها بضعة وعشرين رجلاً . وفي صدر الغرفة موقد التدفئة من البورسلين الابيض المذهب عليه حرف H مرسوماً بالذهب . وتجاه الموقد ( ويسمونه في اصطلاحهم صوبا ) في الحائط المقابل له ساعة كبيرة موضوعة على كونسول متقن الصنعة . ولا تخلوا غرفة من غرف ذلك القصر من ساعة وثرموتر وبارومتر لان عبد الحميد كان شديد الولوج بهذه المقاييس

والى كل من الجانبين خزانة من الخشب الثمين بشكل البوفيه ولكن احدهما اذا فتحت ظهرت انها بيانو من اعلى طرز . وهي هدية من امبراطور الالمان لصديقه عبد الحميد

دخل غرفة المائدة والتقرير في يده فوضعه على طرف المائدة وكان الطعام قد اعد على الطرف الآخر منها وهو بسيط يقتصر على اللبن والبيض وبعض المريات والفاكهة . ونظر الى الساعة فرأى وقت مجيء السر خفية ( رئيس الجواسيس ) لم يجن بعد وتقدم نحو خزانة البيانو التي تقدم ذكرها وبادر نادر آغا الى فتحها لعله ان سيده يجب الضرب على تلك الآلة احياناً وخصوصاً اذا كان قلق الخاطر

فجاس عبد الحميد الى البيانو والسيكار في يده فوضعه على منفضة هناك واخذ يضرب لحناً تعود الاربياح اليه ونادر آغا واقف ينتظر امره . ثم شعر عبد الحميد بخطوات في الفسحة الفاصلة بين تلك الغرفة وباب القصر . فأمسك عن الضرب والتفت فاسرع نادر آغا الى الباب ليستفهم عن القادم . ثم عاد وقال « ان السر خفية جاء ومعه حقيبة البريد وضعها على الطاولة في الفسحة

ثم دخل السر خفية وهو كهل قصير القامة عليه اسطنبولين فالتفت التحية الى الارض ووقف بالباب فنبسم عبد الحميد واثار اليه ان يدخل فدخل باحترام وهو

يتعلم ويتأدب على جاري عادتهم  
 تجلس عبد الحميد الى المائدة و اشار اليه ان يجلس تجاهه وامر نادر آغا بالانصراف  
 وان يقف في مكانه خدام المائدة اصم ابكم تعود ان يخدمه اذا كان في جلسة سرية لا يريد  
 ان يسمع الخدم شيئاً منها . فاتي ذلك الخادم الاصم لتقديم ما يلزم للمائدة والسلطان  
 يخاطبه بما يحتاج اليه بالاشارة

اما السر خفية فتعد وهو يعلم ان دعوته لتلك المائدة شرف عظيم قل من يناله من  
 الاخفاء وشعر بدكائه ان عبد الحميد لم يكرمه الى هذا الحد الا لامر هام . فلم يتناول من  
 الطعام الا قليلاً وذلك من قبيل التأدب في مثل تلك الحال . وبالغ السلطان في اكرامه  
 فقدم له سيكارة من علبة بجانبه فيها مشروبه الخالص . فتناول السيكار وقبله ولم يدخنه  
 ففتح السلطان الحديث وقد بدل سحنته كأن لم يكن به قلق - ومن مزايا عبد الحميد  
 اقتداره الغريب على اخفاء ما به والظهور بالحالة التي يريد بها وقال « كم ينشرح صدري  
 بمجالسة الامناء من اعواني »

فقال « اتنا عبيد مولانا امير المؤمنين والامانة فرض علينا »  
 فتناول فنجان اللبن وادناه من فيه وهو يقول « نعم ولكن الامناء قليلون وانت  
 واحد منهم . » وشرق شرقة من الفنجان واعداه الى الصحن وقال « بل انت موضع  
 تقتي و عليك المعول في استطلاع دسائس الخوارج من رعيتي . وهم كثيرون »  
 فقال « ان اكثر رعايا امير المؤمنين صادقون في عبوديتهم وانما الخائنون شرذمة  
 قليلة قادها فساد التربية الى الدسائس »

فقطع عبد الحميد كلامه قائلاً « انهم كثيرون على ما يظهر . . » و اشار بيده الى  
 التقرير الذي كان يطالعه

فتناول السر خفية التقرير وهو يقول « اري مولاي البادشاه ايده الله قد اعار  
 دسائس اولئك الاغرار اهتماماً . »

فقال « هل قرأته ؟ » و اشار الى التقرير

قال « نعم اقدم »

قال « لم تقر ما فيه عن الجمعية التي انشأوها في دمشق . . ان العرب . . اء من  
 العرب . . قد ذهب احساني اليهم عبثاً . . »

قال « لم يذهب الاحسان عبثاً يا سيدي . فقد جاء في هذا التقرير ان بعض الاغرار  
 من اهل دمشق اخذوا في انشاء جمعية جديدة . . ولكن اولئك قليلون لا ينبغي اولاى

ان يعتد باعمالهم فكم انشأوا من الجمعيات السرية وكم كتبوا ونشروا وقد غلب توفيق جلاله الساطان على كيدهم لان الله معه .. »

فقال « الا ترى انهم اتخذوا في جمعياتهم خطة جديدة »

قال « اظن جلاله البادشاه يعني دخول الضباط فيها »

فكادت تظهر البغته في وجه عبد الحميد عند ذكر الضباط ولكنه تجدد وقال « الا تظن دخول الضباط في هذه الجمعية يعظم امرها ؟ »

قال « ان العمدة في الجند على العساكر وهم السواد الاعظم ونحن على ثقة انهم يتفانون في الدفاع عن امير المؤمنين ظل الله على الارض »

فأثر ذلك الاطراء في نفس عبد الحميد وقال « انا اعلم ان الخونة لا يقوون على شيء طالما كنا على بينة من اغراضهم .. ولكن لا اكفك ما يجول في خاطري لاني عظيم

الثقة بامانتك وصدقتك .. » قال ذلك وتناول تفاحة واخذ في تقشيرها وأشار اليه ان يأخذ تفاحة لنفسه وقال بصوت خافت « لا اكفك اهتمامي بامر العرب وخصوصاً اهل

الشام لا اعني انهم يقدرون على شيء .. ولكنهم اصحاب اقلام وفيهم همه ولهم يد في اوربا بما يعرفونه من اللسنة الافرنجية ... وهل نسيت ما كانوا يكتبونه في الصحف الاوربية

من المقالات العصيانية . » وسكت ينتظر ما يقوله السرخفية

فقال « لم أنس ما كان من ضوضائهم في اوربا ولكنهم غلبوا على امرهم وسكتوا »

فابتدره السلطان قائلاً « سكتوا .. صحيح .. ولكن حركتهم الاخيرة تختلف عن تلك .. انهم الآن على ما يظهر في هذا التقرير داخلون مدخلاً جديداً . ليس فيه

ضوضاء بل هم عازمون على انشاء جمعية يجرونها اليها ضباط الجند وهم مسلمون فيدعونهم باسم الامة العربية ويزعمون انهم مادة الاسلام واصله وربما حدثتهم انفسهم باسترجاع

مجدهم .. وقد يستطيعون خداع بعض الضباط جنودنا بهذه الحيلة واذا فعلوا ذلك ... » وسكت ووضع قطعة من التفاحة في فيه

فتبسم السرخفية تبسم الاستخفاف وقال « اذا اذن لي مولاي البادشاه قلت ما

يخطر لي وهو ما تدعوني اليه عبوديتي .. »

فاستبشر السلطان بشيء جديد يسمعه . وان لم يفته شيء يخطر ببال محادثه لفرط

دهائه وسرعة خاطره وحذره فآظهر الاصغاء وقال « قل ما يخطر لك »

فقال « هب يا مولاي ان العرب في الشام عزموا على انشاء جمعية سرية يدخلون

فيها ضباط الجيش .. لنفرض ذلك ممكناً لهم وانهم نجحوا لاسمح الله وتكاثرت عددهم

ففي الامكان ارجاعهم او اسكاتهم كما أسكتنا غيرهم قبلهم بالمال او بالاسترضاء او بقوة الجند او على يد بعض المخلصين للعرش العثماني من عبيد مولانا السلطان لانهم في داخلية المملكة لا يرجون نصرة اعدائنا دول اوربا . . . « وبلغ ريقه وبان الاهتمام في وجهه كأنه يكتم شيئاً مهماً

## الفصل السادس والعشرون

### البريد

وكان عبد الحميد يسمع كلامه وهو يتشاعل بفئات من اب الخبز يعرکه بين الابهام والسبابة فلما لحظ فيه الاهتمام بعد ان ذكر دول اوربا ادرك ما يشير اليه فقاطعه قائلاً « فهمت مرادك صدقت ان العرب لا ينبغي ان تخافهم ... هل حدث شيء جديد في في سلانيك؟ ان اشقياء هذه المدينة لا يركن اليهم لقربهم من اعدائنا « وبان الغضب في وجهه ولم يتمالك عن الوقوف والمشي نحو الباب فوقف السرخفية ومشى في اثره وقد ادرك انه يطلب فسحة الاستقبال التي جرت العادة ان يقابل فيها كبار موظفيه كالسرخفية والباشكاتب والسرعسكر وغيرهم ليطلع على ماجاء به البريد على عاتبه من للجانحة في استطلاع الاخبار. فقال السلطان « اقصص علي ما تعلمه من امر تلك المدينة الجهنمية .. هل اتاك شيء بشأنها؟ »

فقال « ارجو ان نجد شيئاً في هذا البريد »

فدخل الفسحة وهي كالمغرفة الصغيرة في وسطها طاولة مستديرة عليها غطاء من الخمّل المزركش حولها مقعد وكراسي وایس على جدرانها الاطار معلق في صدرها وقد كتب في وسطه بخط جميل هذه الفقرة في الاعلى « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً » وتحتها « امان يارسول الله »

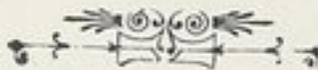
فلما دخل السلطان الفسحة جلس على المقعد وحقية البريد على الطاولة بين يديه واثار الى السرخفية ان يقعد فقعد على كرسيه وبادر الى فض الحقيبة واخرج منها اوراقاً واغلفة وظروفاً والسلطان يساعده في قراءة العناوين . فافرد السرخفية ظرفاً كبيراً عليه ختم « سلانيك » فتناوله السلطان وهو يقول « هذا من ناظم بك اني اتوسم في هذا الشاب خدمة صادقة .. الا تعرفه؟ »

قال « كيف لا ؟ انه بالحقيقة من العبيد المخلصين للسدة الشاهانية عرفت ذلك من بعض رجالي الذين بعثت بهم الى تلك المدينة »

فقال السلطان وهو يفض ذلك الظرف « ماذا قال لك رسولك ؟ »  
 قال « اكد لي صدق خدمة ناظم بك مما يكابده في البحث عن اعضاء تلك الجمعية »  
 فلما قال السر خفية ذلك تغير وجه السلطان وابتدأت عيناه غضباً وقال « كانت تلك الجمعية الملعونة التي تسمى نفسها جمعية الاتحاد والترقي في باريس ضعيفة ولو لم ينشطها الداماد محمود واولاده لاحتجوا ائرها »

فقال السر خفية « قد احتجوا ائرها فعلاً يا ولدي من مدة طويلة . ولكن بلغني انهم اعدوا الكرة واستأنفوا السعي . . . ولعل في كتاب ناظم بك ما يكشف الحقيقة »  
 وكان السلطان وهو يسمع كلام جايسه يقاب تقرير ناظم بك وقد وقف بصره على فقرة اخذ يقرأها ويعيد قراءتها والسر خفية ساكت ينتظر ما يقوله السلطان . فاذا به قد طرح التقرير اليه وهو يقول « قد تحقق ظنك . . . انك مجتهد في البحث . . . وقد صدقك مخبروك . . . خذ اقرا »

فتناول السر خفية التقرير وقرأ فيه ما معناه « ان الجمعية الملعونة التي رفعت الى اعتبار مولانا البادشاه خبرها على سبيل الظن قد تحقق لي الآن انها تشكلت فعلاً وانتظم في سلكها كثيرون من ضباط الجيش وغيرهم وانا ساع في كشف امرها والاطلاع على مكان اجتماعها . . . ولكنني علمت من بعض المخبرين ان مثل هذه الجمعية تشكل في الشام بين الضباط ابناء العرب وان بعضهم جاء سلانيك للاشتراك في هذه الجريمة ويقال انهم اكتبوا بجمعية سلانيك ووضعوا كل قوتهم فيها وغضوا النظر عن دمشق . فاذا وفقنا الى كشفها قطعنا دابر المفسدين . . . ولكنني اؤكد لمولاي البادشاه ملجأ الخلافة الاقدس ان عبده ساهر على مصلحة الدولة وخدمة الذات الشاهانية ولا البت ان اكتشف مكائد الخائنين . واطهر الارض من وجودهم »



## الفصل السابع والعشرون

### الدستور

وكان السر خفية يقرأ والساطان يتشاغل بالسيكار ينقله بين انامله ويدخن بسرعة وبلا نظام فادرك جليسه قائمه فقال « صدق ناظم بك ان سلانيك اعظم خطراً من سائر مدائن المملكة وقد عرفت ذلك من قبل كما عرضت لمولاي البادشاه . ولذلك فقد ارسلت رجلاً من جواسيسي منذ بضعة اسابيع عهدت اليه البحث والتقيب عن جمعية جديدة تشكلت في سلانيك من ضباط الجيش . . عرفت ذلك من بعض مخبري في دمشق . . فقد كتب الي بعضهم ان بعض المغرورين سافر من دمشق الى سلانيك للمخابرة بهذا الشأن فاذا كانوا قد جمعوا كيدهم كله في سلانيك فيرتاح بالناس من جهة الشام ونوجه اهتمامنا لمطاردتهم هنا »

فقال السلطان « هل انت على ثقة من جاسوسك الذي ارسلته الى سلانيك ؟ » قال « نعم يا مولاي انه شاب ذكي اسمه صائب بك من اشدها الخدمة الامناء غيره على الجناب الملوكي الهمايوني . وجاءني منه بالامس انه اوشك ان ينجح في كشف خيانة الخائنين » فهز عبد الحميد راسه وقد تولاه الحنق وقال « ويل للخائنين . ناكري الجميل . . حتى الجنود فسدوا علي وانا لم اذخر وسعاً في التوسعة عليهم ؟ . اني سانتقم منهم شر انتقام » قهيب السر خفية من غضب السلطان وقال « ان الجنود الشاهانية كما قلت مولاي لا يزالون على ولائه الهمايوني . حتى الضباط فانهم موالون الانفراً قايامين اغراهم اوائك الخواارج على نبد الطاعة . . وهم يزعمون انهم يجاهدون في سبيل الدستور . . »

فاجفل السلطان من ذكر الدستور وصاح « الدستور ! لماذا يطلبونه ؟ » قال « انهم مغرورون يا مولاي . . انا اعلم ان امير المؤمنين من ارغب الناس في منحه لرعاياه متى رأى فيهم الاستعداد له . ولكن متى كان اهل الشرق يحكمون بالدستور ؟ وقد تكرم جلالة البادشاه ففتحهم اياه فام يقاخوا . ولا عرفوا كيف يستخدمونه » فسر عبد الحميد بهذا التخلص وان لم يستخلص قائله ولكنه جراه وقال « قد اعطيناهم الدستور فافسدوه . انهم لا يصلحون له »

فقال السر خفية « على ان الدستور يا مولاي يخالف الشرع الشريف . اليس جلالة السلطان خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم وينبغي ان يقتدي به ؟ هل كانت

الخلفاء الراشدون يحكمون بالدستور؟ انه من بدع النصارى اهل اوربا . ولو كان ملكهم خلافة دينية لم يساموا بالدستور ولا عملوا به . . . ولكن بعض المغرورين اللثام من رعايا جلالة السلطان فسدت طباعهم بمعاشرة الافرنج فارادوا ان يقادوهم بالحكومة كما قلدوهم باللباس والطعام والسكر والمقامرة . فاغفلوا قواعد الدين الحنيف وعصوا اوامر النبي صلى الله عليه وسلم ويريدون ان يعصوا اوامر خليفته نخرجوا عليه و . « فقطع السلطان كلامه قائلاً » والخوارج الملاعين ! . ما الذي حملهم على الخيانة . . وما هو العمل الذي اوجب خروجهم ؟ هم يطلبون المناصب ويطمعون بالترقيات المالية وقد تعبت في مرضاتهم . . من اين آتيهم بالمناصب التي يطلبونها ؟ . امن الاخلاص انهم اذا جاعوا خرجوا على مولاهم ؟ . «

فأخذ السرخفية يخفف عنه قائلاً » ان مساعيهم ستعود على رؤوسهم ولا اظنهم الا نادمين عما قایل . وما هذه اول مرة رجعوا فيها صاغرين . . لم يكن فيهم اشد وقاحة من مراد الداغستاني وانصاره وقد ندموا ورجعوا فأكرم جلالة السلطان منوهم واغدى عليهم النعم . ولعل ملجأ الخلافة يد الله ملكه قد بالغ في الاحسان اليهم والاصفاء الى صراخهم . ولو انه اعملهم واستعمل القسوة في عقابهم لكانوا عبرة لسواهم . . ولكنه عاملهم بالرفق والاحسان فطمعوا وتمردوا وقد قرب الوقت الذي يدركون به شططهم في انكار حق العبودية »

فابتدره السلطان قائلاً » بل آن الوقت للاقتصاص منهم والفتك بهم « وصدق فدخل احد الحجاب فقال له » ادع الباشكاتب «

نخرج ولبث السلطان ساكناً وهو يرتعد من الغضب والسرخفية تهيب من رؤيته في تلك الحال . وبعد قليل دخل الحجاب يستأذن للباشكاتب فاذن له

فدخل وحياً ووقف فاقوماً اليه ان يقعد فقعد فقال له » اكتب الى ناظم بك قومندان سلانيك ان يستعمل الدقة في البحث عن الخونة الذين يزعمون انهم يقفون في سبيل ارادتي الشاهانية بتأليف الجمعيات السرية . قل له ان يستعمل الشدة بأية وسيلة كانت بمقتضى العبودية وليبادر الى ايفاء الوظيفة الموكولة اليه بما يليق بالشرف العسكري رغبة في صيانة الدولة من الادران الضارة . . « . فقال الباشكاتب » سمعاً وطاعة اقدم . . وقد أمر مولانا فكتب عبده الى ناظم بك بهذا المعنى بالامس . . « فقطع كلامه قائلاً » اكتب ايضاً وقل له ان يجرد السيف ويقطع الرقاب ويقتل ويفتك . . « قال ذلك وهو ينتفض . وتزحزح من مقعده فهض الباشكاتب والسرخفية

واستأذنا في الانصراف فاذن للباشكاتب واستبقى السر خفية  
وبعد خروج الباشكاتب ظل السلطان مطرقاً دقيقة ريثما هذا روعه ثم خاطب  
السر خفية قائلاً « كيف ترى تحسبنا الباشكاتب ؟ » قال « اراه مخلصاً يا مولاي »  
فتنهده تنهداً طويلاً فهم منه السر خفية الف معنى وهو يعلم سوء ظن عبد الحميد في  
كل واحد فقال « وهب انه غير محاص فاني لا اغفل عن كشف اسراره وقد خصصت  
له جاسوساً من انبه رجالي لاستطلاع حقيقته »  
فقال « اما وقد فهمت مرادي فكفى .. اني لا اثق باحد سواك .. عفارم .. »  
واحس السر خفية انه قد آن انصرافه فاستأذن وخرج

## الفصل الثامن والعشرون

### الخلوة

فلما خلا السلطان بنفسه مشى مشية الغضب حتى دخل غرفة الكتابة وفيها كرسي  
من الزجاج وامامها طاولة من الزجاج اصطنعهما للجلوس عليهما اذا تكهرب الجو وخاف  
وقوع الصواعق لان الزجاج لا يوصل الكهرباء . فجلس على الكرسي لحظة بغير تعمد  
ثم نهض وتحول نحو منضدة عليها اوراق في محفظة فتذكر التقرير الذي اتاه من الشام  
فهرع الى غرفة المائدة واخذه و اضافه الى الوف التقارير التي ذكرناها في خزائن  
الدهليز . وكانه تعب من شدة القلق فتوسد مقعداً من المقاعد التي ينام عليها واستغرق في  
الافكار ثم جعل يناجي نفسه قائلاً :

« نبا لكم من خونة .. لا تخدمون عبد الحميد الا بالمال ... حتى السر خفية فانه لا  
يخلص لي وانما هو يداهني رغبة في المال .. وانا اخذعه واغريه بالاخرين ليطلعني على  
اسراره واغريهم به ليطلعوني على سره ... لا اخاف غدر هؤلاء وهم بالقرب مني لاني املأ  
قلوبهم بالوعود وجيوبهم بالاموال واجعل بعضهم جواسيس على البعض الآخر واقم  
السراري عيوناً عليهم اجمعين .. ان عبد الحميد ادهى منكم جميعاً — فمن شككت فيه  
قتلته سرّاً او جهراً — وانما اخاف البعيدين عني الذين لا سييل الى تجسس اعمالهم  
.. ولكنني قاهرهم .. وهذا الملك لا يخرج من يدي ولن يخرج الا الى بعض ابنائي  
... انا السلطان عبد الحميد . انا وحدي الامر الناهي .. انا وحدي مالك الرقاب »

وسكت هنيهة تشاغل فيها بمخاطر ان رقص الساعة يمنة ويسرة وهو ينظر اليه ويراجع في ذاكرته ما دار بينه وبين السر خفية . حتى اذا وصل الى ما دار بينهما بشأن العرب عاد الى مناجاة نفسه قائلاً « ان السر خفية قتل من اهمية العرب في نظري وظنني صدقته ولكنني خدعته بسكوتي لئلا اريه مقدار خوفي من ابناء العرب . هل انسى ما رماني به غانم والكواكبي وارسلان وغيرهم وما انشأوه من الصحف في مصر وباريس وجنيف . آه منهم اني اخافهم لانهم اكثر عدداً في مملكتي من سائر العناصر وفيهم كتاب في اكثر اللغات الافريقية وهم يكتبون في جرائد اوربا ويحققون بدول اوربا ولا يسهل علينا اسكاتهم . . هذا شأن المسيحيين منهم انهم لا يقولون اهمية في نظري عن الارمن الملاحين على ان هؤلاء قد سحقهم وقتلهم وسببوا اليهم سهل . واما العرب فالمسيحيون منهم تحميمهم الدول . اما المسلمون فانهم اصل الاسلام ومادته ولا يزالون حتى الساعة ينكرون علينا حق الخلافة لاننا غير عرب . فكيف لا نخشى بأسهم ؟ . . ولكن هؤلاء المتعلقين يقولون ويموهون قاموه عليهم واظهر اني صدقتهم . . ولولا ذلك ما كان اغنائي عن تقرب عزت وابي الهدى وغيره من المشائخ الذين يتوهمون انهم يخدعونني وما يخدعون الا انفسهم »

وتحنح ومد يده الى علبة السيكار اشعل سكاراً وطاد الى المناجاة قائلاً « هم يحسبون انهم يحتالون في التقرب مني ليكتبوا المال والجاه وانا لا غنى لي عنهم لتوازن الاحزاب والعناصر - ولكنني مع ذلك اخافهم ولا اثق بهم . . »

ثم خطر له ان يطالب الرقاد في سريره فنهض ومشى نحو غرفة النوم فر بالبحجرة التي تستطرق الى دار الحرير من باب كله مرآة وهم بفتحة فوق نظره على صورته فيه فوقف يتأمل سحنه ويصلح من شأنه . وكان شديد الرغبة بمظاهر الشباب يستخدم في ذلك الخضاب والترجيح والتنخيط . وكان لرغبته في الحياة ينكر على نفسه الاقتراب من الشيخوخة ويلتمس لسكل غضون في وجهه عنراً ولا يعترف انه صار شيخاً وهو ينظر في المرآة تحول نظره الى صورة زيتية معلقة بجانب ذلك الباب تمثل قارباً عند الشاطيء قد وقف فيه نحو عشرة رجال عليهم البسة سوداء وقبعات سوداء يقرب شكلها مما يلبسه الرهبان اليسوعيون . وفي يدي كل منهم آلة موسيقية من الناي او العود او المزمار يضربون ويعزفون وهم في حال عريضة او سكر . وبين ايديهم على الشاطيء نحو عشر نساء عاريات برقصن او يتخالمن مما يحل بالادب وهي صورة اهداها الى عبد الحميد بعض المتعلقين يمثل فيهما مدحت ورجاله الاحرار

تميّلاً يحقر دعواهم يريد انهم انما يتظاهرون بطلب الحرية والدستور تمويهاً على العقول  
وهم بالحقيقة يريدون الخروج عن الآداب الدينية والاقتداء بالنصارى في خلاعهم  
وسكرهم !

فلما وقع نظره على تلك الصورة حرق اسنانه وهز رأسه وتضاحك مستهزئاً وقال  
كأنه يخاطب مدحت « مدحت ؟ تطلب الدستور ! ما هو الدستور ؟ اردت ان تقيد  
ارادتي لسمع في الدولة صوت غير صوتي ؟ . لا . لا ينبغي ان يسمع غير هذا الصوت  
هكذا كان عمي وابي وهكذا ينبغي ان اكون انا . غرّك ما قدرت عليه انت واعوانك  
حتى خلعت عمي رغبة في الدستور . . الدستور ؟ ما الدستور ؟ انا الدستور وارادتي هي  
الشريعة وقد نلت جزاء غرورك . مت واشبع موتاً . آه لو استطيع ان اميتك نأية .  
وهكذا سأفعل بمن يقولون قولك ويسعون سعيك . . سأسحقهم سحقاً واقتلهم قتلاً . »  
قال ذلك ودخل دار الحرّيم يطلب الرقاد للراحة وهو ينتفض من الغيظ وقد  
توسط النهار ولم يهمه الطعام لفرط ما حل به من هياج العواطف المتضاربة بين الغضب  
والخوف والرجاء واليأس والانتقام

## الفصل التاسع والعشرون

### نام البادشاه

ولم يدخل تلك الدار حتى سكن ما كان فيها من حركة الجوّاري والخصيان . . وما عم  
ان قيل « جاء البادشاه » حتى استولى الصمت على الناطقين والجمود على المتحرّكين  
لاسيما وهو قلما يدخل تلك الدار في مثل تلك الساعة لأنها ساعة قراءة التقارير في المابين  
الصغير بالغرفة التي تقدم ذكرها

واول من خف لاستقباله نادر آغا فوقف له باحترام والتقى السلام بالتمني اللازم وتوسم  
الاضطراب والغضب في عيني السلطان ولم يكن يفوته شيء من احواله لما علمت من تقربه  
ودخوله في كل امر لموقعه من نفس عبد الحميد . ولعله اكثر ثقة فيه من سائر المحبطين  
به في المابين وغيره

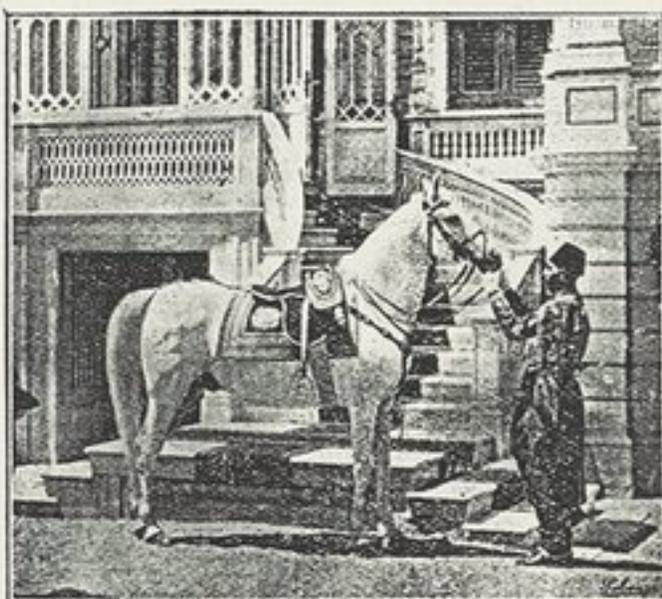
ووقف نادر آغا ينتظر اشارة البادشاه الى ما يطلبه او يختاره من غرف الجوّاري  
فاذا هو قد سار تواء الى غرفة الرقاد فاسرع نادر آغا لخدمته في ما قد يحتاج اليه هناك

فاوماً اليه ان يتركه وحده فانصرف وقد ادرك مقدار ما في نفس عبد الحميد من القلق  
توسد عبد الحميد سريره في غرفة اقل بابها من الداخل بيده واخرج المسدس  
من جيبه ووضع تحت الوسادة كانه في الصحراء على موعد من هجوم اهل البادية عليه !  
ورغم ما يظهره من الثقة باعوانه ورجاله فانه يخاف كلاً منهم وقد تمكن في خاطره ان  
الانسان خلق شريراً . وان اول اغراضه في هذه الحياه ان يغتال اخوانه ويسلبهم ما لهم  
باية وسيلة كانت

وقد نشأ عبد الحميد من صغره حذراً سيء الظن ولما تولى السلطنة توالى عليه  
الخاوف غير ماشاهده بعينه من خلع عمه ثم موته ومقتل عوني بجرأة حسن الشركسي  
ثم خلع اخيه مراد . فرأى حياة السلطان ليست اكثر صيانة من حياة العامة او هي  
اكثر تعرضاً للخطر منها . فزاد تعلقاً بالبقاء واشتد خوفه على نفسه حتى بلغ الى درجة  
الهوس او الجنون الخاص فاصبح لا يسمع حديثاً او يرى مشهداً او يقول قولاً او يعمل  
عملاً الا وهو ينظر من وراء ذلك الى علاقته ببقائه . واضطر للمحافظة على نفوذه  
واستبداده في اول سلطنته ان يسيء الى بعض الاحرار بالابعاد او القتل بدسائس اشرك  
فيها بعض خاصته فاصبح يخاف نعمة اهل القتل ويخاف دسائس اولئك الخاصة  
اولعاه يقيس شعور الناس على شعوره فيتصور انه لو توسم نفعاً بقتل بعض اصدقائه  
او محبيه لا يرى باساً من قتله . فاصبح يخاف ان يستولي اعداؤه الكثيرون على قلب بعض  
خاصته فيغريه بالمال او غيره ليقتله . ولذلك فهو لا يثق باحد او يستسلم له كما يستسلم  
الصديق لصديقه او الابن لابييه كما يفعل اكثر الناس . لانه يرى كل شيء عدواً له  
ولم يلق راسه على الوسادة حتى تصور مامر به في ذلك اليوم من الطواريء واخذ  
يفكر في ما عساه ان يطرأ في الغد بشأن تلك الجمعية ويقدر الوجوه التي يمكن ان  
تقع ويدبر حيلة يتلافها بها . ومع كثرة هواجسه غلب عليه النوم لفرط التعب فنام  
واهل القصر جميعاً كأنهم في سبات خوفاً من ان يشوشوا عليه رقاده فيغضب والعباد  
بالله من غضبه

نام والغرفة مغلقة ونادر آغا جالس ببابها ينتظر ساعة اليقظة ليقوم بالخدمة اللازمة  
ولسكي يعلم اهل القصر بوجود البادشاه هناك فلا يخطرون ولا يتكلمون . وفي الساعة  
الرابعة ( بعد الظهر ) سمع نادر آغا نمحة وحرارة فعمل ان السلطان استيقظ فوقف .  
وما عم ان فتح الباب واطل عبد الحميد فاشار الى نادر آغا ان يدخل فدخل فقال له  
« سمعت مشياً في هذا الدهليز »

فاستغرب نادر آفا قوله واكد له انه لم يمر احد - ولم يكن عبد الحميد سمع شيئاً لكنه قال ذلك من سوء ظنه على سيدل الاستطلاع . ثم اشار اليه ان يامر رئيس الاسطبل باعداد الفرس الابيض لانه عازم على الركوب للتنجول في الحديقة فاسرع نادر وبلغ الامر لتخلو الطرق من المارة . وبعد قليل نزل السلطان حتى ركب الفرس وسار بين يديه اثنان من ياورانه وهما مفوضان ان يقتلا كل من يجدهانه في الطريق



جواد عبد الحميد في انتظاره امام باب القصر

طاف الحديقة الصغرى والكبرى على هذه الصورة وهو يتلفت ذات اليمين وذات اليسار فلاح له ان يلهو بزبارة المعامل . ومنها بين تلك القصور معمل لترميم بسمونه تعمير خانه وآخر لصنع البروساين وترسانة لصنع الاسلحة من كل نوع حتى المدافع والبنادق . وزار ايضاً ما هنالك من المتاحف الصناعية والملاعب المختلفة ثم تحول الى الاسطبلات للتفرج بمنظر الافراس على اختلاف اشكالها حتى انتهى الى ابراج الحمام في الحديقة الصغرى التي تقدم ذكرها

وكان ينزل عند كل معمل او متحف او اسطبل ويلهو بمحركات الصناع وغيرهم وهم يبذلون جهودهم في عرض ما تفتنوا به من ضروب الصناعة وهو يظهر انه بهم بكل ما يقولونه ولكنه في الحقيقة مشغول بهواجسه

## الفصل الثلاثون

كاغد خانه امامي

فلما وصل الحديقة الصغرى دخل ذلك الكشك فتذكر ما كان من حاله فيه في صباح ذلك اليوم . ووقع نظره وهو داخل هناك على شيء اذ كره بالضحك ( المهرج ) وهم يسمونه في اصطلاحهم « كاغد خانه امامي » ف اشار الى نادر افا ان يأتيه به وبعد قليل جاء المضحك واسمه علي افندي وهو كهل منظره يضحك التلكى وكان قصير القامة كبير الراس عظيم الانف وقد لاث حول راسه عمامة كبيرة ولبس جبة طويلة تزيد منظره غرابة . جاء وهو يستعيز بالله من تلك الدعوة لان السلطان كان يباليغ في تعذيبه القماسة للضحك . فجالما اقبل على السلطان وقف مطرفاً بعد ان قبل الارض ف اشار السلطان الى نادر افا اشارة فهمها فامر بعض الوقوف من الخدم ان يطلوا وجه المضحك بالسواد ففعلوا وهو يبدي اشارات الرضا والاعجاب - وهل يستطيع غير ذلك ؟

فلما تم الطلاء وقف علي افندي والتقى التحية فضحك السلطان من منظره و اشار الى نادر افا اشارة اخرى فقبض على ذلك المسكين وحمله بين يديه والقاء في البحيرة فكان لوقوعه فيها طشيش قهقه له السلطان ولكن الناظر في ملامح وجهه يعلم انه يتكلف ذلك عنوة . فجعل علي افندي يخوض الماء وقد وقعت عمامته عن راسه وعامت جيبته على سطح الماء وهو يصيح ويستغيث والسلطان يضحك . ثم امر باخراجه فاخرجوه والماء يقطر من اردانه وقد اعدوا له ثياباً اخرى في مكان اخر فوضي فتبدل وعاد وهو يتظاهر بالسرور والمجون ويده على انفه يضربه ضرباً متوالياً فغرب السلطان في الضحك وابتدره قائلاً « ما الذي اصابك ؟ لماذا تضرب انفك ؟ » فقال « اضربه لانه اصل هذا البلاء علي . . انا اعلم ان شكل هذا الانف هو السبب في ما اقساه من العذاب . . »

فادرك السلطان انه يعني الاشارة الى الارمن وهم كبار الاتوف وقد اشتهروا بعداوة السلطان ولكنه تجاهل وقال « هل تقطع لك هذا الانف ؟ » فابتسم المضحك وقال « اذا كان الباد شاه برپد ان يزيدني جمالاً فليفعل »

فضحك السلطان وقال « نادر انا ! اقطع انفه »  
فاظهر نادر انا انه يهيم بذلك فصاح المضحك « امان افندم . امان ! »  
فاشار بالعفو عنه وهو يضحك وقال « قد عفونا الان عن انفك واما بعد الان  
فلا نعفو »

فقال « الامر لولي النعم . . اذا اراد ان يقطعني اربا ارباً فهو صاحب الامر . .  
ولكن لا يدخلو كبر الانف من فضيلة فان بين اصحابه من يتفاني في رضى جلالة البادشاه  
وفيه من يعشقه ويتمنى الموت تحت قدميه »

فتبدلت سحنة السلطان من المجنون الى الجذ و اوماً الى الحضور ان ينصرفوا الا  
الكاغد خانه امامي . فذهبوا جميعاً وظل المضحك وهو بحسب لتلك الخلوة الف حساب  
فلما انفرد السلطان به اوماً اليه ان يقعد بين يديه فقعد على العتبة جثواً واطرق  
ولبت ينتظر ما يكون . فالتفت السلطان يمنة ويسرة ولما تأكد خلو الحديقة من  
الناس قال « كاغد خانه امامي ! »

قال « حاضر افندم »

قال « انزع عنك المجنون وخاطبني »

فاظهر الجذ والاحترام وقال « ابي عبد . وولاي البادشاه طوع ارادته »

قال « انت تعلم منزلتك عندي »

قال « ياسيدي . . ان نعم امير المؤمنين قد غمرتني وانا اخلص عبيده له »

قال « عفارم . هذا عهدي بك . ولا شك انك تعرف اعتمادي عليك »

فقبل الارض وقال « نعم افندم . . وهذا شرف لي »

قال « هل عندك شيء جديد ترفعه اليّ؟ — يظن نادر وغيره من كبار الخصيان

وسائر اهل القصر اني اقتنيتك لهذه الملامي . ومن اجلها ادخلتك قصري وجعلتك

نديمي . . » وسكت ينتظر ما يقوله المضحك

فسرتي عن علي افندي فقال « انا افتخر بهذه الثقة واؤكد لمولاي البادشاه اني

ساهر على راحته واقف بالمرصاد لسكل من يخرف عن واجب العبودية . . لان الناس

اشرار لا يعرفون حقوق النعمة »

قال « كيف تجرد نادر آنا؟ »

فطأطأ المضحك راسه وقال « انه نعم العبد الامين »

قال « وغيره »

- قال « لم الحظ شيئاً جديداً هذين اليومين .. »  
 قال « افصح .. لا اظنك الا فهمت مرادي .. »  
 قال « يا مولاي ان نادر آغا ساهر على هذه القصور ومن فيها .. »  
 قال السلطان « والقادين ج ؟ »  
 فظهر علي افندي الاهتمام والاحترام وقال « من اين لي ان اراها ؟ »  
 قال « لا تخف .. قل الحقيقة انك تراها وانا اذنت لنادر آغا ان يتمتع القوادين  
 بمجونك وكان ينبغي ان تعرف غرضي من ذلك . اه ! »  
 فاجفل المضحك من هذا التهديد وقال « نعم يا سيدي .. انا فهمت الغرض لكن  
 هيبة البادشاه امير المؤمنين بعثني على التكمم »  
 فضحك عبد الحميد ضحكة اغتصابية وقال « طيب .. فماذا تعرف عن القادين ج .  
 قل لا تخف »  
 قال « انها يا سيدي في حالة يرثى لها .. لا تكف عن البكاء »  
 فاستغرب السلطان قوله وقال « اني لم ارها تبكي قط »  
 فقال « لا تبكي في حضرة امير المؤمنين لان رؤيته تذهب عنها كل حزن ..  
 مسكينة ! »  
 فاقطب السلطان حاجبيه وقال « وتقول مسكينة ؟ »  
 قال « اذا اباح لي مولاي ان اقول ما اعرفه وامني قلت »  
 قال « قل لا بأس عليك »  
 قال « ان هذه القادين سيئة الحظ »  
 فتناول عبد الحميد بعنقه وحملق بعينه وقال « تكون في قصري وتعد من نسائي  
 وتزعم انها سيئة الحظ »  
 قال « التمس حلم جلاله السلطان . ان سوء حظها مبني على وجودها في هذا  
 القصر .. »  
 قال « وكيف ذلك ؟ »  
 قال « لانها تستهلك في حب جلاله البادشاه وهو يعاملها بالجفاء »  
 فاطرق السلطان لحظة تشاغل فيها باصلاح لحيته وعينه البراققان يكاد الشرر  
 يتطاير منهما ثم نهض فجأة فاجفل المضحك ونهض وخاف ان يكون قد اغضب السلطان  
 في ماقاله ووقف متأدباً وركبته تصطكان . ومشى السلطان نحو قصره وذلك المسكين

في حالة يرثى لها . لكن السلطان بعد ان تجاوزه . يضع خطوات التفت اليه وابتسم تخفيفاً لما حل به من الرعب شفق اضطرابه

## الفصل الحادي والثلاثون

### والدة سلطنة

دخل عبد الحميد الى المايين الصغير من باب السري وهو يتعثر بديل جبته وازاح طربوشه عن جبهته كانه يلمس تفريج كربته من قمة رأسه . فلما صار في غرفة المكتب تنفس الصعداء واستلقى على الكرسي وهو مستغرق في الافكار وتناول سيكراً اشعله وجعل يمدخن بعنف ويتنقل بنظره على ما في الغرفة من الخزائن والكراسي بغير انقباء . ثم اخذ يناجي نفسه قائلاً « انا اعلم انها تحبني وتتفانى في مرضاتي .. ولكن كيف احبها وهي ستكون سبب بلائي »

ثم نهض عن الكرسي ومشى نحو منضدة فتح درجها واستخرج ورقة من محفظة هناك واخذ يقرأها ويبعد قراءتها ثم عاد الى الكرسي والورقة في يده وهو يقول « كيف احبها وقد ظهر في هذا المندل انها اذا جاءني منها غلام سيكون شؤماً عليّ... لا ينبغي ان اقرب منها .. ان الحب شيء والمملك شيء آخر... واخاف مع ذلك ان تكون قد خدعتني » واعادة الورقة الى المحفظة ومشى الى دار الحریم فلقى نادر آغا فقل له « ابن والدة سلطنة ؟ »

قال « هي في غرفها يامولاي »

فمشى وهو يقول « احب ان اراها »

فاسرع نادر آغا حتى بلغها رغبة السلطان في مقابلتها فتأهبت لاستقباله . لكنها ابتدرت نادر آغا بالسؤال قائلة « ما هو لون ثوبه اليوم لاليس مثله » . لان العادة الجارية في آداب بلاط عبد الحميد ان يلبس نساؤه عند مقابلته ثوباً لونه من لون ثوبه فقال نادر آغا « انه بثوبه الاسود الرسمي لا حاجة الى لون معين . ولم تكن هي والدة السلطان حقيقة لكنها تقوم مقامها في ادارة دور الحریم وكانت قبلاً خزندار اوسته اي خازنة دور القوادين . فلما ماتت والدة السلطان تولت تلك الادارة واليها يرجع التدبير نساء السلطان وسراريه . وكانت كبيرة السن ولكن الجمال ما زال يجلي في

وجيها وفيها ذكاه ونباهة . فلما علمت بقدم السلطان خفت لاستقباله ورجبت به  
وعليها ثوب يجللها وفي يديها الاساور وعلى صدرها الحلي الثمينة . ولحظت في وجه  
السلطان القلق ولكنها تعرف منزلها عنده فابتسمت له وقالت « هل من امر اقصيه  
لجلالة البادشاه ؟ »

جلس على المقعد و اشار اليها ان تقعد وقال « جئتك بامر مهمني »

فقالت « روجي فداء مولاي »

قال « كيف القادين ج ؟ »

فتغير وجه المرأة عند سماع ذلك الاسم وقالت والبغته ظاهرة في عينيها

« انها في خير »

قال « لا اسالك عن صحتها ... ولكن هل قامت حاضتها بما عليها »

فادركت غرضه وتلعم لسانها عن الجواب لكنها غابت نفسها وقالت « انها

لا تغفل عن رعايتها »

قال « بل اسالك عن شيء آخر . هل خبرت امرها من عهد قريب ؟ »

فلم يعد في امكانها الصبر على التجاهل فقالت « اخبرتني الحاضنة انها ربما

تكون حاملاً »

فاجفل السلطان ونهض ولم يتمالك ان صاح « حامل ؟ »

فنهضت احتراماً له وقالت « هكذا اظن »

قال « ليست الحالة بالظن .. كيف تغفل الحاضنة عن واجباتها . انها اذا كانت

كما تقولين فالذنب يقع على تلك الحاضنة الملعونة .. اليس من واجباتها ان تمنع الحمل وقد

خولتها ان تمنعه باي طريقة كانت ؟ »

فتحيرت والدة سلطانه بامرها وارادت ان تخفف غضب السلطان فقالت « لماذا ينضب

مولاي من حملها اليس هي من نسائه وقد حصل لها الحظ ان تصير قاديناً »

فامسك السلطان غيظه وتجلد وعاد الى القعود و اشار الى والدة سلطانه ان تقعد

وقال « قد جعلتها قاديناً مكافأة على خدمة قامت بها .. » وتمالك وتجلد وقال بصوت

منخفض « نعم ان القاعدة كما تعلمين ان الجارية بعد ان تكون « كوزده » عند دخولها

قصرنا ترتقي الى رتبة « اقبال » فاذا حملت منا صارت قاديناً ولكن ج . هذه جعلتها في

هذه الرتبة لانها تجسست لي اخبار احد الخونة في حوادث الارمن وكنت في رتب من

امرء فانفذتها اليه في جملة الجواري اللواتي اهديتهن الى الباشوات بومئذ ليكن لي

عيوناً عليهم وقد كشفوا لي خيانات كثيرة. ولكن ج هذه كلفتها مهمة فوق العادة فعرضت نفسها للخطر عليّ وعهد مني انها اذا افلحت جعلتها قاديماً وان لم تلد مني <sup>١</sup> وقد افلحت فانجرت وعدي <sup>٢</sup>

فما راته يخاطبها بهدوء تجامرت عليّ مباحثته في الموضوع فقالت « فاذا كنت قد انممت عليها بهذه الرتبة فما المانع من حملها ؟ »

قال « وما الفائدة اذاً من كثرة الحواضن اللواتي يتولين اتخاذ الوسائل لمنع الحمل ؟ وقد اوصيتك عليّ الخصوص بهذه »

فتذكرت والدة سلطنة انه كان قد خصص ج بالوصاية وهي اوصت الحاضنة بما يلزم لكنها اخفقت فقالت « ولكن لا تفلح الوسائل دائماً ... ان في عصمة امير المؤمنين الان اربع قوادين هن نساؤه الشرعيات و١٢ قاديماً مثل ج واكثرهن يحملن فلا بأس اذا حملت هذه ايضاً »

فقال « لا . هذه لا ينبغي ان تلد فاذا كنت تأكدت حملها فيجب ان تموت » وكانت والدة سلطنة تحب القادين المذكورة لجمالها وذكائها ولانها تحب السلطان الى حد الكلف - وذلك نادر في قصور الملوك فاسفت لتشد يد عبد الحميد في امرها فاخذت تحفف الامر عليه فقالت « في قصر مولاي السلطان ٣٠٠ جارية هب ان واحدة منهن حملت فماذا كنا نفعل ؟ »

## الفصل الثاني والثلاثون

### التمثيل

فنهض ولم يعد يتالك عن الغضب وقال « لا تجادليني ان هذه المرأة اما ان يذهب حملها او تموت وقد فات لك ذلك وكفي » قال هذا وتحول نحو المابين الصغير وقد ازفت الساعة السادسة وأن وقت العشاء ولم يكن قد تغدى فوجد المائدة مهياة وعشاؤه بسيط وفي تحضير طعامه عليّ بساطته مشقة كبرى لشدة خوفه عليّ حياته وسوء ظنه بمن حوله . ومن الاحتياطات التي اتخذها لوقاية نفسه انه ابعد الطاهي الذي يصنع له الطعام عن كل علاقة بادل الدولة وامره ان يقيم في حجرة مضبوطة بابها من الحديد عليّ يسار باب القصر المسمى باب السلطنة « سلطنة قهومي » فيصنع الطعام

تحت مراقبة الكلارجي باشي وكان لعبد الحميد ثقة شديدة فيه . فمضى نضج الطعام حمله الى غرفة المائدة اثنان من الخدم بلباس اسود على مائدة اشبه بصندوق مقفل وطوله ٨٠ سنتمتراً عليه كساء من السجاد يرسم السلطان يمشي وراءها خادم يحمل طبقاً مغطى بكساء اسود وقد ضمت اطرافه وختم عليه الكلارجي باشي . ويبقى بعد ذلك خادم يحمل وعاء الخبز ثم خامس يحمل زجاجة الماء محتومة ايضاً . يسير هذا ( الوفد ) من المطبخ الى غرفة المائدة باحترام فاذا لقيهم احد في اثناء الطريق انحنى احتراماً لصاحب الطعام . حتى اذا بلغوا المائدة ادخل الكلارجي باشي الطعام وفض الاختام عنه بين يدي السلطان وقدم له الاطباق وعليها الالوان فيتناول ما شاء .

فلما وصل عبد الحميد غرفة المائدة وجد الطعام قد وصل باطباقه المحتومة كما تقدم ففضها واكل وحده على جاري العادة وهو غارق في بحار الهواجس . وكان القصر قد انير كله كالعادة فانتقل الى غرفة المطالعة واخذ في مطالعة التقارير وهي كثيرة لكنه اصبح بعد امر سلانيك وجمعيتها لايهمه غير الوقوف على خبرها . فترك التقارير ولم يشعر بالنعاس لانه نام في اثناء النهار فاراد ان يلهو بحضور التمثيل في مرسمه الخاص

وكان له في بلدز مرسم للتمثيل وعرض الصور المتحركة وسماع الفونوغراف مما يقضى به الوقت لا يحضره الا خاصته فبعث الى الجوق انه عازم على الحضور في المرح تلك الليلة فاستعدوا للتمثيل واثار بمن ينفي ان يحضره من خاصته وفي جملتهم كبار رجال المايين . ولما ظهر السلطان في منظرة ( لوج ) وقف له الحضور وقوف الاحترام وصاحوا « بادشاهمز جوق يشا » وضربت الموسيقى سلامه الخاص . ثم دار التمثيل واتفق ان الرواية التي مثلت تلك الليلة فيها حكاية امرأة خانت زوجها واغرت ابنها على قتله فهاجت هواجس السلطان وتذكر حاله مع القادين ج وتشاءم من تشخيصها واتخذة دليلاً على صدق تخوفه وبعث الى مدير الجوق يعاتبه لانه لم يسأله عن الرواية التي يريد تشخيصها وامره ان يشخص رواية اخرى بطلها ملك يفوز على مكابديه كثيراً ما كان يحضرها ويسر من حوادثها . ولو لم يكن مدير ذلك الجوق اجنبياً لامر بقتله لكنه كان يخاف مداخلة الاجانب

وكان الحضور مشتغلين باحاديثهم وعبد الحميد غارق في هواجسه ولاحت منه التفاتة فرأى زادر آغا واقفاً في مكان من المرح تعود ان يقف فيه اذا اراد مخاطبة السلطان في امر . فزوماً اليه فجاءه بحقة حتى دخل منظرة فامر ان يجلس وسأله عن غرضه فقال « اني التمس تسكين بال مولاي ... وملت له له يحتاج الي في شي »

قال « قد اصبحت ابي في حاجة اليك . . هل لقيت والده سلطانه ؟ »

قال « نعم بامولاي وقصت علي غضب الذات الشاهانية »

قال « ارايت ما فعلته تلك الخاضنة ؟ » انها لم تفعله عن اهمال كما توهمت والدة  
سلطانة لكنها تعمدته بالرشوة - اغراها على ذلك اعدائي فبجهم الله « قال ذلك وحرق  
اسنانه وهز راسه

فقال نادر « لم افهم سبب غضب سيدي من حمل هذه القادين فافرض انها احدى  
الجواري الكثيرات في بلدز . . و . . »

فقطع السلطان كاره قائلاً « لا الومك علي استغرابك غضبي ولذلك فانا امرت اليك  
السبب برهاناً علي ثقتي بك واعتمادي عليك »

فاوماً نادر اغاشا كراً تلك النعمة . فاشار اليه السلطان ان يرخي ستارة المنظرة حتى  
يخفيها عن الجلوس ففعل ثم قال السلطان « هلم بنا الي المابين » ونهض فامرع نادر بين  
يديه من باب سرّي بوادي الي المابين ولم يشعر بهما احد من الجلوس

مشياً توتوا الي غرفة المطالعة وهي لا تزال مشعشة بالانوار فتعد السلطان و اشار الي  
نادر ان يتعد فتعد

فتناول السلطان سيكراً أشعله ونفخ الدخان من فيه مع زفرة طويلة وكرر ذلك مرتين  
فامتلات الغرفة من الدخان وهو مطرق ونادر بين يديه جامد كالصنم ثم رفع السلطان  
بصره الي نادر وقال « الا تعرف القادين ج . من يوم مجيئها قصرنا ؟ »

قال « لم اكن اعرف عنها شيئاً كثيراً ولكنني كنت اسمع قزلاً آغاسي (قيم الجوّاري)  
يثنّي علي ذكائها وجمالها »

قال « الا تعرف انها ارمنية الاصل ؟ »

قال « يظهر ذلك من شكل انفها وملامح وجهها واظن هذا هو السبب في نفور مولاي  
البادشاه منها »

قال « لا . لا . ليس السبب في ذلك كونها ارمنية ولا لمجرد كرمي هذه الطائفة بعد  
ما كان من تمردهم ودسائسهم ولكن . . » وعاد الي التدخين ونفض رماد السيكار في  
منفضة بين يديه وهو مطرق كأنه يتردد في هل يطلع نادر اغا علي ذلك السر الذي لم  
يطلع عليه احداً بعد ؟ . ونادر جالس متأدباً لا يبدي حراً كما لثلا يشوش علي السلطان  
بجاري افكاره

## الفصل الثالث والثلاثون

### كشف السر

ونفض السلطان عن الكرسي الطويل الذي كان جالساً عليه الى المكتبة وفتح الدرج واستخرج منه تلك الورقة من محفظتها وقبض عليها بكفه وعاد الى مقعده والسيكار في فيه وقال « اسمع يا نادر آغا .. يقولون ان والدتي ارمنية الاصل ؟ »

قال « نعم يا سيدي هكذا يقولون »

فقال السلطان « فكان ينبغي ان احب الارمن من اجلها .. »

قال « نعم افندم »

فاخرج السيكار من فيه وتنهى وقال « ولكنني اكرههم .. لانهم الدُّ اعدائي »

قال « انهم يستحقون الغضب لسبب عقوقهم وتمردهم »

فقاطعه السلطان قائلاً « اني اكرههم واخافهم من صباي .. اتعلم لماذا ؟ »

فتناول نادر آغا بعنقه ولم يجب اكتفاءً بالاصغاء فقال السلطان « كرهتهم من

صباي لان المنجم الذي تنبأ لي من ذلك العهد ان العرش سيفضي الي - هل تعرفه ؟ »

فبغت نادر آغاله لم يكن يتوقع سوء الآفقال « خيرا فندم »

فقال « كنت في صباي احضر مجلس التنجيم والمندل بين يدي والدة سلطنة - وهي

يومئذ والدة عمي السلطان عبد العزيز وكان عندها جماعة من مهرة التنجيم نبوءاتهم

صادقة . ثم عرفت منجماً اسمه الشيخ عبد الرحمن من اهل صيدا جاءني به بحبيب بأنا

احد رجال الدولة عند رجوعه من منفاه في قبرص وأطرى مهارته في استطلاع

الغيب . فطلبت اليه ان يكشف لي عن مستقبلي فقال اني سأتولى العرش قريباً وابقى

عليه مدة طويلة فاعترضت بوجود عمي عبد العزيز حياً ثم اخي مراد فاكد لي ان

طالعي يدل يقيناً على ما قاله . لكنه اسرّ الي - انه يرى ظلاً اسود يحوم حول سعدي

وانه اذا كان علي - خوف فيكون من عشيرة امي وهو يعتقد انها ارمنية . فلم تمض مدة

طويلة حتى صدق المنجم وتوليت العرش . وكافأت الرجل مكافأة حسنة ثم خدمني

خدماً جليلاً تعود الى حفظ السلطنة ... - فلما رأته صدق ببعض المندل خفت

ان يصدق بالباقي ولذلك رايتني اطارد الارمن واحاذرهم »

وسكت ريثما سحب سحبة من السيكار ويظهر من ملامح عينيه انه لم يتم حديثه

بعد فضل نادر آغا مصغياً

فعاد السلطان الى السلام قائلاً « قد علمت سبب نعمتي على الارمن اجمالاً ولم تعلم بعد سبب حذري من هذه المرأة على الخصوص .. فاعلم اني شديد الاعجاب بهذه الجارية منذ عرفتها لذكائها وسداد رأيها وكثيراً ما كنت اقضي الساعات في مجالستها حتى شغلتنني .. سواها لما لها من الاطلاع على الصحف والكتب . وهذا ما بعثني ان اتق بها حتى كلفتها بمهمة ذات شأن في اثناء دسائس الارمن التي انتهت بذبحهم في الاستانة منذ عشرة اعوام »

سبحان وقد أبرقت عيناه سروراً بما كان من نجاحه في سر .. كنت سبب .. منذ ان بعض رجالي المسلمين ممن قدمتهم ورقبتهم ووليتهم المناصب موالون لا وولتت انكفار علي فلكي اتحقق ذلك بعثت بعض السراي النيهات الى بعضهم على سييل الهدية - وهم طبعاً يفرحون بالهدية السلطانية ولا يجسرون على ردها . فاطلعتني اولئك الجوارى بعد ذلك على اسرار هامة .. وكانت القادين ج يومئذ لا تزال من جملة السراي فكلفتها بكشف اسرار ع . باشا لاني كنت اخاف تظاهرة بالاخلاص . وحرصاً على استرجاعها الي لانها ارمنية وخوفاً من ان تتحاز لابناء جلدتها وعدتها انها اذا قامت بتلك المهمة اجعلها قديناً واشترطت عليها شروطاً خصوصية تجيز رجوعها الى قصري وانا واثق بصدقها . والحق يقال انها اخلصت الخدمة وعادت باهم الاخبار عن الارمن انفسهم ايضاً - فسميتها قديناً وامرت لها بدائرة خاصة تقيم فيها وعندها الخازنة والباشكاتبه والمهردار والاسفتجي فضلاً عن الخدمة والجوارى والخصيان مثل سائر القوادين . ولم اميز واحدة منهم عنها في شيء ولكن ... آه » ونهد

وكان نادر آغا كثير الشفقة على تلك القادين يجب ان ينقذها من الخطر اذا استطاع الى ذلك سيلاً فاصغى بكليته الى حديث السلطان فلم يجد في كل ما سمعه شيئاً يوجب غضب السلطان . فلما رآه يتنهد توقع ان يسمع ما يكشف له القناع عن السبب الصحيح

## الفصل الرابع والثلاثون

### القتل على التهمة

اما السلطان فبعد ان تنهد رمى بقية سيكاره في المنفضة وقال « انك لا تجد في حديثي عن هذه المرأة حتى الساعة ما يوجب الغضب عليها .. ولا انا ايضاً . ولكنني رأيت في المنام بعد ذلك رجلاً أرمنياً كنت اراه في مجلس والدي ساكن الجبان واسمه مهران بك ولم اكن احب .. كان يفضل اخوتي علي . وربما او عز الى والدي ، بذلك وكنت الاحظ ان والدي يسيره ويتهرني فنشأت علي كره هذا الارمني . وقد مات من زمن طويل ولم يخطر ببالي ذكره الا في تلك الليلة فرايته في المنام بهيأته التي اعرفه بها وبيده سيف يشير به اشارة التهديد فاجفلت واستيقظت واتبعت الى الخطر الذي يحدث بي من الارمن وقلت « ينبغي ان اتيقظ منهم » ولم اجد حلاً الا بالمدل فامرت الشيخ ... ان يعمل مندلاً علي ما في ضميري ولم اذكر له شيئاً . فكتب لي نتيجة المندل في هذه الورقة فحفظتها عندي من ذلك الحين وتيقظت لنفسي واوصيت الحاضنة ان تيقظ جيداً للقادين ج . وقد علمت اليوم انها حامل ... » قال ذلك ودفع الورقة الى نادر آغا ليقراها

ففتحها واقترب من المصباح وقرأ فيها « لا ينبغي للسلطان ان يطمئن من اهل امه بعد ان طاردهم وذبحهم فان ما كتب في صحائف الدهور كائن والخطر سيأتي من طفل امه ارمنية وابوه السلطان »

ولما فرغ نادر آغا من تلاوة الورقة اقشعر بدنه لانه يعتقد التشجيع مثل سيده واطرق مفكراً فابتدره السلطان قائلاً « الاتراني معذوراً ؟ الا توافق علي رأئي ؟ هل يجوز الاغضاء عن تلك المرأة اذا صح انها حامل ؟ قل .. »

فقال « ان سيدي البادشاه صاحب القول . لا شك ان بقاءها على هذه الصورة خطر — ولكن هل ثبت حملها ؟ »

قال « يكفي الشك للتعجيل بالقتل .. قد نكون مصيبين وقد نكون مخطئين فاذا صبرنا ووضعنا غلاماً أصبح التخلص منه شاقاً ونحوم حولنا الظنون - اما الآن فالانسان عرضة للمرض والموت كل ساعة - والاطباء يرسلون الانسان الى العالم الآخر

بجرعة لا يشعر معها بالمل ولا عذاب . . فأحب ارسال هذه المخلوقة من هنا واحسب انها لم تكن في جملة الجوارى اللواتي ابتغاهن وان كنت آسفاً لذلك . . لان هذه المسكينة كانت تحبني »

فقال نادراً آغا « لافضل لها في حبها ومن لا يجب مولانا الخليفة ظله الله على الارض؟ ان المحافظة على سلامته فرض لا بد منه ولو قتل الالوف في سبيله . وانا اول من يضحى نفسه في هذا السبيل — اطال الله بقاء امير المؤمنين »

قد نبجل ذكاء عبد الحميد عن ان يتعالي عليه هذا الاطراء او يعتقد صدقه ولكن الانسان ضعيف . قد يكون قوياً من كل جهة الا من جهة اغتراره بنفسه فانه في غاية الضعف . يقبل الاطراء ولو كان بعيد التصديق ولا سيما اذا كان لا يسمع غيره وكل الذين حوله يتسابقون الى استنباط عبارات الاطراء تماقاً له وتقرباً منه فلا يلام اذا صدق مثل قول نادر آغا . فلما سمع قوله قال له « فانا اكل امر هذه المرأة اليك » وكان قادر مخلصاً مولاه وان لم يعرف كيف يؤكده اخلاصه . فلما وكل السلطان اليه هذا الامر اشار مطيعاً

ثم تحفز السلطان للهوض في طلب الرقاد فهض نادر آغا وخرج بعد ان قام بواجب الاحترام

اما عبد الحميد فهاجت اشجانه في ذلك المساء على اثر ما تحدث به عن المنجمين والارمن والقتل فزادت مخاوفه وغلب عليه ميله الى التستر والاختفاء . فاطهر انه ذاهب للرقاد في دار الحریم وبعد ان خلا بنفسه طلب النوم في غرفة المائدة على كرسي طويل وفوقه ملاءة من الصوف كما في سائر الغرف لينام السلطان متى شاء ولا يعرف احد مقره

## الفصل الخامس والثلاثون

### الاخبار الجديدة

نام عبد الحميد في تلك الليلة نوماً متقطعاً على جاري العادة وافاق في الصباح وعليه قميص ( عنصري ) وقفطان طويل وهرع بالبنتوفلي السوداء الى الحمام كجاري العادة وتعاطى بعض الحركات الرياضية ولبس ثيابه الاعتيادية وانصرف الى غرفة المطالعة وكان القهوجي باشي قد وقف هناك واعد الادوات اللازمة لطبخ القهوة بين يديه

فقعد عبد الحميد وهو ينظر الى القهوجي باثني كيف يطبخ القهوة وتناول سيكراً فاشعله وشرب القهوة بلذة وفكره مشتغل في ما عساه ان يأتيه من الاخبار الجديدة في ذلك اليوم

انصرف القهوجي باثني وجاء الخبر ان المائدة معدة للفطور فهض اليها وتناول فطوراً خفيفاً من البيض واللبن وهو يتوقع دخول الحاجب بمجيء البيد او السر خفية وما علم ان سمع جرس الباب الخارجى فعلم انه الحاجب ات بخبر جديد فهض وهو يمسخ فيه ولحيته بالفوطة للذهاب باثار آخر جرعة من فنجان اللبن ورمى الفوطة ومشى نحو غرفة الاستقبال التي يطالع فيها التقارير فلقبه الحاجب والتي التحية المعتادة وقال « ان الباشكاتب بالباب »

فعلم عبد الحميد ان الباشكاتب لا يبكر على هذه الصورة من عند نفسه الا لخبير هام تخفق قلبه تطلعا الى ما عساه ان يكون و اشار الى الحاجب ان يأذن للباشكاتب بالدخول وبعد هنيهة دخل الباشكاتب والسلطان قد جلس الى المنضدة التي يقرأ عليها التقارير خفياً وهو يتسم دلالة على حسن الاخبار التي جاء بها . فاستبشر السلطان واذا بالباشكاتب يقدم له ظرفاً عرف من شكله انه تلغراف فتناوله بلهفة وفضه وقراء فبانت الدهشة في وجهه ولم يتماك عن الضحك وفي عينيه ملامح الشهامة والاستهزاء ثم اتبته لوقوف الباشكاتب فاوماً اليه ان يقعد فقعد

فاعاد عبد الحميد نظره في التلغراف كأنه يتفهم معناه ثم قال « عفارم .. عفارم ناظم ! » والنفت الى الباشكاتب وقال « متى جاءك هذا التلغراف ؟ »

قال « في هذه الساعة سلطانم »

فدفعه اليه وقال « اقرأ »

فقرأ ما ترجمته « قد تمكنا ببركة الذات الشاهانية المقدسة وهمة الخفية صائبك من القبض على رامز احد اعضاء الجمعية الجهنمية ومعه اوراق مهمة تكشف عن خيانات كثيرة .. وننتظر الامر بما يلزم للاجراء والفرمان لصاحب الفرمان » « ناظم » فقال السلطان « من هو صائب هذا ؟ »

قال « هو من الخفية الذين ارسلهم السر خفية الى سلانيك وقد سمعته يثني على اخلاصه واجتهاده »

فاعتدل السلطان في مجلسه وقال « كيف ترى هذا الرجل .. السر خفية .. احب ان اعرف رايبك فيه لاني لا اتق بسواك كما تعلم »

قال « هو من العبيد المخلصين يا سيدي ونجاح رسوله في هذه المرة من اكبر الادلة عن ذلك . وكيف لا يكون مخلصاً والذات الشاهانية وضعت ثقتها فيه ؟ »  
 فظهر السلطان انه اكتفى بهذه الاشارة واعتمد على فطنة السامع لفهم ما يقتضيه هذا السؤال من مراقبة حركات السرخفية وقال « ما هو رأيك ؟ هل نستقدم هذا الخائن المقبوض عليه الى هنا ؟ »  
 قال « الامر لامير المؤمنين .. ولعله اذا جيء به الى هنا نستطلع منه اشياء جديدة ... لله ما اجعل هؤلاء الغلمان ! »  
 فصفق السلطان فجاء الحاجب قامره باستدعاء السرخفية وقال للباشكاتب « قل لناظم ان يبعث بالخائن واوراقه حالاً »

## الفصل السادس والثلاثون

### القلق

فنهض الباشكاتب و اشار اشارة الطاعة وخرج وعاد عبد الحميد الى سيكارة فاشعله وهو يعيد نظره الى التلغراف حتى انبجى بمجيء السرخفية قامر بدخوله. وكان قد علم السرخفية بمجيء التلغراف في ذلك الصباح وبضجواه سراً . كيف لا وهو رئيس الجواسيس ؟ فلما دخل على السلطان حيا تجمية الاحترام وانظر انه لم يكن يعلم بذلك فقرأ امارات السرور في عيني عبد الحميد فشاركه بمثلها فمد السلطان يده ودفع التلغراف اليه وهو يامر بالجلوس فجلس وتناول التلغراف وهو يقول « اذا كان هذا التلغراف من سلايك ففيه خبر القبض على احد الخونة »  
 فظهر السلطان الاعجاب بتيقظه وقال « نعم انه من سلايك وقد قام بهذه المهمة احد رجالك مع ناظم بك .. »  
 فتناول السرخفية التلغراف وقراء وقال « نعم يا سيدي ان صائب بك من العبيد المخلصين » وقعد

فقال السلطان « ان الاخلاص منك . وقد توسمت فيك صدق المودة منذ عرفتك ولولا ذلك لم اضع ثقتي فيك واجعلك عيني الباصرة ... انك معتمدي الوحيد في مراقبة الخونة المارقين وهم كثر حتى في هذا القصر . ولذلك فانا اخاطبك راساً »

وتسبح وسحب سحبة من السيكار وقال « قد امرنا الباشكاتب ان يستقدم ذلك الخائن واوراقه . لم نفعل حسناً ؟ »

فانشرح صدر السرخفية من ذلك الاطراء وخصوصاً من ذكر المودة وقال « معلوم . . . متى جاء استطلعنا منه سر تلك الجمعية وبددناها »

فقال « عفارم . نعم . . . قد آن الاقتصاص من سلايك واهلها وكل آت قريب ! » قال ذلك بلحن التهديد ونهض فنهض السرخفية واستأذن بالانصراف

فلما خلا السلطان بنفسه مشى الى غرفة النجارة واخذ يتلاهى بصنع برواز من الابنوس كان قد بدأ بنقشه منذ ايام وافكاره تائهة في ما سيكون من امر رامز متى جاء وكيف يحتمل في كشف سر الجمعية فطراً على ذهنه راي فشى الى موقف التلفون وخطب الباشكاتب فاجابه . فسأله اذا كان قد ارسل التلفراف الى ناظم بك

فقال « نعم ارسلته »

قال « ماذا قلت له ؟ »

قال « قلت له ان يرسل المقبوض عليه واوراقه حالاً »

قال « متى جاء هذا الخائن ارسله الى السرخفية . فهمت ؟ »

قال « حاضر ياسيدي »

واقفل السلطان الحديث وعاد الى غرفة النجارة . وبعد هنيهة خطر له راي جديد فعاد الى التلفون وخطب الباشكاتب ثانية قائلاً « اذا جاء الخائن ارسله الى عزت وارسل اوراقه اليّ »

فاجاب « حاضر ياسيدي »

وعاد السلطان الى عمله وقد غلب عليه التردد في هذا الامر لشدة القلق ولاح له ان يكون هو اول من يرى رامزاً فعاد الى التلفون ثالثة وقال للباشكاتب « ارى الافضل ان ترسل الرجل واوراقه اليّ »

فقال « حاضر ياسيدي سافعل » ولم يستغرب الباشكاتب هذا التردد فقد تعودوا اما السلطان فبعد ان رجع الى عمله عاد الى التفكير في الامر فرأى ان استقدام الرجل اليه راساً لا يخلو من الخفة فعاد الى التلفون وامر الباشكاتب اذا جاء المقبوض عليه ان يبقه عنده ويظهر الاستخفاف به وانما يرسل اوراقه الى السلطان فاجاب مطيحاً

قضى عبد الحميد بقية ذلك اليوم كانه على الجمر من شدة قلقه في انتظار رامز واوراقه

وفي صباح اليوم التالي لم يعلم عبد الحميد كيف يستحم ويبدل ثيابه ولا كيف يتناول الفطور من قلق الانتظار وهو ينتقل من غرفة الى غرفة وقد نسي القادين ج ونادر آغا وما كان من امرهما

وهو واقف امام خزانة الاسلحة يتأمل ما فيها من المسدسات والخنجر سمع صرير الباب فمشى نحو قاعة الاستقبال وهو يتجدد ويخفي لفته فراى الحاجب داخلا ومعه محفظة كبيرة محتومة علم السلطان حالاً انها محفظة رامز فاشار اليه ان يضعها على المنضدة ويستدعي السرخفية ولم يكده يقعد حتى كان السرخفية امامه فاواماً اليه ان يقعد واخذ في فض المحفظة واخراج ما فيها من الاوراق والظروف وبينها خطابات ومراسلات بالتركية والفرنساوية وبعضها بالارقام السرية ( الشيفرا )

قضيا ساعة وهما صامتان وقد استغرقا في القراءة ثم قطع السلطان ذلك السكوت . بنخضة ومد يده وفيها ورقة وقال « اقرا هذه جيداً »

فقرأها واعد قراءتها ثم قال « يظهر ان الملاعين ساعون سعيًا شيطانيًا . . انهم عاملون على بث تلك الروح الخبيثة في أنحاء مكدونية يجمعون بين عناصرها ومذاهبها .. »

فضحك السلطان ضحكة اغتصاية وقال « انهم يطلبون عبثاً . . يريدون ان يجمعوا النصارى والمسلمين ليتحدوا عليّ ! خاب فآلم ان ذلك مستحيل عليهم . . يريدون ان يجمعوا بين البلغاري والسربي والمكدوني والتركي والعربي ؟ كيف يجمعونهم وقد فرقنا بينهم تفریقاً ومزقنا جامعتهم تمزيقاً »

## الفصل السابع والثلاثون

### جمع العناصر

وكان السرخفية في اثناء ذلك يقلب الاوراق فوق نظره على عريضة كبيرة باللغة الفرنسية وهو يفهمها فاخذ يقرأها والسلطان ينظر اليه فراى وجهه يتغير فبادره قائلاً « ماذا تقرأ ؟ »

قال « هذه ياسيدي صورة لائحة مقدمة من تلك الجمعية الشيطانية الى وكلاء الدول . . »

فبغت السلطان وقال « الى وكلاء الدول ؟ بلغت قحتهم الى هذا الحد ؟ ما شأن الدول في هذا الامر .. لا يجوز للدول ان تتعرض لاوامري في مملكتي . وهب انها تستطيع ذلك فانها لا تفعل وقد اسكتها ولا اظنها تعباً باقوال اولئك الاغرار المتشردين .. ماذا يقولون لهم في هذه اللأئحة ؟ »

قال « انهم يقولون كثيراً ولكن ما الفائدة والدول لا تعباً باقوالهم بعد ان رأيت فشلهم مراراً وهذه جرائم فرنسا قد دافعت عن الذات الشاهانية وبيئت للعلا ان الذين يسمون انفسهم احراراً قوم خوارج يباعون بدرهمات قليلة »

فجعل السر خفية يترجم له بعض الفقرات الهامة من ذلك قولهم يخاطبون الدول : « ان المرض المستولي على بلاد العرب او طراباس الغرب هو عين المرض المستولي على ماكدونيا . فكل الاقوام المؤلفة من الترك والعرب والالبانيين والجر كس والكردي والارمن والفلاخ واليهود والصرب والروم والبلغار بمن يشملهم الاسم العثماني يكابدون تلك المشاق ويشنون تحت تلك المظالم بعينها . وفرق المذهب والملة لا يهون اضطراب احد ولا يخفف اعباءه . فليس بماكدونيا ولا باخرى من الولايات العثمانية نوطان من الناس احدهما ممتاز والاخر مظلوم . كلنا بلا استثناء مشتركون في الظلامه كلنا رازح تحت استبداد واحد . » (١)

وكان السر خفية يقرأ والسلطان مطرق يتلاهي بالتدخين وعروقه تنفض من الغيظ . فلما اتى السر خفية على آخر الفقرة اظهر السلطان الاستخفاف وقال « انهم سلخوا الآن مسلماً جديداً ولكنهم لا يقلحون .. كلهم رازحون تحت استبداد واحد ! ولكنهم سيقون تحت تلك الاثقال الى ما شاء الله .. هكذا يفعل ابناء الدولة الصادقين ؟ تبا لهم ... ولكن الدواء عندي ... ماذا ترى ؟ »

فقال « اني ارى ما يراه امير المؤمنين وقد تفضل به الساعة .. ان الجمع بين هذه العناصر مستحيل .. كيف يجمعون بين الكردي والجر كسي والالباني واليهودي والفلاخي و .. هذا مستحيل وقد امتلأت قلوب كل عنصر حقداً على العناصر الاخرى و . »

فقطع السلطان كلامه قائلاً « تبا لهم كيف يجمعون هذه العناصر بل كيف يجمعون بين المسلم والمسيحي واليهودي والمسلمون طوع ارادتي انا خليفة النبي (صلم) لا يفعلون غير ما اریده .. ليس في مملكتي فقط بل في سائر انحاء العالم .. كأنهم يحسبون

المسلمين قدم قوام من دينهم كما فعلوا هم .. « وضحك وعاد الى التدخين وتناول سيكارة دفعه الى السر خفية . فتناوله وقبله ووضع في جيبه وادرك من ذلك ان السلطان يستحث غيرته لينبه قريحته لاختراع حيلة لمقاومة تلك المساعي فاطرق السر خفية لحظة ثم قال « رأي مولاي الباد شاه فوق كل رأي ولكنني استأذنه بكلمة ... »

قال « قل .. اني احب آراءك واعتقد محبتك فانت صديقي الوحيد لا اعول على سواك . ونحن شركاء في الامر لان ما بمس الدولة يمكس وما ينفعها ينفعك .. هل نترك اولئك الاغرار يغلبوننا بصياحهم وعندنا السلطة الدينية والسياسية وعندنا الاموال .. » قال ذلك بلحن التهديد

فسرّ السر خفية بذكر المال وقال « اني ارى ان يكون الجزء من نفس العمل هم يحاربون الدولة بجمع العناصر ونحن نحاربهم بتفريقها . ولا وسيلة لذلك خير من الدين ... »

فقال السلطان وهو يحك ذقنه بسبابته « عفارم .. هكذا . هكذا »

فقال « هم يشتكون لاوربا انهم جميعاً مظلومون ويسعون في تفهيم الرعايا ان الوسيلة الوحيدة انما هي ان يجتمع المسلم والمسيحي ونحن نين للمسلمين ان هذه المساعي انما يراد بها ضياع دينهم وادخالهم في زمرة الكفار »

فقطع السلطان كلامه بقوله « عفارم .. ان شعبي المؤمنين شديدي الغيرة على الاسلام . وازيد على ذلك ان السير على هذه الضلالات والاصفاء الى هذه الرجاسات يقود الى خروج نساء المسلمين حاسرات الوجوه كنساء الافرنج الكفار .. انا اعلم تمسك عامة المسلمين بالحجاب .. »

فاخذ السر خفية يحسن هذا الفكر اطراءً لذكاء السلطان ودهائه فقال « وفي الواقع ان ذلك الاتحاد اذا تم سيأول الى هذه النتيجة كما نرى الحال في اولئك الاغرار انفسهم فاتهم يقلدون المسيحيين بكل حركاتهم .. يعاقرون الخمر ويجالسون النساء ويفعلون كل محرم .. لله در ذلك العبد المخلص الذي صور مدحت ورجاله تلك الصورة فانه قد اصاب كبد الحقيقة ... »

فلما سمع السلطان اسم مدحت اقشعر بدنه ولكنه تجاهل وقال « هذه افضل السبل .. اكتب الى رجالك بهذا المعنى .. ولا حاجة بي ان اوصيك بان يبق هذا الحديث مكتوماً عن كل انسان حتى الباشكاتب وعزت وغيرهم فاني اعول عليك فقط

.. انفق ما استطعت في هذا السبيل . . وغداً متى عرفنا اعضاء هذه الجمعية نجعل جزاءهم القتل ... » قال ذلك وتناول ورقة بجانبه وكتب عليها بيده امراً الى وزير المالية ان يدفع اليه عشرة آلاف ليرة عثمانية حالاً ودفع الورقة اليه وقال « وخوفاً من تأخير الدفع ساعطيك الآن دفعة مستعجلة » ومد يده الى جيبه واستخرج ورقة مالية بالف ليرة انكليزية سلمه اياها فتناولها وقبلها وجعلها في جيبه واثار اليه السلطان ان يجمع تلك الاوراق في المحفظة حتى يعيد نظره فيها مرة اخرى ثم قال « وصائب بك ينبغي ان تكافئه لا تنس ذلك »

فقال السر خفية « هو مغمور بنعم امير المؤمنين ولكنه بعث اليّ تلغرافاً يطلب رتبة الى احد المخلصين الذي ساعده في كشف ذلك السر »  
فاجاب السلطان سريعاً « معلوم . . قر للباشكاتب يعرض اسمه فكافئه على اخلاصه .. اننا لا نبخس المخلصين الامناء حقهم »  
وهما في ذلك « دخل الحاجب وقال « ان الصدر الاعظم بالباب »

## الفصل الثامن والثلاثون

### الصدر الاعظم والمال

فاجفل السلطان لعلمه أن الصدر لا يأتيه رأياً الا لما يهيم الدولة او الامة وعلاقتها مع الدول الاخرى . وهو مشغول عن الدولة بشؤونها كما رأيت لكنه لم يستطع رده واثار الى السر خفية ان ينصرف فانصرف  
دخل الصدر الاعظم وحياً كالعادة فاثار اليه ان يجلس مجلس متأدياً ينتظر ان يفتح السلطان الخطاب اذ ليس من آداب الملوك ان يخاطبهم احد قبل ان يبدأوا هم بالكلام فتجلد السلطان كأنه لم يكن في شيء مما كان فيه وقال « كيف الاحوال ؟ »  
قال « ان الاحوال حسنة لكنها تحتاج الى نظرة من مولاي البادشاه »  
فهم ان الصدر لا يقول ذلك الا لامر هام فقال « ما وراؤك ؟ »  
فاستخرج الصدر ورقة من يده ودفعها الى السلطان وقال « هذه خلاصة ما جاءنا اليوم . . ان الدول الاجنبية تستخف بنا . . »

فتناول السلطان الورقة فقرأها واعادها الى المنضدة وقال « اراك قد عقلت على هذا الخبر اهمية كبرى »

قال « كيف ياسيدي وهذا قيصر روسيا وملك انكلترا قد اجتمعا في « روال » وقررا ماياول الى ذهاب تركيا اوربا من ايدينا . »  
فهنز راسه واغتصب ابتسامة وقال « كثيراً ماقررنا مثل هذه القرارات وقد عرقلت مساعيهم »

فامتعض الصدر من تعبير السلطان في هذا الموقف بصيغة المفرد كأنه هو الفاعل لسلك شيء ولم يهمه هذا بقدر ما همه استخفافه بالامر فقال « لاشك ان حكمة امير المؤمنين تغلب على كيد الكائدين ولكن ذلك يفتقر الى المال والخزينة تشكو الفراغ » فلما سمع قوله اظهر الاستغراب وقال « يا للعجب . وانا انما عهدت اليك الصدارة لتتلافى ماوقع فيه اسلافك . . ان مملكتي الواسعة كثيرة اليراد اين تذهب الاموال؟ »  
ولو اراد السلطان ان يفهم مصير الاموال لعلم انها تذهب بسبب دخول رجاله في كل فروع الحكومة فيسلط عليها جماعة من خاصته يستولون على اليراد او يضيعونه بسوء ادارتهم ولا تستطيع الصدارة ان تعارضهم الاويقع الغضب عليها ولم يجسر الصدر ان يقول ذلك صريحاً فقال « ان مملكة جلالة السلطان واسعة زاداها الله سعة ولكن اليراد يذهب من سوء الادارة و.. »

فقطع السلطان كلامه بصوت عال قائلاً « وامت المسؤول عن ذلك . جانم ! »  
فعلم ان الكلام لم تبق منه فائدة فعاد الى مسألة روال فقال « ولكن مسألة روال ... الا يرى سيدي الاهتمام بشأنها ؟ »

فقال السلطان « جانم . . ما هذه روال . دعنا منها الان . ولا بد من تدبير النقود فاني في حاجة اليها لمساعدتكم في ادارة هذه الحكومة . ولولا سهري وتعبي لذهبت دولتنا هباءً منشوراً — تقعون في الخطأ فاضطرر انا الى اصلاحه وهذا يقتضي له الاموال . »  
وحملق بعينه وتشاغل بنفض رماد السيكار في المنفضة وسكت

فهيبت الصدر وهو يعلم ان غضب السلطان لا يبرد ولكنه لم يرد بدأ من الرجوع الى الموضوع فقال « ان مسألة روال لولا احوال اخرى لم يكن لها اهمية . . »

قال « اراك عدت الى الشكوى من قلة المال ! »

قال « ياسيدي اني لا اطلب المال لغير الجند . . ان معولنا على الجنود وهؤلاء ينبغي ان يستولوا على مرتباتهم و.. »

فلم يتالك السلطان عن النهوض من الغضب وقال « الجنود ! قد انفتت مالي وراحتي في سبيل ارضائهم وهم يتدمرون ايضاً ؟ . اعطوهم رواتبهم - من اين آتي بالمال ؟ ان ايرادات الحكومة في ايديكم . انا لم استول على راتبي منذ اشهر فاذا احتجت الى المال - ولا احتاج اليه الا في اسبيل مصلحة الدولة - لا اجد منه شيئاً . وانا ساكت . . . وفي هذه الساعة حوت على الخزينة بمبلغ زهيد في هذا السبيل ادفعوه لحامل امري حالاً » وراى السلطان انه بالغ في التعنيف بغير حق فخفف صوته واطهر التظلف وقال « ومع ذلك لابد من اتخاذ التدابير اللازمة لزيادة الايراد وانا اكلفك ان تضع لائحة في هذا الشأن . . . لا ينبغي لنا ان نجعل سيلاً للاجانب ان ينتقدوا اعمالنا » وكان الصدر مخلصاً في خدمة الدولة لكنه لم يؤت من الجراة ما يكفي للتصريح بفكره ولو اوتيتها لم تأت بفائدة . ولما راى غضب السلطان نهض حتى اذا فرغ السلطان من كلامه اشار مطيعاً وانصرف وهو يقول في سره « لا يرجى اصلاح هذه الدولة وهذا الرجل سلطانها »

ومشى عبد الحميد بعد انصراف الصدر وقد خلا بنفسه وهو يتم قائلاً « تطلبون المال مني ؟ واذا اعطيتمكم ما عندي كيف ادافع عن حياتي ؟ . كلكم تحتفظون بالمال لانفسكم الا بحق لي ان افعل مثلكم ؟ »

وظل ماشياً وهو يستطرق من غرفة الى اخرى ويتلفت كأنه يحاذر ان يتبعه احد حتى اتى غرفة صغيرة مهملة لا يدخاها احد وضغط على زر وراء بابها فانفتح في الحائط المقابل باب دخل منه في دهليز الى حجرة فيها خزانة من الحديد اخرج من جيبه مفتاحاً فتحتها به واذا هناك بدر من المال على اختلاف اشكاله من الذهب والجوهر والورق

ولما وقع بصره عليها اشرق وجهه وانبسبت اسرته وجعل يقلب ما هنالك من الاوراق المالية وهي كثيرة ويقول « اريدون ان اعطيكم هذه الاموال وهي عدتي التي احاربكم بها ؟ ولولاها لم تأنوا الي صاغرين . . . اعطيكم اياها ؟ وبماذا اغريكم بعضكم على بعض وارمي الشقاق بينكم حتى لا تجتمعوا علي ؟ لولا هذا المال لكنتم انتم اصحاب السلطة . . . انتم تخادعونني طمعاً بالمال وانا اخادعكم ولا اعطيكم اياه . . . هو سلاحى وبه حياتي »

قال ذلك وعاد فاقتل الخزانة واغلق باب الحجرة وهو يقول « ليس هذا كل مالي . . . هل جنت لاضر كل ثروتي في مكان واحد وانا محاط باللصوص والجواسيس ؟ »

ومشى حتى أتى غرفة النجارة ففتح درجاً في مكان لا يخطر لاحد وجود المال فيه واستخرج منه ظرفاً فيه مئآت من الاوراق المالية ربما زادت قيمتها على نصف مليون جنيه وجعل يقلبها ويقول « هذا من مالي ومثله كثير في هذه الخبايا »

## الفصل التاسع والثلاثون

### الفتك

ثم عاد الى قاعة الاستقبال ورجع الى مطالعة اوراق رامز فرأى بينها كتباً من شيرين فيها مداعبة ومشاكاة . وهو يقرأها طرق ذهنه فجأة صورة القادين ج فاجفل وتحولت هواجسه الى دار الحريم فاراد ان يشغل نفسه بقطعة من جريدة فرنساوية فيها مقالة لرامز اخذ يطالعها ويتفهم فحواها لانه ضعيف بالفرنساوية فلم تذهب صورة القادين من امامه فرمى تلك الجريدة على المنضدة واسترخى في مجلسه على المقعد وتهدأ طويلاً ثم قال لنفسه « ماذا جرى بتلك المرأة ؟ هل تحقق حملها ؟ . ويلاه بماذا ينبغي ان اشتغل ؟ بالخوارج المارقين ام بالنساء في دار الحريم ام بمراقبة حركات رجالي الذين يزعمون انهم انصاري ام بمطالبي الوزراء ام بمطالعة التقارير من الجواسيس او بالتقارير على الجواسيس ؟ انه لعمل شاق ! »

ثم مد يده الى صندوق السيكار وتناول سيكاراً واشعله وهو ينظر من خلال الدخان الى الساعة الموضوعه على الرف امامه فاذا هي الساعة الخمامسة ( عربي ) فنفض نفخة تطاير دخانها في جوتلك القاعة ثم نهض وهو يتشدد ويقول « ولكن هذا العمل لا يصعب على همه السلطان عبد الحميد ! لم ير عرش آل عثمان سلطاناً عاملاً مثلي . . اني قابض على مملكتي ودولتي وقصري بيد من حديد » وصفق فجاء الحاجب فصاح به « نادر آغا » يعني ان ينادي نادر آغا

قال ذلك ومشى في الدهليز بين خزائن التقارير السرية نحو دار الحريم وهو لا يلتفت يمنة ولايسرة . واذا بنادر آغا قادم عليه من الباب السري المؤدي من دار الحريم الى المابين فخيا ووقف . ولو كان ابيض اللون لظهرت دلائل البغته في امتقاع لونه ولكنها ظهرت في عينيه رغم ما كان يحاوله من التستر . وادرك عبد الحميد ذلك فقال وهو يتحول الى حجرة النجارة ليلهو بالحفر « ماذا جرى ؟ هل ارسلتموها ؟ » يريد هل قتلتم تلك المرأة

فاجاب نادر آغا « خير افندم »  
 فحملك السلطان فيه وقال « وماذا ؟ »  
 قال « لم تتحقق بعد اذا كانت حاملاً »  
 فبادره عبد الحميد بقوله « واذا لم تتأكدا ؟ ان الشك وحده كاف لتنفيذ اوامري ..  
 ولولا ما تعلم من منزلتك عندي لكنت .. » وسكت والتهديد ظاهر في لحنه  
 فقال نادر آغا « هل في الدنيا اسبق .. من هذا العبد الى تنفيذ اوامر الذات  
 الشاهانية المقدسة ؟ ولكنني كنت احسب امير المؤمنين اذا تأكد عدم الحمل بفضل  
 بقاءها »

فأسرع في الجواب قائلاً « لا »  
 فقال « لا ينبغي ان اكنم شيئاً عن سيدي وولي نعمتي .. »  
 قال « قل »  
 قال « ان الحاضنة المكلفة بمثل هذه المهام لا اثق انها تفعل ذلك بامانة وربما كنت  
 مخطئاً في ظني .. »

فقطع عبد الحميد كلامه قائلاً « فهمت مرادك صدقت .. لان تلك الحاضنة  
 تعرف لتلك القادين جيلاً اسدته اليها بتوسطها لها عندي .. ولكن لا بد من التنفيذ »  
 فأطرق ذلك الخصي « نبيهة وهو ينظر الى حركة يد عبد الحميد في الحفر على  
 الابنوس كأنه من امهر النجارين ثم قال « اعرف طيبياً يتزلف الى المايين منذ برهة  
 ويتوسل في طلب منصب وهو لا يعرف تلك المرأة فلا يشفق ولا يرحم . وهو ايضاً  
 جائع يطلب رزقاً واذا علم ان جلالة السلطان يكافئه على تنفيذ امره بان يجعله من  
 اطباء القصر الملوكي فعل ما تريد »

فضحك عبد الحميد وقال « تعجبني ارأوك يا ابيض الخصال - ان ترقية الصغار  
 اقرب الى الاستفادة من امانتهم لانهم حريصون على استبقاء النعمة التي نالوها بصدق  
 خدمتهم لنا - ولكن هل يستطيع ذلك ؟ »

فقال نادر « مالنا وله انا اخاطبه واجعل ذلك العمل شرطاً لتقدمه وليتدبر الامر  
 كما يشاء .. واذا لم يحسن الاسلوب عددنا ذلك ذنباً حاسبناه عليه »  
 فتبسم عبد الحميد و اشار الى نادر بالانصراف ومكث وهو يفكر في رامت و بودان  
 يراه لعله يستطلع اسرار الجمعية منه ولكنه رأى من الحكمة ان يصبر نفسه

## الفصل الرابعون

## رامز عند الباشكاتب

اما رامز فانهم حملوه مع اوراقه من سـلانيك فوصل الاستانة في ذلك الصباح فدفعوه الى الباشكاتب فارسل اوراقه الى عبد الحميد كما علمت واستبقاه عنده في حجرة خاصة ليس فيها احد . فجلس رامز على مقعد هناك ولم يهـمه ما يهدده من الخطر على حياته اكثر من اهتمامه بشيرين وكيف يكون حالها بعده وهو يعلم ان اباهـا لا شفقة في قلبه عليها وان صائباً ربما طمع فيها وواقفه ابوها على تزويجها بها . فلما تصور ذلك هب جسمه واقشعر بدنه واحس بتقل ذلك الاسر

وبعد قليل جاءه الباشكاتب بنفسه فـجاء وتلطف في خطابه وسأله عن سبب القبض عليه سؤال من لا يهـمه الامر وانما يسأل على سبيل حب الاطلاع فقال رامز « لا اعلم السبب »

قال « لعلك متهم باشتراكك في احدى الجمعيات السرية »

قال « نعم . . . وليست هي تهمة »

قال وهو يظهر الاستغراب « اذا كنت تعترف باشتراكك في تلك الجمعية فانك تعرض نفسك لخطر شديد لان جلالـة السلطان يشدد في منع تلك الاجتماعات الضارة . . وما كان اغناك عن الاعتراف بذلك . . اقول هذا شفقة عليك اذ يظهر لي انك من ابناء النعم واهل الذكاء ولكنك قائل الاختبار فربما اغراك بعض الامر وسين الذين يسمون انفسهم الاتراك الاحرار فادخلك في الجمعية التي سموها جمعية الاتحاد والترقي . اظنك لو عرفت تاريخ هذه الجمعية لعدلت عنها . . ان بعض المحرومين من الوظائف اتخذوها وسيلة للارتزاق بالتهديد ( Chantage ) وكان امير المؤمنين يقطع السنة الصائحين احياناً بالوظائف . واكثرهم كانوا يبيعون اصواتهم بدرهمات قليلة فتسكار ادعياء الحرية — ولا اظنك من الادعياء فيها بل انت حر الضمير تقول ما تعتقد . ولكنهم خدعوك حتى وقعت تحت الخطر وهم مستريحون . ولو وقع احدهم مكانك ليتخلص واوقعك مكانه . . هـ هـ هـ . وقد فعلوا ذلك مراراً . . مالنا ولهم اظنك لم تتناول الفطور بعد » ومد يده الى جيبه استخرج علبة السكاير ودفع اليه سيكارة وخرج وتركه يفكر في ما سمعه لعله يبيح بسر الجمعية ليتخلص من الخطر

وبعد قليل جاءه بعض الحجاب يدعوه الى الطعام فنهض واكل بعض الشيء وهو لا يفتح فاه للكلام لاستغراقه في هواجسه ولم تبرح شيرين من فكره - وبعد الطعام اتوه بالجرائد المطالعة فاخذ يقرأ وهو لا يفهم ما يقرأه حتى اذا آن الغداء تناوله وقد ملء الانتظار واصبح شديد الرغبة في معرفة ما يكون من امره في ذلك القصر الذي لا يدخله غريب الا تهيب من كثرة ما يجول في اكنافه من رجال العسكرية وكلهم من اهل الرتب العالية وخصوصاً الياوران ولهم دائرة خاصة يقال لها دائرة الياوران وفيهم فحول القواد وقروم الابطال وهم ثلاث طبقات ياور وياور اكرم وياور نخري والياور الاكرم فوق سائر المراتب قدراً - فكان يقع بصره على بعضهم ماراً او داخلاً على الباشكاتب وعليه علامات الشرف والابهة وبكاد رأسه بناطح السحاب



تمسین باشا الباشکاتب فی امان نفوذہ

وناهيك بدائرة الباشکاتب نفسها فانها تحتوي على الباشکاتب وعشرين كاتباً من

ذوي الرتبة الثانية الى رتبة بالا وهم من الشبان الناشئين على الاخلاق الجديدة وكلهم عيون على الباشكاتب وهو عين عليهم . وقد باعد الشقاق بينهم فتراهم جميعاً وقلوبهم شتى . وكان الباشكاتب الواسطة العظمى بين السلطان والحكومة اي يبلغ ارادته واوامره الى الصدر الاعظم او شيخ الاسلام . واشهر اوائك الباشكاتب واقربهم عهداً منا محسن باشا

وعلى الباشكاتب ترد الاوراق الرسمية من الباب العالي ومن المشيخة الاسلامية ومن سائر النظارات وسائر الولايات وتصدر عنه الى الباب العالي وجميع الجهات . وهو يبعث بملخصاتها لتوضع على المكتبة السلطانية فيتلقى عنها الارادات بتبليغ الماينجية او من يأمره السلطان بالتبليغ من الذين في الحضرة الشاهانية . والباشكاتب يبعث بالارادات السنية بامضائه في اوراق صغيرة الى الصدر الاعظم او الى من تخصمهم من الوكلاء والوزراء

وحين يستلم الصدر الاعظم او غيره تلك الارادات يكتب على الورقة المرسل بها ساعة الاستلام والدقيقة . ولدى الباشكاتب دفتر يكتب فيه المبلغ للارادة وصورتها ودقيقة صدورها ويمضي ما يكتبه بامضائه . وهذه عادة جديدة لم تكن من قبل احدتها ارتكاب بعض المبلغين تبليغ ارادات لا اصل لها

وكان الباشكاتب ركناً عظيماً من اركان الجوايس في السراي وهو يعرض فوق وظيفته الرسمية العليا اوراق الخفيات التي ترد عليه منهم . ولها النصيب الاوفر من عنايته واهتمامه فلا تلبث في يده الا ريثما يتناولها فيبعث بها الى الحجره الشاهانية فتذهب اسرع من منحدر السيل فيتلقى عنها الارادة في الحال سواء كانت ارادة استنطاق او استيضاح او التفات او احسان على من قدمها . بخلاف الاوراق الرسمية او اوراق ذوي الحاجات فان لها طريقاً في العرض لا يتغير وربما تأخرت شهوراً أو جاء عليها تيار الاوراق الاخرى ولا ينفع البحث عنها

على ان السلطان كثيراً ما كان يدعو السر خفية اليه راساً متى شاء للنظر في شأن بهمه كما رأيناه فعل في مسألة رامز وقد يأتيه الصدر الاعظم راساً لامر هام خوفاً من اشتغال الباشكاتب عن مطالبه الهامة بتلبية مطالب الجوايس

## الفصل الحادي والاربعون

### قصر مالطة

ظل رامز هناك الى المساء فجاءه الباشكاتب وسأله اذا كان في حاجة الى شيء وقال له  
« انما اينتك بنفسى لكي تستانس بي لاني اشفتت عليك فهل رايت ان تسمع نصيحتي  
قبل ان اسامك الى المحققين »

قال وهو رابط الجأش « لم افهم مرادك »

قال « نصحت لك ان ترجع الى رشديك وتعديل عن الغرور وانا اضمن لك  
السعادة . المطلوب ان تخبرنا عن اسماء الاشخاص الذين اغروك على الدخول في هذه  
الجمعية . ان الاطلاع على خبرهم لا بد منه لان الذين سيأتون الينا منهم كثيرون على  
جاري العادة دائماً ولكنني احببت ان يكون ذلك على يدك لتنال الجزاء الحسن »  
فهرز رامز راسه هز الانكار وقال « ان مثلي لا يخاطب بمثل ذلك يا حضرة  
الباشكاتب » وسكت

فاظهر الباشكاتب الامتعاض من جفاء عبارته وتحول عنه وهو يقول « لقد  
اخطأ ظني بك فوضعت املي في غير موضعه . لا بأس »

وبعد قليل دخل على رامز ضابط اوماً اليه ان يتبعه فهض وخرج معه فوجد  
بضعة رجال من الجند ينادقهم ينتظرونه خارجاً . فأشار اليه الضابط ان يتبعه فمشى في  
اثره في طريق واسع يؤدي الى حديقة يلدز الخارجية ولم يكن دخل يلدز من قبل .  
فراى السور الضخم الفاصل بين الحديقتين كأنه سور مدينة حصينة وسار به الجند بجانب  
ذلك السور حتى عرجوا في بعض الطرق بين الاشجار الغضة الى قصر في بابه الحراس  
باسلحتهم . فأشار الضابط اليه ان يدخل فدخل ودخل احد الحراس معه في دهليز  
القصر ثم اصعده في سلم مغطى بالسجاد الى الطبقة العليا ومشى امامه حتى اوصله الى  
غرفة وقال له « تفضل يا سيدي امكث هنا »

فقال رامز « ما هو هذا المكان ؟ اين انا ؟ »

قال « لا تخف . انك ضيفنا وهذا القصر قصر مالطة »

فلما سمع رامز ذلك الاسم اجفل وتهيب اذ تذكر ان مدحت باشا ابا الاحرار

جلس فيه حيناً في اثناء محاكمته التي حكم عليه بعدها بالنفي الى الطائف حيث لاقى حتفه

فجمد في مكانه من شدة التأثر والحارس لا يزال واقفاً بالبندقية . ثم انتبه رامز لنفسه فتجدد وقعد على مقعد هناك وكانت الشمس قد آذنت بالزوال واقبلت طلوع الظلام فاسرع بعض الفراشين الى اضاءة القصر ولاسيما تلك الغرفة وهي مفروشة بالبسط الثينة وفيها مقاعد وكراس ومنضدة . وانس رامز في الخادم لطفاً فقال له « اليس في هذا القصر احد سواي ؟ »

فابتسم الحارس واجاب « لا اعلم ياسيدي »

فاقشعر بدنه من ذلك الجواب لانه توقع ان يكون نحته اسرار مخفية وهو يسمع بيلدز وفضائعا لكنه تجدد وقال « اطلب مني ان ابقى في هذه الغرفة ؟ »  
فاشار اليه ان يتبعه حتى دخل من باب فيها الى غرفة اخرى فيها سرير مفروش وقال « هذا هو الفراش الذي ستنام عليه دولتم » خاطبه بهذا النعت لان هذا القصر لا يسجن فيه الا كبار رجال الدولة

جلس رامز على المقعد وقد اسودت الدنيا في عينيه واستغرق في مخاوفه واخذ يردد في ذهنه مامر به في ذنبك اليومين من الاحوال وتحقق انه مقتول فجاثت في صدره عاطفة الاشفاق على شيرين وما يكون من امرها اذا بلغها قتله . وتذكر محاسنة الباشكاتب له وما وعده به من الحسنى اذا باح بنجر الجمعية . وتذكر اناساً فعلوا ذلك ونالوا المكافأة بالاموال والرتب فحدثته نفسه لحظة ان يستبقي حياته اكراماً لشيرين ثم غلبت عليه الانفة وعزة النفس فصمم على الثبات وهو يعلم ان شيرين لا ترضى بالخيانة منه قضى هنيهة جالساً مطرقاً ثم سمع وقع اقدام واذا بالخادم يدعوه الى العشاء ولم تكن نفسه تشاق الى الطعام لكنه لم يشأ ان يظهر الضعف فمشى الى مائدة كبيرة جلس اليها وحده لتناول الطعام وهو يفكر في حاله ثم نهض الى نافذة تؤدي الى شرفة تطل على حدائق يلدز وقد خيم عليها الظلام . ولكنه رأى بعض الانوار عن بعد في بعض قصور يلدز وما بعدها . وجلس على كرسي وقد احس بالوحدة وغلبت عليه الوحشة وهو لا يعلم مصيره . هل يقتل في تلك الليلة ام يسأل عن اسرار الجمعية وماذا يقول اذا سئل

## الفصل الثاني والاربعون

## طارق ملثم

ثم شعر رامز ببرد خفيف فنفضل الدخول الى غرفة الجلوس فدخل وما استقر به المقام حتى سمع حركة ووقع اقدام فاصمى وما عثم ان رأى رجلاً دخل عليه وقد النفّ بئرس يغطي اثنابه وتلم حتى لا يبدو من وجهه شيء غير عينيه . واقبل عليه حتى تناول كرسيًا وجلس امامه . فاقشعر بدن رامز وصبر ليرى ما يبدو منه

فبادره الملمّ بالسلام وسماه باسمه فاجفل ولكنه رد التحية فقال الرجل « قد ايتك بنصيحة ارجو ان تقبلها »

فهزّ رامز راسه هزة الاستفهام كأنه يسأله « ماهي ؟ »

قال « انت شاب في مقتبل العمر فلا تاق بنفسك الى الهلكة »

فاستغرب هذه النصيحة من رجل لم يسمع صوته من قبل فقال « واي تهلكة »

قال « انا اعرفك واعرف احوالك اذا لم تشفق على نفسك فاشفق على شيرين »

فلما سمع اسم خطيبته ارتعدت فرائضه وتوانته الدهشة وجعل يتفردس في عيني

الرجل وفي قيافته فلم يذكر شيئاً عنه واربح عليه فقال الرجل « لانتغرب اطلاقاً على

حقيقة حالك ليس في هذه القصور احد يعرف ذلك سواي وقد علمت ما كان من

عنادك اليوم عند الباشكاتب وعلمت ان ذاك يذهب بحياتك وحياة خطيبتك فلا

تستسلم للجهل فان ذلك ثابت عليك . ولاسييل للنجاة من القتل بغير الاقرار — يطلب

منك فقط ان تذكر اسماء الشبان الذين اغروك على الدخول في تلك الجمعية فتعال العفو

مع المكافأة وتكسب حياتك وحياة شيرين »

فقال « وما دخل تلك الفتاة في هذا الامر ؟ »

قال « انها شريكك في الجريمة وهي التي كانت تشجعك على تلك المفالات ضد

الذات الشاهانية »

فنبجلد رامز واظهر الاستخفاف وقال « لا دخل لها في شيء من ذلك . . . .

من انت ؟ »

قول « لا يهمك من انا ولكن معرفة صدق ما اقوله تدلك على اخلاصي في

بصحك واذا كنت لا تصدق فاني اطلعك على خطيها بيدها تشاركك في النعمة على

« جلاله السلطان »

وكان رامز يعلم ان بين اوراقه كثيراً من مكاتيب شيرين المنها لم تكن تذكر اسمها صريحاً فاستغرب اطلاع ذلك الرجل على اسمها وانها خطيبته فرأى الانكار اولى فقال « لا شريك لي في هذه المهمة . . . دع الكلام عن النساء واما انا فمتى سئلت عن الجمعية فاجيب بما اراه »

قال « لا فائدة من الانكار وانا لا اطلب الجواب منك الآن ولكنني نصحت لك حتى اذا سئلت لا يأخذك الغرور وتقتل نفسك واعز الناس عندك . . . هذه نصيحتي لك وغداً لناظره قريب » قال ذلك ووقف ونحول من تلك الغرفة وترك رامزاً يتقلب على مقالي الجمر من الدهشة والاستغراب

ظل رامز وحده وقد احاطت به الهواجس والخاوف وهو يتصور انه في حمام ويسأل نفسه من هو الطارق وكيف عرف شيرين وما الذي حمه على النصيحة . قضى في ذلك مدة وهو مطرق ولم يهتد الى حل وقد غلب عليه التعب لفرط ما قاساه من القلق والاضطراب في ذنبك اليومين فذهب الى فراشه يطلب الرقاد

وقضى اليوم التالي منفرداً وهو في كل ساعة ينتظر ان يأتيه من يستنطقه ويستطلع خبر الجمعية منه وهو يهيئ الاجوبة ويستعد لثبات على رايه والمحافظة على العهد التي اقسم على صيانتها . على ان سياسة المايين اقتضت التظاهر بعدم الاكتراث ولكنهم وسوسوا له على يد الباشكاتب وذلك انتستر ما يبعثه على الخوف ويحمه على الاقرار . ولعل القاريء ادرك ان ذلك المايم انما هو السر خفية نفسه وقد اطلع على علاقة رامز بشيرين من مكاتيب خصوصية جاءت من صائب بك وعلم انه اذا استطاع كشف سر الجمعية زال جزاء عظيماً

## الفصل الثالث والاربعون

عزت

اما السلطان فانه صبر نفسه الى الغد وسأل عما جرى فلما علم ان الرجل لا يزال متكئاً راي ان يحتمل في استنطاقه على يد عزت باشا لانه يعتقد فيه الذكاء المفرط والدهاء البالغ وقد غابه عزت على امره فسلم اليه النظر في اهم شؤون السياسة واصبح معواه

الوحيد ومشيره الاول وهو الذي انقذه من عواقب مذبحه الارمن . وكان ذلك من اكبر اسباب تقريبه والوثوق به . فرأى عبد الحميد ان يكافئه استنطاق رامز وان كان ذلك خارجاً عن دائرة عمله ولم يشأ ان يطالب ذلك منه راساً فتذرع اليه في اثناء حديثه معه بشأن ملاقاته روال التي تقدم ذكرها . فبعث اليه فلما جاءه قال له « انت معتمدي في المهمات السياسية وقد جاءني الصدر بخبر ملاقاته روال فهل علمت بذلك » فقال عزت « لا اكذب جلاله مولاي البادشاه ان هذا الخبر من الاهمية بمكان عظيم لكنني لا اتوقع تنفيذه لاختلاف الدول في المقاصد والاعراض وان كان ذلك لا يمنع سعينا في سبيل افساده »



عزت باشا العابد

قال « هل دبرت شيئاً بشأنه ؟ اني شديد الثقة بك »  
 قال « ان هذه الثقة التي لا استحقها تجعاني عبدآرقاً ابذل حياتي في مصالحة جلاله السلطان . . وانا مفكر في امر ساعرضه بعد قليل »  
 وكان السلطان جالساً على كرسيه في قاعة الاستقبال والمحفظة لا تزال امامه فلما سمع قول عزت تشاغل بازاحة المحفظة الى ما بين يديه وقال « انت تعلم يا عزت انك

موضع ثقتي بل انت صديقي الوحيد ولا انسى الخدم الجزيلة التي قمت بها دون سواك  
من رجالي وقليل فيهم الصادق المخلص . ومع كثرة الخائمين حولي قل من اعول عليه  
بلد انا لا اعول على سواك . . . انعام ماذا اطلب اليك ؟ »

قال « اني عبد مولاي طوع ارادته وافديه بروحي »

قال « بارك الله فيك — انت تعلم ما تقاسيه من صباح اولئك الغلمان الذين  
يسمون انفسهم الاحرار وكثيراً ما انبأني بضعفهم وعجزهم عن غير الصباح وقد كفاني  
نير باشا سفيرنا في باريس مؤنة كثيرين منهم حتى اضمحل شأنهم وانحلت جمعيتهم .  
لكنني عامت بالامس انهم استأنفوا النهوض على سبيل آخر غير الصباح فالفوا جمعية في  
سلانيك دخل فيها كثيرون من جنودي اغراهم اولئك الخوارج على الاشتراك معهم .  
جاءني خبرهم على ايدي الخفية لكنهم لم يعرفوا اصحاب هذا المسعى لانهم شديدي  
التكتم . غير ان ناظم بك قومندان مركز سلانيك تمكن بواسطة احد الخفية من القبض  
على واحد منهم وحمله الينامع اوراقه وهي هنا في هذه المحفظة . وقد قرأتها وفهمت  
منها ان اولئك الملاعين عاملون بدهاء وهمية وبهمي الان معرفة الاعضاء العاملين في  
هذه الجمعية .. وهذا لا يمكن الاطلاع عليه الا من هذا الرجل وهو الان مسجون في  
قصر مالطة . . . ويظهر انه صعب المراس فام ارد ان اكلف باستنطاقه سواك لما اعهد  
من ذكائك . وان كنت لم اكلفك بمثل هذا الامر من قبل . وهذا يدلك على مبالغ  
ثقتي بك »

وكان عزت يسمع كلام السلطان وهو مصغ والذكاء ينبعث من عينيه ويحترق اقصى  
ضمير السلطان فلما فرغ من كلامه قال « لم يكن امر هذه الجمعية غريباً عن عبدكم ولا انا  
ساكت عنها وان كنت لم اذكر شيئاً من امرها مولاي البادشاه تجافياً عن التنويه بسهري  
على الدولة ومقاومة المارقين الاغرار . ان هذه النهضة لم يكن منشأها في سلانيك فقط  
لكنها ظهرت في الشام وكادت تشتعل نارها لو لم ابادرها بما يلزم فقطعت دابرها من  
هناك .. »

فنظر عبد الحميد الى عزت نظر الرضى والارتياح وابتسم وعينه تتلألأ بالدمع  
كانه دمع الانعطاف والاعجاب بحيث يتوهم من يراه كذلك انه مثال الاخلاص وصدق  
اللهجة . . . وكثيراً خدع جلساءه هذا المنظر منه حتى عزت مع طول اختباره وبلائه  
وفرط دهائه كثيراً ما كانت هذه النظرات تؤثر فيه وهو يقابلها بالاخلاص وصدق  
الخدمة في مصاحبة السلطان . . . وهم عزت ان يتم حديثه فقطع عبد الحميد كلامه قائلاً

« بورك فيك من صديق مخلص . . . قد علمت ذلك من السر خفية . . . وهذا عهدي  
 باخلاصك . . . فالآن صرت اتوقع ان تكشف لنا امر جمعية سالانيك من هذا السجن  
 افعل . اه ؟ »

فاشار عزت مطيعاً وقال « اني فاعل بتوفيق الحضرة الشاهانية المقدسة التي  
 اقدتها بنفسي واهلي »

فنهض السلطان وهو يقول « ان صدري ينشرح كلما رايتك واشعر اذا كانتك  
 بامر انه مقضي »

فنهض عزت واستأذن بالانصراف ومضى الى قصره وخطره مشتغل بامر رامز  
 وكيف يحمله على الافرار - واعمل فكرته في هذا السبيل وهو شديد الرغبة في انقاذ  
 السلطان من تلك الجمعية الجديدة فينقذ نفسه ايضاً لانه واقع بما وقع به هو . على انه  
 كان يسمي في هذا السبيل وهو مقتنع انه يخدم الدولة به لاعتقاده ان الاحرار لا يمكن ان  
 يجتمعوا على امر كبير فيرى وجودهم عثرة في طريق الاحكام . اضف الى ذلك ما يخشاه  
 من نجاحهم على حياته وهذا وحده كاف ليوجهه الخطأ في اعمالهم وانهم على ضلال .  
 فهو مضطر بطبيعة الحال ان يبذل جهده في خدمة مصلحة السلطان بمقاومة الاحرار  
 قضى يومه وهو يفكر وبات تلك الليلة وبكر في الصباح فبعث الى رامز ان يأتي  
 اليه معزراً مكرماً . وكان قصره في الطرف الآخر من بلدز فامر ان يحمل اليه رامز  
 في مركبته

## الفصل الرابع والاربعون

### الاستنطاق

وكان رامز قد ملَّ الانتظار ليقف على مصير امره . واصبح في ذلك اليوم فلبس  
 ثيابه وتناول الفطور وهو غارق في هواجسه واذا بوقع حوافر الخيل قرب القصر  
 فاجفل ونهض الى شرفة تطل على الطريق فرأى مركبة يجريها اثنان من جياد الخيل  
 ثم سمع مشياً في الدهليز واذا بالخدام قد اتاه مسرعاً وهو يتسم ويقول « اقدم . . .  
 تفضل الى المركبة »

فقال « الى اين ؟ »

قال « ان مولانا عزت باشا يدعوك اليه وهذه مركبته بالبواب »  
فاستغرب تلك الدعوة ولكنه تجهد ونزل الى الباب فرأى جاويشاً واقفاً بانتظاره  
واوماً اليه ان يركب فركب وركب الجاويش بجانب السائق وسارت المركبة الى  
قصر عزت

وبعد بضع دقائق رأى نفسه بباب ذلك القصر فاستقبله احد الحجاب بالاكرام  
ودعاه الى الصالون فدخل وهو يفكر في ما عساه ان يترتب على تلك الدعوة فدعاه  
الحجاب الى الجلوس وبعد هنيهة اقبل عزت وبيده جريدة يطالع فيها ويمشي الهويناء  
بدون اكتراث. فوقف له رامز ولم يكن يعرفه من قبل. فرآه كهلاً ربعة من الرجال  
يلوح الذكاء في ملامحه وكان يسمع بدهائه وتعقله فتهيب من منظره  
دخل عزت الصالون وهو لا يرفع بصره من الجريدة كأنه مستغرق في المطالعة ثم  
رفع بصره بغتة وحيا رامزاً وأشار اليه ان يجلس وجلس امامه وبينهما منضدة وقال  
« انت ضيفنا يا رامز افندي ؟ »

قال « نعم يا سيدي ولي الشرف بذلك »

فد يده الى جيبه واخرج عابرة مرصعة استخرج منها سيكارة قدمها له وهو  
يقول « ربما تستغرب بحيثك الى عندي . . بعد ان كنت تتوقع ان تؤخذ الى السر  
خفية او غيره من الجواسيس . الا تعد ذلك اكراماً خصوصياً ؟ »

فقال « قد علمت يا سيدي وعرفت هذا الفضل لكم »

قال « لا ينبغي لي ان اكرمك السبب الذي دعوتك من اجله الى هنا . اعلم اني  
قد استأذنت في مخاطبتك شخصياً من جلالة البادشاه لما بلغني من الخطر الذي يهددك  
وقد علمت انهم لم يحسنوا التفاهم معك في الامر المطلوب منك فاحببت ان آخذ هذا  
الامر على عاتقي وتمهدت ان امحضك النصيحة فهل انت عارف قدر ذلك . ؟ »

قال « نعم افندم »

فقال عزت وهو يعتدل في مجلسه « انا احب ان اباحثك واين لك وجه الصواب  
وانت تختار الطريق الاصلح . . لا اهددك بالقتل ولا حاجة بي ان ابين لك الخطر  
المحتمل بك فانت اعقل من ذلك . انما اسألك عن السبب الذي حملك على الدخول في  
تلك الجمعية الم تكن تعلم انها من الجمعيات الضارة ؟ »

قال « لم افهم مرادك بالضرر هنا »

قال « قد احسنت الاستفهام . . عفارم . . ان مرادي بالضرر هنا ان وجودها

مضرراً لمصاحبة الدولة «

قال « كيف يكون ذلك وغرضها الاصلى انقاذ الدولة من الاضرار .. هل تأذن لي ان اخاطبك بحرية ؟ »

قال « اني في غاية السرور من حرية فكرك .. تفضل قل ما تريده »

قال « هل اقول بحرية »

قال « قل .. لا تخف .. انك تخاطب رجلاً عركه لدمر ولم يمر بذهنك او اذنان اقرانك خاطر لم يخطر له .. وقد تبصرت في هذا الامر ملياً ولو وجدت فيه نفعاً لم ارجع عنه »

فاستبشر رامز بهذا التصريح وقال « هل سبق انك فكرت في الخلل المتكمن في جسم الدولة ؟ »

فاشار براسه وعينيه ان « معلوم »

فقال « فاذا كنت تعترف بوجود الخلل هل تجهل ان سببه سوء الادارة ؟ »

قال « لا انكر ذلك .. ان الحكومة تحتاج الى اصلاح . لاشك في ذلك »

قال « هذا هو الامر الذي نحن ساعون فيه »

فابتسم عزت وقال « هذا هو وجه الخطأ . نحن منفقون في تشخيص الداء ولكننا مختلفون في وصف الدواء »

قال « اشكرك يا سيدي لاطلاق حرية الكلام لي . اني استغرب ان يكون هناك وجه للاختلاف في العلاج . اذا كانت احوال الدولة مختلفة كما تقول فاختلفاها من الحكومة الحاضرة وابدالها هو الدواء الوحيد »

قال « اظنك تعني ان تغلب الحكومة من الاستبداد الى الدستور »

فبادره قائلاً « معلوم وهل من طريق آخر »

قال « هذا كلام جميل ولكنه اشبه بالخيال الشعري منه بالرأي السياسي .. هل تظن الامة العثمانية مستعدة للدستور ؟ »

قال « نعم »

فتحنج وهو يسمح فنه بمنذيله وقال « لو كانت مستعدة له لم تضيعه بعد ان نالته . اوكد لك ان الذات الشاهانية منحت الدستور لرعاياها وهي تود من صميم القلب ان تكون الامة في استعداد له . ولكن ظهر بعدئذ انه كان السبب في الخراب ولولا حكمة مولانا السلطان لا ادري كيف كانت حالة الدولة بعد الاعوجاج الذي ظهر من البواب

والانقسامات التي آلت الى زيادة طمع الدول .. ان الشعب الشرقي على العموم والعماني  
على الخصوص لا يصلح للحكم الدستوري . »  
فاستأنس رامز بذلك الكلام وقال « انا لانكر عليك ان الحكم الاستبدادي  
اذا تولاه رجل عاقل عادل كان اسرع نتيجة في الاصلاح ولكن . »  
وسكت مكتفياً بظننه السامع

## الفصل الخامس والاربعون

### الحوارج

فبادره عزت قائلاً « اسمح لي ان اقول بجزية نامية ان السلطان عبد الحميد مظلوم  
في احكام الناس انه اشدُّ غيرة على سلامة الدولة من اي واحد منا لان في سلامتها  
سلامته وتأيد سيادته ولم يعدل عن الحكم الدستوري الا غيرة على هذه الدولة التي قد  
احدقت بها مطامع الدول من كل ناحية وهو وحده بدهائه وذكائه وسهره قد حافظ  
عليها واستبقاها . ولولم يتدارك الامر بنفسه لانحلت وتقاسمتها الدول .. انا اعلم الناس  
بالحقيقة . صدقني »

فاطرق رامز عند سماع ذلك وكاد يقتنع انه مخطيء لو لم يستدرك الامر فقال « ياالمعجب  
كيف تقول هذا وايس في الدنيا رجل واحد يوافقك عليه . قد اجمع الناس قاطبة  
من عثمانيين وغيرهم ان الخلل المستحوز على هذه المملكة انما سببه سوء الادارة الحاضرة  
وخصوصاً لانها في قبضة المايين واهله . سامحني على هذا التصريح »

فضحك عزت ملء فيه وقال « هذا هو موضع الخلاف ومنه منشأ المناعب .. وسبب  
ذلك اننا نسيء الظن بسلطاننا والاجانب يسمعون في توسيع الخرق وتفريق قلوبنا .  
تقول ان الدنيا كلها تعترف بان سبب الاختلال من المايين وانا اقول ان سبب هذا  
الاختلال انما هو من الشبان الذين يسمعون انفسهم الاحرار ونحن نسميهم الحوارج .  
هم يذمظنون ويصبحون رجاء ان يعمد جلاله السلطان الى اسكاتهم بالمناصب او المال  
على جاري العادة - لا انكر عليك ان بينهم اناساً يعملون باخلاص ولعلك واحد من  
اولئك المخلصين ولكن الباعث الاصيل انما هو طلب الرزق ... قد مضى عليهم ثلاثون  
سنة ظهوروا في انائها بمظاهر مختلفة انتهت دائماً بما يشبه قولي . يظهر انك حديث  
المعهد في هذا الامر وقد اندفعت بتيار الافكار الافرنجية التي بثها الاعداء في رعايا

الدولة باسم الدستور او الحرية وقد فاتهم ان لسلك امة حالاً غير حال الامم الاخرى . لو تركونا وشأننا لسكننا في خير — ليس هم اكثر غيرة على دولتنا من جلالة البادشاه انه ما فتىء بعد ان اخذ على عاتقه اصلاح الدولة وهو ينشئ المدارس العالية لتخريج الشبان المتعلمين ليتولوا مناصب الحكومة . ولكن اولئك المتخرجين اكثر كثيراً من المناصب الموجودة فمن لم ينل منصباً يفضى ويتخذ الطعن في الحكومة ذريعة الاسترضاء بالمال . لان جلالة السلطان كان يقطع السنة الطاعنين احياناً بالاغضاء ويقبل الناديين منهم ويحسن معاملتهم فتكثر الشاكون وتفنونوا في الاسباب والذرائع وقلدوا الافرنج في جمعياتهم السرية . فالجمعية التي تشكلت الان في سلانيك ليست الاولى من نوعها واؤكد لك انه لا تمضي برهة وجيزة حتى يأتينا العقلاء من اعضائها ويرجعوا الى رضى الذات الشاهانية .. فارى ان تكون انت اعقلهم وانا اضمن لك حياتك وكل ما تريده وغاية ما يطلب منك ان تحبر جلالة السلطان عن اسماء الاشخاص القائمين بهذا العمل اعني المؤامرين اصحاب هذه المفاسد وهم قايلون ... هذه نصيحتي لك »

وكان رامز يسمع هذا الكلام وهو مطرق يفكر فظنه عزت باشا قد اقتنع ولا يابث ان يوافقه فقال له « من هم هؤلاء المؤسسون ؟ اظنهم بعض المتفرنجين الذين كانوا في باريس او جنيف »

فانتبه رامز لنفسه وقال « ليس في هذه الجمعية فرق بين مؤسس وغير مؤسس واؤكد لك ان الخيانات التي بدت من بعض الاحرار في الماضي لم تعد تتكرر لان الامم تعلمت كيف تطلب حقوقها فاذا كنت من محبي الاصلاح حقيقة هذا هو وقت العمل » فهز عزت رأسه استخفافاً وقال وهو يضحك « يظهر ان الغرور متمكن من نفسك وقد استهواك ما يعظنون به من الالفاظ الضخمة كالحرية والدستور ونحوهما .. واتأسف لان نصيحتي ذهبت عبثاً . فاختر لنفسك ما يحلو وقد فعلت ما علي — وسوف تعترف بالواقع مكرهاً عند ما تذوق العذاب .. » قال ذلك وتحرك من مجلسه وهو يستخرج علبة السيكارة . ثم وقف وهو يظهر العتب او الغضب

امام رامز فظل جالساً وهو مطرق ينظر الى نقش جميل على غطاء المنضدة التي امامه وقد استغرق في افكاره . فرغ عزت من كلامه ورامز لا يزال ساكناً مفكراً فتوسم عزت قرب انصياغه فتشاغل باشغال السيكارة ثم رأى الخادم داخلاً بالقهوة فقعد واثار الى رامز ان يتناول الفنجان ففعل وتناول عزت فنجاناً وهو يراقب حركات ذلك الشاب فرأى الارتباك ظاهراً في عيانه وقد اخذه السكوت فاستأنف

الكلام قائلاً « قد اغضيت عما سمعته من حديثك لاني احسبك قلته قبل اعمال  
الفكرة .. وانصح لك يا بني ان تفكر قبل الجواب نانية تأمل بنا يهددك من الخطر على  
حياتك اذا اصررت على التكنم ، وسكت وهو يلاحظ حركات رامز فرأى حيرته  
ظاهرة في حركة يده وهو يدني الفنجان من فيه وينظر الى ما بين يديه فظفر المفكر  
فتقدم له سيكارة وقال « لا الومك على ما بدا من سوء ظنك بجلالة السلطان وسائر  
اهل المابين لانك لا تسمع اخبارهم الا من اعدائهم ولو مكثت هنا حيناً وتعرفت  
اليهم لتحققت انكم مخطئون . ولعلك تعود الى رشكك وتصدق الخدمة وترى  
صدق قولي »

وكان رامز قد فرغ من شرب القهوة فوضع الفنجان على المنضدة ونظر الى عزت  
وعينه تبرقان وقال « اذا لم يكن بد من ان اقول شيئاً آخر فاني لا اقله الا  
للسلطان نفسه »

فبش له وقال « انت بخير في ذلك وانا اقدمك لجلالته واوصيه بك خيراً . فامض  
الآن الى قصرك حتى استأذن لك في المتول بين يدي جلالته » قال ذلك وقد سرَّ  
لنجاح مهمته

ثم وقف رامز واستأذن بالانصراف فاذن له واثار الى الحراس ان يوصلوه الى  
قصر مالطة وودعه وهو يبش له

فمشى رامز بقدم ثابتة وقد زال ارتباك شآن من يتردد في امر ثم يستقر على رأي  
فوقع بصره وهو مار بباب يلدز الخارجي على مركبة مقفلة دخلت الباب فاحس عند  
وقوع بصره عليها بخفقان قلب شديد لانه لمح فيها امرأة تشبه شيرين . فاقشعر بدنه  
وبعد لحظة غابت المركبة عن بصره فوقف وقد ندي حاله فنبهه احد الحرس بطرف  
البندقية فاتبه ومشى وظن نفسه واهماً في ما رآه واعتقد ان قلقه على شيرين اراه  
طيفها فهاجت اشجانه وما عم ان دخل قصر مالطة حتى عاد الى هواجسه



## الفصل السادس والاربعون

## ابو الحبيبة

قضى بقية ذلك اليوم وهو يفكر في ما يقوله للسلطان وطال انتظاره وهو لا يعلم الوقت الذي سيضربه السلطان لمقابته وتهديب من تلك المقابلة لكنه تجدد وتشجع وما زال يجول في ذلك القصر منفرداً لا يرى احداً ولم تبرح صورة شيرين من ذهنه وقد هاجت اشجانه. ولما انقضى النهار ومالت الشمس الى المغرب تكأنت هواجسه وتراكت فقعد في الشرفة المطلة على البوسفور واستغرق في افكاره وتصور شيرين بين يديه تعانبه او تشكو اليه فتذكر ما شاهده في ذلك الصباح وقال في نفسه « هل يمكن ان تكون شيرين هنا؟ ما الذي يأتي بها وكيف يمكن ان تجيء. انما رايت خيالها او هذه روحها جاءت لتعزيتي . . »

وهو غارق في هذه التأملات جاء الفراش لانارة المصايح كالعادة فلم يلتفت اليه ثم رآه آتياً نحوه الى الشرفة فاستغرب قدومه وتجاهل فانما هو يخاطبه قائلاً « تفضل افندم اذا شئت الى الصالون »

فاجفل ووقف وسار نحو القاعة وقبل وصوله اليها سمع نحنة اضطربت لها جوارحه وكاد الدم يجمد في عروقه لانها تشبه نحنة طهماز واستبعد ان يكون هناك لكنه تمنى ان يكون هو نفسه لعله يستطلع منه خبر شيرين. ولما وصل الى الصالون رأى طهماز يمشى بقرب بابها وعليه ثوب مزركش بالقصب يابس اصحاب الرتبة الثانية وقد تقاعس وتطاول واصلح من شأنه وقتل شاربيه حتى كاد يتغير على رامز لكنه ما لبث ان تعرفه فبغت واستانس برؤيته لانه والد الحبيبة رغم ما كان من ثقل روحه عليه فتقدم نحوه وحياه

فرد النحية وهو يتسم ابسام الاعجاب ومشى معه الى صدر القاعة ودعاه الى الجلوس وجلس وهو يقول « هكذا فعات بنفسك يا رامز؟ الم يكن الأولي بك ان تسمع نصيحتي »

فاستثقل رامز ذلك العتاب وان لم يستغربه من طهماز فاجابه « ما لنا وما مضى يا صماه . . اين هي شيرين الآن؟ »

فقال « شيرين؟ شيرين المجنونة؟ من يعلم اين هي؟ »

فقال « كيف لا تعرفون اين هي ؟ »

قال « الذي نعرفه انها فرّت من سالنيك مع الخادم خوفاً من الوقوع بما وقعت به انت فذهبت الى مناستير او الى رسة لان لها هناك بعض الرفاق من امثالها واثالثك اهل الطيش الذين يقدون النصارى بافكارهم وسوف ينالهم ما نالك » قال ذلك وهو يغفل شاربيه واخذ في اصلاح القصب على كفه وطوقه كأنه يستلقت نظر رازم الى الرتبة التي نالها

فاعمل رازم فكرته في ما سمعه وانغضى عما تخال الحديث من سوء التعبير وفساد الذوق لان الامر المهم عنده ان يعرف اين هي شيرين فغلب على ذهنه صحة ذلك القول لعلمه بالصدقة المتمكنة بينها وبين صديقة لها في مناستير وهي خطيبة صديقه يبازي بك لكنه لم يفهم السبب الذي اوجب فرارها فتجدد واعاد السؤال على طهاز قائلاً « لا فغضب يا عماء اذا سألتك سؤالاً ثانياً . ما هو السبب في فرار شيرين ؟ »

فضحك ثم قطع السعال ضحكة وقال « سبب فرارها انت . . . الا تعلم انك اوقعتنا جميعاً تحت غضب الذات الشاهانية ولولا صديقنا صائب بك لكننا تحت طائلة القصاص مثلك . ولكنه » بلغ صدق عبوديتنا الى مولانا السلطان فكافأنا بالتلطيف والرتب . اما تلك الجاهلة الحمقاء فابت الا العناد وقد وقفوا على اوراق لها بين اوراقك تشترك فيها معك ومع اصحابك في المفاسد وقد علمت هي بذلك فبدلاً من الاعتذار اصرت على عنادها وخافت القبض عليها ففرّت »

فقال « واين والدتها ؟ »

قال « سارت للتفتيش عنها في مناستير . وهي لا تقل طيشاً عنها - مع اني كثيراً ما اندرتها بهذه العاقبة منذ رايت قيامك على جلالة الخليفة امير المؤمنين - وانا لولا سابق علاقتي بالمرحوم والدك لم التفت اليك ولكن قاضي طيب وقد وصلت الى بلدتي في هذا الصباح ولقيت كل اكرام واحتفاء من سعادة الباشكاتب والسرخفية وسائر الباشوات والياوران وانعم علي بالرتبة وعلمت منهم انك في هذا القصر فاستأذنت في مقابلاتك لعلي استطيع اقناعك اترجع عن عنادك . وقد اكد لي صائب بك انك اذا بحث باسماء مؤسسي هذه الجمعية يعني عنك وتنال الجوائز والهدايا ويعني ايضاً عن شيرين - فاسمع مني واقنع عن غيبك - وقد نصحتك هذه النصيحة مراراً ولم تستصح ووقعت في شر اعمالك فاسمع نصيحتي هذه المرة فقط »

وكان الكلام طهاز تأثير شديد على قلب رازم لاسباب كثيرة اهمها انه ذكر فيه

والده وسماه المرحوم وهو لا يعرف مقره ولا يعلم هو حي او ميت - وبكفيه من اسباب القلق ما سمعه عن شيرين وقد اغضى عما تحلل ذلك من الكلام البارد والدعوى الفارغة وراى انه لم يعد يتوقع فائدة من حديث عمه فاحب التخاص منه فقال « انا سامع نصيحتك هذه المرة ولذلك فقد عزمتم ان اقول الحقيقة ولكنني اشترطت ان لا اقولها الا لاسلطان نفسه وانا في انتظار الموعد للمثول بين يديه »  
 فضحك وهز راسه وهو يقول « عفارم عفارم رامز .. » تتقابل جلاله السلطان فلا تخف عنه شيئاً وارجو ان تذكرني بين يديه وتبين لجلالته اني كثيراً ما كنت انصحك هذه النصيحة - عفارم عفارم . ولا شك انك ستنال العفو هكذا اكد لي صائب بك وسنال الرتب والاقوال » قال ذلك ووقف فودعه وخرج وهو يتهدى في مشيته ورامز ينظر اليه ويعجب من كبر جنته وصغر نفسه وقلة عقله

## الفصل السابع والاربعون

### التلغراف

اما السلطان عبد الحميد فبعد خروج عزت من عنده عاد الى التفكير بما يحقد به من الاخطار ولم يكن عنده شك بنجاح عزت في هذه المهمة . وقضى بقية اليوم في مطالعة التقارير وبعد العشاء جالس لمطالعة ما كيا فالي كالعادة . واذا هو بالحاجب قد دخل يستأذن للباشكاتب فعلم ان مجيئه في تلك الساعة لا يكون الا لامر هام فامر بادخاله فقدم له ظرفاً علم من شكله انه تلغراف ففضه عبد الحميد وقرأه فاذا هو من الاستانة وهذا نصه

الى جلاله البادشاه

عندي امور تهم الذات الشاهانية اطلب الاذن بالثول لعرضها على جلالته

(شيرين)

فاعاد عبد الحميد قراءة التلغراف مراراً ثم نظر الى الباشكاتب قائلاً « ان هذا الاسم اسم امرأة . هل تعرفها؟ »  
 قال « خير افندم »

فقال « الي بالسرخفية وامض انت وأجب على هذا التلغراف ان تأني حالاً »

فاشار مطيعاً وخرج وبعد قليل اتى السرخفية فدفع السلطان التعريف اليه  
فخلما قرأه ابتسم وقال « ان مجيء هذه الفتاة فوز عظيم يا مولاي »

قال « ومن هي ؟ »

قال « هي خطيبة الشاب رامز الذي قبض عليه في سالنيك وهو يعشقها  
ويستهلك في مرضاتها »

فانبسطت اسرة عبد الحميد وهز رأسه ولسان حاله يقول « قد ظفرتنا بالمطلوب  
ولعل الفتاة خافت على خطيبها اذا ظل على عناده لئلا يفشل فاتتنا لتبيح بالسر  
وتنجيه » ونظر الى السرخفية وقد استخفه الظفر وقال « ماذا ترى ؟ »

قال « الراي لمولاي وانظنها ستطعننا على ما ينكره رامز طمعاً في منجاةه واذا لم  
تفعل فان والدها عندنا وهو من اصدق عبيد جلالة السلطان وقد نال المكافأه بالرتبة  
بالامس على يد عبدكم صائب »

قال « هي بنت طهماز بك ؟ »

قال « نعم يا مولاي »

فخدق السلطان في ما بين يديه من الاوراق وقال ينبغي كتمان امير هذه الفتاة  
عن كل انسان حتى عن خطيبها وابيها ثم وقف على التلفون وطلب الباشكاتب فاجابه  
فقال « ينبغي ان يكون مجيء تلك الفتاة سراً ادخلها القصر وسلمها الى نادر آغا واوصه  
بكتمان امرها عن كل احد .. فهمت ؟ »

فاجاب « نعم افندم » ثم انصرف السرخفية

وبات السلطان تلك الليلة وافكاره تتقاذفه والامل ملء صدره ان عزت سيفوز  
في كشف امر الجمعية

وجاءه الباشكاتب في الصباح ان شيرين امت وسلمها الى نادر آغا فبعث الى نادر  
آغا واوصاه بكتمان امرها ثم جاء عزت واخبره بما قاله رامز من انه لا يبيح بسره الا  
لجلالة السلطان فازداد السلطان اقتناعاً بالفوز وقال « ليأتني في صباح الغد » وعين  
الساعة



## الفصل الثامن والاربعون

## المقابلة

وكان رامز قد بات تلك الليلة تنقذفه الافكار واكثر تفكيره في شيرين وقد غلب في اعتقاده انها فرت الى مناستير وكذب نظره وتصوراته انما راى شخصاً يشبهها. وفي الصباح جاءه ضابط الباني يدعوه الى المايين الصغير لمقابلة السلطان فلما تحقق الامر تهيب ولكنه تجلد ومشى بين يدي الخفر حتى اتى باب المايين فتناوله احد الياوران الوقوف هناك ودخل به الى غرفة وفتش اثوابه حتى يتحقق خلوه من الاسلحة ثم استأذن له فدخل رأساً بدون واسطة صاحب التشريفات هكذا امر السلطان ومشى متأدباً حتى وقف بباب القاعة التي يقرأ السلطان بها التقارير والتي التحية على جاري العادة ووقف فاشار اليه السلطان ان يتقدم واوماً الى كرسي وامره بالعود . ففقد وهو لم يتعود الاداب المنبعة في مثل تلك المقابلات ولم يهتم السلطان بذلك لانصراف فكره الى استطلاع سر تلك الجمعية فصبر هنيهة ثم قال « انبأنا كاتبنا عزت باشا انك اهتمت الصواب ورجعت الى صادق العبودية وقد سرنا ذلك ولم نر بأساً من مثولك بين يدينا فاتنا ينشرح صدرنا بمشاهدة خدمة الدولة الصادقين وستحقق ذلك متى برهنت على اخلاصك امرشنا »

فاشار رامز بالتعني ولم يجب ولكنه غلب عليه التأثر ولو كنت الى جانبه لسمعت دقات قلبه لفرط ما خامره من التهيب لاقدامه على امر لم يقدم عليه سواه . ولكنه تجلد وتماسك وبلغ ريقه استعداداً للجواب فبادره عبد الحميد قائلاً « تكلم يا بني .. اخبرنا عن اولئك المنسدين الذين اغروك على الدخول في تلك الجمعية وهم يظهرون انهم يريدون الاصلاح وانما يطلبون الخراب ويقفون عثرة في طريق العمل ويفررون بالشبان العقلاء فيصرفونهم عن خدمة الدولة الى اعمال صيبانية . . قل من هم »

فجهد رامز وهو يخاف ان يخونه نطقه ولكي يزداد جرأة تصور شيرين واقفة تسمعه فاحس برباطة جأش لم يعهد لها في نفسه من قبل فقال « هل اقول وانا آمن ؟ » قال « قل لا تخف »

قال « ربما قلت اموراً لا يتوقعها جلالة السلطان من مثلي وانا اعلم اني اعرض حياتي للخطر وانما يحتمني على التصريح بها غيرتي على هذه الدولة » فابتدعه قائلاً « قل ما تريد .. لا تخف »

قال « انا لاسمي اعضاء تلك الجمعية مفسدين ولا اعتقد انهم يسعون في خراب هذه الدولة بل انا اعتقد ان المفسدين هم الذين ينقلون الاخبار الى جلالة السلطان . اعني طائفة الجواسيس الذين يرتزقون بالدسائس والوشايات . هؤلاء يا سيدي هم المفسدون . . . »

فبغت السلطان عند سماعه هذا التصريح ولم يسمع مثله من احد جهاراً قبل تلك الساعة لكنه على عادته تجلبد واظهر الاستحسان وقال « يجبني اصحاب الافكار الحرة . لو كان رعاباي كلهم في مثل هذه الخلة لنجت الدولة من المشاكل ... قل ماتراه » فلما آانس رازم هذا النادف من السلطان ذهب تهيبه واعتقد انه فائز بما هو عازم على الاخذ به فابرت اسرته وخطر له في تلك اللحظة ان الاحرار يظلمون عبد الحميد بما يشيرون عنه من حب الاثرة والظلم لما ظهر له من ابن جانبه وقرب انصياعه الى الحق فقال « اخشى يا مولاي اني تجاوزت حدودي في الجرأة على جلالة الباشاه ولكنني اقول ما يوحيه ضميري ... يظهر لي يا سيدي ان سبب الخلاف بين جلالتيكم ورعاياكم انما هو سوء النفاهم بما يدسه المفسدون من الوسوس طمعاً في الدنيا . ولو علم الشبان الاحرار ما عليه سلطانهم من لين الجانب والرغبة في الحقيقة لما جعلوا بينهم وبينه واسطة فيحسن النفاهم وينهب ما في النفوس وهم عند ذلك عبيد طائعون لان غرضهم خدمة الدولة و . . »

فقطع السلطان كلامه وهو يظهر الاهتمام بما يسمعه وقال « وانا طبعاً لا غرض لي غير مصلحة رعاباي ورفاههم ولكنني عاتب على الذين يسيئون الظن بي منهم وينحازون الى الاجانب .. واذا كان لهم شكاية وجب أن يرفعوها اليّ لاني لا اعد نفسي سلطاناً عليهم بل انا كالوالد لهم »

فدمش رازم لهذا التعطف وظن نفسه في حلم ولا بدّ انه خطر له سوء الظن بما يقوله السلطان لانه كان يسمع عن مكره ودهائه ويعلم ان الاحرار لم يقصروا في رفع تظلماتهم اليه بالتقارير ونحوها

لكن تلك المقابلة اثرت في اعتقاده وغلبت على رايه وخطأ من يتهم السلطان بالكر او الرياء وظن التقارير التي كان يرفعها الاحرار لم تكن تصل اليه — تلك كانت مزية عبداً الحميد التي كان يغلب بها اعداءه فان احدهم مهما يكن من سوء ظنه به لا يابث اذا جالس وخطبه ان يخرج من عنده مقتنعاً راضياً حتى كبار رجال السياسة من الاجانب . وقد اعترف له كثيرون منهم بهذه القوة

ولم يكن رامز من اهل الدهاء والخنكة وانما يغلب في طباعه حرية الضمير واستقلال الفكر لا يعرف الكذب ولا يدرك الرياء والنفاق الا بالسمع . فهو لذلك سريع التصديق لما يسمعه فيه تقدمه على ظواهره . فلما سمع كلام السلطان تأكد انه صادق في ما يقول وحمد الله على وقوعه في تلك الورطة ليكون وسيلة لحسن التفاهم بين السلطان والاحرار فقال « اني اعدت نفسي سعيداً لثولي بين يدي جلاله السلطان وارجو ان اكون واسطة لحسن التفاهم . وقد انتقد جلالته تقاعد رعاياه الاحرار عن رفع شكواهم اليه راساً ولكنني على ثقة انهم فعلوا ذلك مراراً فرفعوا التقارير المطولة عن المملكة العثمانية وما تحتاج اليه من الاصلاح .. ولم يلجأ بعضهم الى الاجاب الا ياساً من وصول اصواتهم الى مولاهم .. »

فهز عبد الحميد راسه هزاً لانكار وهو يظهر الاستغراب وقال « ابن هذه التقارير؟ الى من رفعوها؟ »

قال « رفعوها الى المايين ياسيدي .. »

فاظهر الغضب وهو يقول « اني محاط بلصوص منافقين يهمهم توسيع الخرق ليستفيدوا من النزاع .. قد فهمت الان .. » ثم نهض ونظر الى رامز نظراً الاستئناس وقال له بصوت منخفض « اكنتم مادار بيننا وانا ساكته وساعيدك الى سجنك كالعادة واوصي الحراس ان يحتفظوا بك فلاتهم لذلك »

فنهض رامز واكب على يد السلطان يقبلها من الفرحة والاعجاب واستأذن في الانصراف . فامر الحاجب ان ينقله الى سجنه . فخرج رامز ومشى بين الحراس حتى اعيد الى قصر مالطة وقلبه يطفح سرورا وقد امتلأ صدره املاً على انه كان يحسب نفسه في حل

## الفصل التاسع والاربعون

### الخلوة

لما خلا عبد الحميد بنفسه مشى في الدهليز المؤدي الى غرفة الرقاد فوقع نظره على الصورة التي مثلوا له بها مدحت ورجاله فوقف عندها وهو يمدق فيها بعين الغدر كأنه يرى مدحت بين يديه ويهم ان يصفعه ثم حرق اسنانه وزجر كالشبل الجريح وهز

راسه وهو يتحول عن الصورة وقال « ويل لكم من اشرار اغرار.. تصدقون ان عبد  
عبد الحميد يصبر على وقاحتكم باسم الحرية؟ . ابمثل هذه الجسارة يخاطب عبد الحميد  
سلطان البرين وخاقان البحرين؟ حتى هؤلاء الغلمان يزعمون انهم ينصحون لي؟ ان  
رجلاً يخاطبني بهذه الوقاحة لا ينبغي ان يبقى حياً . . » قال ذلك ومشى الى عتبة  
السيكار فاشعل سيكاراً ونفخ دخانه نفخة ملات الغرفة . ونهد وهو يقعد على كرسي  
طاو بل هناك ثم استلقى عليه وهو يقول « ولكن ما الحيلة في كشف سر هذه الجمعية ومعرفة  
اعضائها العاملين . اني اذا ظفرت بهم ذهب خوفاً . . ان اولئك الاغرار يطالبون  
الدستور... قد طلبه قبلكم رجال ذوو لحي وحنكة ودهاء وذهبوا قتلاً ونفياً واغراقاً...  
وسأفعل بكم كذلك؟ . لا بد ان اطلع على اسراركم ان لم يكن بالحيلة فبالسيف او بالمال  
او بكل وسيلة . لا ينبغي ان اعول في ذلك على اولئك الاعوان الملاعين — سأبحث  
عنه بنفسى .. ان هذا الشاب عنده سر الجمعية فكيف استخرجه منه؟ »

ونفض عن الكرسي وهو يحك عننونه ليستحث ذاكرته وينبه قريحته ثم وقف  
بغته واشرق وجهه كأنه فتح عليه او هبط عليه الاطام بالصواب فقال « شيرين! . هذه  
الفتاة التي حملها حبها رامزاً على القدم الينا لا بد انها فعلت ذلك وفي خاطرها ان تفتدي  
حبيبها بكل شيء . ومن اهون الامور عليها ان تشتريه بكشف سر الجمعية وهي بلا  
شك عالمة باعضائها » ولما خطر له ذلك صفق قائاه الحاجب فطلب اليه ان يستقدم  
نادر آغا وما عثم ان كان ذلك الخصي بين يديه وقد وقف منتصباً ولولا الستامبولينا  
الطويلة التي ترمل بها لبانت ساقاه الطويلتان مثل سائر الخصيان . كأن الخصي يطيل  
الساقين — وقف نادر آغا وهو يتحفز للعمل بامر مولاه فقال عبد الحميد « ابن ضيفتك  
الجديدة؟ »

قال « هي في حرز حرز »

قال « هل خاطبتها وعرفت شيئاً من خبرها؟ »

قال « لو امرني مولاي لفاعت ولكنني لا اجسر على ذلك بدون امره »

فضحك وقال « بورك فيك عفارم .. اليها »

فمضى نادر آغا ودخل عبد الحميد الغرفة المؤدية الى دار الحریم واخذ في اصلاح  
شأنه امام المرأة . وكان شديد الرغبة في المحافظة على نضارة الشباب حتى كثيراً ما كان  
يتخذ الحيل ويتبرج النساء لهذه الغاية فضلاً عن الخضاب . ثم جعل يخطر في الغرفة  
وهو مطرق يفكر حتى اتى نادر آغا ينبئه بقدم الفتاة فامر بادخالها فدخلت وقد زادها

التهيب رونقاً وركبتها تصطكان من الخوف لأنها بعثت ذلك التلغراف ودخلت المابين وهي كالضائعة ولم تقدر عواقب جسامتها وإنما فعات ذلك مدفوعة بالخوف على رامز ورات صائب بك يهددها بالوشاية بها فسبقته الى القدم وفي نفسها نحو ما في نفس حبيبها من جهة السلطان واعوانه . اذ لم يكن يدور في خلدتها ان من يقبض على انفس العباد ويتولى الخلافة يرتكب ذلك الشطط في سياسته الا وهو يجهل حقيقة حال مملكته . وانه لو عرف الحقيقة لرجع الى الصواب . على انها كانت تتصور ذلك الامر اهون مما هو . ولم تك تدخل يلدز وترى قصورها وحدائقها وميادينها وما اثبت في اطرافها من الحراس والاعوان حتى تهيبت وادركت خطأها . وكانت تتوقع ان تستطلع حال رامز ساعة وصولها فتطمئن عنه او تشجعه فاذا هي لاتكلم الا صماً بكماً لا يجاوبها احد على سؤال . تخيل لها بعد ما راته من تجاهل الناس امر رامز انه لم يأت يلدز وتصورت ان ناظم بك دس له من قتله في الطريق وتدمت على مجيئها

## الفصل الخمسون

شيرين وعبد الحميد

فلما دعيت لمقابلة السلطان تجلست جهدها وداخلت وعلها اليشمك يغطي رأسها ومعظم وجهها وكان عبد الحميد عند دخولها يخاطر في تلك الغرفة يظهر عدم الاكتراث . فلقت التحية ووقفت فاثار عبد الحميد الى نادر آغا ان ينصرف واوماً اليها ان تقعد . فظلت واقفة وهي تسترق النظر الى وجهه فرأت الشرر يكاد يتطاير من عينيه . ثم راته يقعد على كرسي وهو يومئ اليها ان تقعد على كرسي بين يديه . فقعدت وقد امتنع لونها وادرك هو ما بها فابتسم لها وقال « انت شيرين ؟ »

قالت « نعم يا سيدي »

قال « يظهر لي انك من اهل الذكاء والاخلاص . فمساك ان تكوني قد حملت الينا خبراً يهمننا كما قلت »

فارتبكت ولكنها تماسكت وتجلست وتصورت انها تطلب نجاة رامز حبيب قلبها فقالت « نعم يا مولاي اني لم اقدم على هذه الجسارة الا عن اخلاص وصدق نية »  
فقال « قولي واصدقيني واعلمي انك في حضرة امير المؤمنين »

فاشارت اشارة الاحترام وفانته ، ان ذلك شرف لي ، وسكنت وهي تود قبل الكلام ان تعرف اذا كان رامز هناك وماذا جرى له . وادرك عبد الحميد ما يجوز في خاطرها فاراد ان يجعل رامزاً وسيلة لاقرارها فقال « قد علمت السبب الذي حملك على الحجى ، الينا وتكبدت هذه المشقة من اجله ويظهر انك خائفة . فلا تخافي اذا كنت تتوبين الاخلاص في قولك والافانك ... » وسكت

فتوسمت في كلامه شيئاً مما خطر لها فقالت « اقسام لمولاي اني لا اقول غير ما يدعوني اليه الاخلاص و .. »

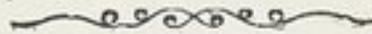
فقطع كلامها قائلاً « وقبل ان تقولي شيئاً اعلمي انك تكلمين عنك وعن رجل اخر يهتك امره هو تحت خطر القتل الان »

فلما سمعت لفظ القتل اجفلت وقالت « من يعني مولاي ؟ هل رامز هنا ؟ » قال « هو هنا في حوزتنا وقد خاطبناه وسائناه سؤالاً جعلنا حياته رهناً على صدقه في الجواب فاجاب عن البعض واعتذر انه لا يستطيع التصريح بكل شيء لانه اقسام الايمان المغلظة على الكتمان فلم يبق سبيل الى نجاةه فهو مقتول حتماً . الا اذا انقذته بصدقك » قال ذلك وهو يراقب حركاتها خلسة فراها قد ارتبكت في امرها وامتنع لونها وقالت « وما الذي يطلبه مولاي مني ؟ »

قال « اني اطلب شيئاً سهل عليك كثيراً ولا ريب عندي ان رامزاً لولا ثقيدته بالقسم لذكره بعد ان تحقق انه مخدوع وربما رجع الى صوابه في الغد . اما انت فلا يربطك قسم فانتقذه وانتقذي نفسك ولا اكلفك شيئاً غير التصريح لي باسماء مؤسسي الجمعية التي تسمونها جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك وبذلك تفجين نفسك ونفس رامز ونفس كثيرين وقعت عليهم الشبهة وقد يكونون ابرياء ولا نحب ان نأخذ البريء بجريرة المجرم » فاستغربت ان يكون رامز قد تساهل في امر الجمعية ولم يبد الثبات الذي تعهده فيه لنصرة الحق . اكنها ما لبثت ان عادت الى صوابها وتذكرت ما يقال عن دهاء عبد الحميد وتفردت في عينيه فادركت بشعورها النسائي ان ذلك الطاغية يخادعها وان رامزاً لا يمكن ان يبيع بشيء فقالت « اني يا سيدي قد طلبت المثول بين يدي جلالة البادشاه لانتلوا عليه اشياء تتعلق بالدولة ربما لم تبلغ اليه بعد ولو علم حقيقتها لوقع قصاصه على غير تلك الجمعية » فرأى عبد الحميد ان تعريضه برامز لم يغير عزمه فاراد ان يسايرها فقال « ماذا تعنين ؟ » قالت « اعني يا مولاي ان الذات الشاهانية لا تصلها اخبار الدولة الا على ايدي اناس يتكسبون بالكذب والرياء فيزينون لجلالة السلطان غير الواقع اتماماً لرضاه وبكثرون

الحقيقة وهم يعاونون ويقفون سدّاً بينه وبين رعاياه الصادقين المخلصين «  
فوجد في نعمتها نعمة حبيبها رامز فرأى ان يخادعها فقال « قولي ما في خاطرك اني  
احب الاطلاع على الحقيقة »

قالت « ان حالة الدولة في اضطراب شديد... ليست الجمعية التي تشكلت في سلانيك  
بما يستخف به واعضاؤها اخلص الرعايا لجلالة السلطان . فلو اتخذهم جلالته خدمة واستخلصهم  
لاتخذ الدولة من مهاوي الانحطاط ومن مخالب الاجانب . . . ان مطاردة جمعية الاتحاد  
والتبرقي لا تفيد شيئاً لان الامة كلها نائمة على الحالة الحاضرة لما تمكن من الفساد في جسم  
الدولة بما يراه الناس من استئثار رجال الما بين بالاموال لا يهتمهم خربت البلاد او عمرت وقد  
ادرك هؤلاء هذه الحقيقة فاصبح همهم منصرفاً الى جمع الاموال لانفسهم واستهلكوا في  
اقتناء العقار وخبأ العارفون منهم ثروتهم في مصارف اوربا واميركا وطلبوا اعلى الرتب  
والمناصب فنالوها . واستفادوا من الحالة الحاضرة بقدر ما امكنهم . ولم يفكر الواحد منهم  
الا بنفسه واولاده ثم بالاقرب فالاقرب من عائلته . وامتاتوا في الوصول للسعادة وتقوؤ  
الكلامة بالتقرب من جلالتهم واستخوذوا على مناصب الدولة ورتبها ونياشينها والقابها حتى  
وجهت رتبة امراء العسكرية ورتبة بالا العميلة الى المشايخ ذوي التيجان والعمائم وقد جرت  
معافاتهم من الخدمة العسكرية ومعافاة من اتسب اليهم . وسقط اعتبار الدولة في عيون  
الاجانب واصبح العثمانيون انفسهم المقيمون في البلاد الاجنبية يستنكفون من الاتساب  
الى الدولة العثمانية واصبحوا لا يرون علاجاً لهذه الحالة الا الرجوع الى الحكم الدستوري  
لا كحساب ثقة الدول بعد ان كانت نتيجة الحكم الاستبدادي خروج كثير من الايالات  
العثمانية الى سلطنة الاجانب او الاستقلال كما حدث في الفلانيخ والبغدان والروملي  
الشرقية والبيوسنة والمرسك والجيل الاسود والسرب وقبرص وتونس وتاليا ومصر  
والسودان وغيرها وعدد سكان هذه البلاد يزيدون على ثلاثين مليوناً كلها خرجت  
من سيادة الدولة العثمانية بسوء سياسة اولئك المقربين . ولا ريب عندي ان جلالة  
السلطان مخدوع بما ينقله اليه المتملقون الذين لا يهتمهم الامصالحهم الشخصية وقد اصبحت  
أكثر اموال الدولة تنفق فيهم وسائر اهل المملكة في جوع حتى الجند . . . »



## الفصل الحادي والخمسون

### القادين ج

وكانت شيرين تتكلم والاهتمام بادٍ في عينها وكان صوتها في بادىء الامر يرتجف وينقطع ثم انطلق لسانها وفاضت قريحتها ولم تتم كلامها حتى كمل العرق جبينها والسلطان مطرق يسمع ما تقوله ويعجب من جسارتها ويكاد يتميز غيظاً من اقوالها . وحدثته نفسه ان يذهب بجياتها في تلك اللحظة بطلق ناري من مسدسه لكنه كظم غيظة التماساً للوصول الى غرضه وهو الاطلاع على سر تلك الجمعية فقال وهو يظهر الاعجاب بما سمعه « يسرني ان يكون في مملكتي نساء لمن هذه المعرفة وهذه النيرة . ان امة فيها من امثالك لجديرة بالدستور . وكنت اود ان اعرف زعماء هذه الحركة لباحثهم ونفق على طريقة للنجاة من هذا الخطر . وارك مع ذلك تكلمين عني امما هم وانا الوملك على ذلك لانك لو اخلصت الخدمة لذكرت بعض الذين تظنين فيهم اللياقة لهذا التغيير . ولعلك تفعلين بعد الآن اذا تحققت اني اشد غيرة على هذه الدولة من سواي » قال ذلك واظهر تهامله في استطلاع سر الجمعية لعل ذلك يهون عليها الافرار

اما هي فظلت ساكنة وقد كادت تصدق ما قاله عبد الحميد من رغبته في الاصلاح . على انها فضلت السكوت لان شعورها حملها على سوء الظن بما سمعته وعادت الى امر رازم واحبت ان تحتال في معرفة حقيقة حاله فقالت « اني لا اعرف شيئاً عن اعضاء هذه الجمعية . ولعلي اذا اجتمعت براز ان نتعاون على خدمة جلالة الساطن في هذا الشأن »

فادرك عبد الحميد انها تكذب وانما تحتال للاجتماع به لتعاقد على الانكار لكنه اظهر الاقتناع بقولها وقال « سوف اجمعك به » ووقف ونادى « نادر آغا » فجاء ف اشار اليه ان ياخذها الى محبسها ويعود

فلما عاد قال له عبد الحميد « اخف هذه المرأة عن عيون الناس كافة واحذر ان تعرف بمكان خطيبها او يعلم هو انها هنا »

فاشار مطيعاً وهم بالخروج فناداه وقال « ماذا جرى بالقادين ج ؟ »

قال « قرب موعد قتلها وهو الليلة »

قال « اجل ذلك وقل لها » اني اشتقت لرؤيتها فلتأت الي بعد القيلولة لتلبسني

شبابي وحدها . . واظنها ستفرح بذلك كثيراً »

فقال « انها ستجنُّ من الفرح طبعاً »  
فضحك عبد الحميد وقال « افعل كما قلت لك »

فاشار مطيعاً وخرج

فعاد عبد الحميد الى مناجاة نفسه قائلاً « لا يقدر على استخراج هذا السرّ منها الا تلك القادين الداهية . . . انها ماهرة بالساليب الحيل وهي تحبني ولكن . . . دعني اكلّفها بهذه الخدمة وسأرى ما يكون »

وذهب عبد الحميد بعد الغداء الى غرفة المنام وبعد القيلولة اتت القادين ج وقد اصاحت من شأنها وكادت تطير من الفرح بهذه الدعوة التي يحسدها عليها سائر القوادين وخصوصاً بعد ان اعملها مده طويلة وهي لا تعرف ذنبها

فلما دخلت عليه حيته بالطريقة المعتادة ووقفت تاتمس اشارته فقال لها وهو يمازحها « اظنك اذا سُغلت انا عنك بمهام السلطنة لا اخطر ببالك »

فقالت بلفظة « العفو يا مولاي اني امتلك وطوع اشارتك وانت مالك الرقاب . . . والقلوب . . . اني اقرب موطأ قدميك واهاتني في . . . » وتنهت وتشاغلت بتقديم الدراعة لتلميذها ليلعب به . . .

« مسافر ظنك انها تشير الى حبهما الشديد له فقال « تزعمين انك تحبينني ؟ » ومد يده ليمسحها في الدارعة . فقالت وهي تدير الدارعة نحو يده « اني اعبدك يا سلطاني . . . يا مولاي اني لا اجد عبارة اعبر بها عن حبي »

فقال « وانا ايضاً احبك كما تعلمين ولكني سُغلت عنك وعن سواك بقيام بعض المملوكين المملعين في سلانيك والفواجعية سرية ويزعمون انهم من الاحرار وانا لا اخافهم بل احب ان اعرف من هم فاذا كرتني ذلك صادق خدمتك في الماضي . . . هل تعلمين الفتاة المكذوبة التي اتنا بالامس ؟ »

قالت « واني لي ذلك وانا في قصري لا اخرج منه ؟ »

فقال « ان هذه الفتاة اسمها شيرين قدمت نفسها لي في الصباح وهي خطيبة احد سواك العلمان . ولا شك انها تعرف اعضاء تلك الجمعية ولكنها تسكتم وانا لم اشأ ان اخطأ لثلاثي مني اهتماماً بامرهم . ولا احب ان اكلف احد الخفية باستنطاقها . . . وانا سعيد فيك الذكاء واللباقة فهل تقدرين على القيام بهذه الخدمة لصاحبك القديم »

فاثر ذلك التعبير في قابها واذكرها ايماً كان يظهر لها فيها تقرباً وقالت وقد ابرقت اسرتها « اني افعل ذلك على الرأس والعين »

وكان قد فرغ من لبس ثيابه فقال « سأمر نادر آغا ان يأخذها اليك لتمسكت  
معك بحجة الاستئناس بك فابذلي جهدي في استطلاع ذلك السر منها باقرب وقت  
بدون ان تشعر .. فهمت ؟ »

سخت رأسها اشارة الطاعة وقالت « اني اغتتم مثل هذه الفرصة لابرهن لسيدي  
وحبيبي اني ما زلت اتفاني في خدمته »

فابتسم لها وقال « لكن احذري ان تعرف شيئاً منك خذي منها ولا تعطها »  
فقال « على الرأس والعين » وخرجت  
ثم نادى عبد الحميد نادر آغا وامره بما يلزم

## الفصل الثاني والخمسون

فيما تلاه تارة ثلاثه ايام في مملكة ثلثة ايام في مملكة ثلثة ايام في مملكة ثلثة ايام  
ما يلقب بثلثة ايام تملتهم « .. ربح جميع الاموال ثلثه سنة له ربحه ربحاً .. بربها  
اما رامت فانه لما خلا بنفسه في قصر مالطة عاد الى التأمل في ما من به عليك لليوم  
وما سمعه من عبد الحميد وقد مال الى الاعتقاد بان الناس يظلمون هذا العظماء بسوء  
ظنهم فيه وانه انما يرتكب ما يرتكبه باغراء اهل المايين - وقد رأيت انه يكرههم ويقتله  
ماينهم بالمداجاة والخداع خوفاً على حياته وتمسكاً بسلطانه . قضى رامت بثلثة ايام  
وهو يتنقل في ذلك القصر من الشرفة الى النافذة الى الصالة الى المائدة وافكاره باهية  
في ما عساه ان يتم على يده من الخير للدولة وللامة وتوهم ان اهل القصر صلالان لكيلا  
ايناساً له واحتماء به . وكثر تفكيره في شيرين وود لو انه يستطيع تبليغها تلك البسولة  
لثلا يقتلها اليأس من بقاءه . وتذكر والده وكان قد كثر ترداد صورته الى ذلته منذ  
دخوله يلدز لاعتقاده انه ضاع هناك وان لم يقطع الامل من بقاءه  
وبعد العشاء ذهب رامت الى فراشه وقد طار النوم من عينيه لفرط تأثره من تحديث  
ذلك اليوم . وهو يتقرب على الفراش وقد اطمئت المصابيح سمع وقع خطوات بياب الخريف  
عقبها نقرات خفيفة . فجلس على الفراش ونظر نحو الباب وتمصت فراى نوراً يتخلل شقوق  
فعلم ان شخصاً قادماً اليه بالمصباح فوثب الى الباب ففتحه فوجد خادم القصر وبينهم  
قديبل فسأله عما يريد فقال « ان رسولا جاء لاستدعائه »  
فقال « الى اين ؟ »

قال « الى خارج القصر.. لا ادري الى اين »

قال « من هو ؟ »

قال « احد حجاب البادشاه لعله يطلب ذهابك الى جلالته »

فتوسم بتلك الدعوة خيراً لما سبق الى اعتقاده من حسن الظن فاسرع الى ثيابه فلبسها واصاح من شأنه وخرج فوجد حرسياً في انتظاره فاوماً اليه ان يتبعه . فمشى في اثره بين الاشجار وقد خيم الظلام واوت الحشرات والهوام وهذات الطبيعة فلم يسمع في ذلك المسكن غير وقع خطواتهما حتى وصلا الى الشارع المحيط بسور الحديقة الداخلية وفيه بعض الانوار . واتصلا منه الى باحة يلدز المؤدية الى المايين الصغير فتصوّر رامز ان الحرسي ذاهب به الى ذلك المايين فالتبث ان رآه عرج في طريق الى اليسار بين الاشجار حتى وصل الى باب قصر نعيم فاستخرج الحرسي مفتاحاً من جيبه فتح به الباب ودخل واثار الى رامز ان يتبعه فتبعه الى فسحة يتصل منها الى دهليز في اليسار يؤدي الى غرف يستطرق بعضها الى بعض وقد انير الدهليز بالنور فبانت جدران تلك الغرف فاذا هي تختلف عن سائر ما شاهده في المايين وفي قصر مالطة . لان الجدران في هذا القصر مبطنه بالانسجة الحريرية ( الاطلس ) الملونة بالالوان الزاهية وعليها إطارات كبيرة لم يقدر ان يتبينها عن بعد . فلما صارا في وسط الدار اشار اليه الحرسي انه ذاهب وسيعود اليه ودخل من الباب الايمن المقابل للدهليز واغلقه وراءه .

فانتم رامز تلك الفرصة ودخل تلك الغرف وكلها مفروش بالسجاد الثمين ونقش سجاد كل غرفة يلائم الوان الاطلس المكسوة بها جدرانها ولشكل غرفة نقش خاص بالوان خاصة . وآنس في المكان هدواً يدل على خلوه من السكان فعلم انه من القصور التي انشئت لبعض المقابلات او للاحتفال ببعض القادمين ولم يدرك سبب استقدامه اليه على انه تشاغل بانفراج بما هناك . فوجد في الاطارات المعالقة بالحيطان خرائط متقنة الصنع مثل خريطة البوسفور وخرائط الرومي والاناطول والاستانة والبحر الاسود من صنع كبار المهندسين العثمانيين اكثرها نافر الرسم بارز يمثل حال البلد الطبيعية . فاعجبه ان يكون في رجال الدولة من يستطيع ذلك الرسم الجميل . وتأسف لما حال دون ظهور مواهبهم من المظالم والفساد

وهو يتأمل في ذلك عاد اليه الحرسي وناداه فتبعه فاثار اليه ان يدخل في الباب الايمن الذي خرج هو منه فاطاعه فرأى نفسه في قاعة واسعة لم ير مثلها هناك فيها الرياش الثمين فوق السجاد الجميل وفيها المناضد عليها آنية البذخ كالساعات المذهبة

والتمايل المزخرفة وجدران القاعة مكسوة بالاطلس الاحمر المعرق بالذهب . وفي سقفها  
 نريات كبيرة قد انبرت مصابيحها . وعلى جدرانها اطارات فيها خرائط وصور اهمها  
 خريطة الكعبة تمثلها مع ماجاورها مجسمة في غاية الاتقان . ولحظ الحرسي دهشة رامز  
 بما يراه فقال له « انت في قصر چيت ياسيدي وهو من اخر قصور بلدز تفضل اجلس  
 هنا حتى يرد اليك الخبر ولا تخف » قال ذلك وخرج واقفل باب القاعة وراه بالفتاح  
 فاستغرب رامز ذلك ووقف ليتحقق افعال الباب فوجده قد اقفلا اقفالاً محكما  
 واصبح كانه والحائط قطعة واحدة . ونظر في اطراف القاعة فلم يجد فيها باباً سواه  
 فاقشعر بدنه وتوهم انها احبولة نصبت له ولا يلبث ان يقتل او يصاب بأذى لانه كثيراً  
 ما سمع بغرائب اساليب القتل في بلدز . وقول الحرسي « لا تخف » كانت سبباً في  
 زيادة الخوف

## الفصل الثالث والخمسون

### باب السر

فمشى في القاعة واعاد النظر في ماحوله وتفرد في الجدران لعله يرى باباً آخر فلم  
 يجد شيئاً . ومع تألق القاعة بالانوار احس بالوحشة كانه في ظلام دامس فجعل يتلاهى  
 بالنظر الى الصور والخرائط المعلقة على الجدران حتى ملَّ جلس على مقعد بجانب منضدة  
 عليها بعض الكتب وجعل يتشاغل بتقليبها وعادت اليه ذكرى والده وهل هو في احد  
 تلك القصور حياً او سجيناً او هو ميت

وهو في ذلك سمع قلقة مفتاح فاجفل ونظر الى الباب وتوقع ان يفتح ويدخل  
 الحرسي مخبر جديد تخيره او شره . فطالت القلقة ودلَّ سمعه انها في الحائط المقابل له  
 وليس في الباب الذي دخل منه . فنظر الى الحائط فلم يجد باباً ولا ما يشبهه فكذب  
 سمعه واعاد نظره الى الباب ثم سمع طقة القفل اذا فتح فاصبح يتوقع ان يفتح الباب  
 فرآه باقياً على حاله ولاح له تغيير في ذلك الحائط فالتفت نحوه فاذا قد فتح فيه باب  
 دخل منه شبح ملتف بملاءة بيضاء كانه خارج من القبر . فاقشعر بدنه وقف شعره  
 وخفق قلبه فنهض وقد جمد الدم في عروقه وتوهم ان والده خارج من بين الاموات  
 او عفريت من الجن شق الحائط وخرج منه نحو ما يسمع في اخبار الف ليلة وليلة

ولم تمض لحظة حتى كشف ذلك الشبح الملاءة عن راسه فاذا هو عبد الحميد بلباس النوم وعليه برنس ابيض كالملاءة فدهش رامز واستغرب خروجه من الحائط ولكنه ظل واقفاً مكانه وقد اصطكت ركبتاه

فلما صار عبد الحميد داخل القاعة اغلق الباب واوصده من الداخل فعاد الحائط كما كان وتقدم نحو رامز وعلى راسه عمامة صغيرة تشبه الكاسكيت وقد التف بالبرنس وابتسم تخفيفاً لما تولى رامزاً من الرعدة . فاستأنس رامز به وتقدم نحوه وحياء ويداه ترتعشان فقال عبد الحميد « لا تخف يا بني اني جئتك من هذا الباب السري المستطرق الى المايين لا خاطبك في امر لا اريد ان يشعر به احد من اهل هذه القصور » قال ذلك وهو يقعد على مقعد هناك وأشار الى رامز ان يقعد

فقعد رامز وقد اطمان خاطره واصبح في لطفة للاطلاع على الغرض من تلك الجلسة السرية

واما عبد الحميد فانه لبث هنيهة وهو مطرق لا يتكلم كأنه يفكر في امر هام ورامز ساكت وكله اذان للسمع . ثم فتح عبد الحميد الحديث قائلاً « لا حاجة بي ان اوصيك بكتمان هذه الجلسة عن كل بشر »  
فاشار مطيعاً

فقال عبد الحميد « ان حديثك بالامس عن اهل المايين كان له وقع شديد في نفسي ومازلت من تلك اللحظة وانا افكر فيه فوجدتك مصيباً وتحققت ان هؤلاء الاشرار اصل هذه المتاعب غير اني اصبحت مقيداً بهم لكثرتهم وكثرة اعوانهم ولا ادري كيف اتخلص منهم » وتخنخح وهو يتلفت كأنه يحاذر ان يسمعه احد ورامز مصغ وقابه بحقق تطلعاً لما سيسمعه

فقال عبد الحميد وهو يخفض صوته « فرايت ان استشيرك في الامر سرّاً ولم اثناً ان افعل ذلك في قصري كالعادة لكثرة المراقبين والجواسيس عليّ وعلى كل ناطق حتى الخدم والطواشية حتى النساء والجواري فانهن يتلصصن عليّ لسماح مايقال فاخترت هذا المكان وامرت الحرس ان يأتي بك اليه لتكون سجيناً فيه بدلاً من قصر مالطة . واوصيته ان يغلق الباب عليك وينذهب وهو لا يعلم بوجود هذا الباب السري . فالآن نحن هنا في امان فانصح لي في الطريقة التي تراها »

فاطمأن خاطر رامز واصبح لغرابة ما يسمعه يظن نفسه في حلم ولكنه تأمل بما هو فيه فنحقق انه في بقظة فقال « يا امر سيدي البادشاه بما يريد فاني طوع امره

بكل ما فيه مصلحة الامة والدولة »

فتنهده عبد الحميد وقال « آه كم اسمع هائنين الكامتين (الامة والدولة) ممن يحيط بي من المقلقين فلا يؤثر في قولهم لانهم يخادعونني واخادعهم ويخاف كل منا صاحبه حتى استغرقت في الشطط وارتكبت اموراً ارجو ان يمحوها الله من سجل اعماله اذا انا رجعت الى الصواب » قال ذلك وصوته يخفق كأنه يجيش للبكاء . وراى رامز في عينيه دمعين تتلألأان وهو مطرق كالنادم الآسف . فتأثر من منظره وشاركه في البكاء ولم يبقَ عنده شك في صدق قوله لكنه ظل ساكناً

## الفصل الرابع والخمسون

### المهمة الكبرى

فسمح عبد الحميد عينيه واطهر الاهتمام وقال « احب ان اتخلص من هؤلاء المنافقين المحيطين بي لكنني لا استطيع ذلك قبل ان اتوثق من اولادي الاحرار الذين اغريت على اساءتهم وهم الآن بعيدون عني فاحب ان اباحثهم سرّاً ونفق على طريقة نقضي بها على هؤلاء الاشرار وننظم حكومة جديدة نحوي بها الدولة . كفانا ما مضى .. فما هو السبيل الى ذلك ؟ هل اذا عوّلت على الاحرار يستطيعون الاخذ بناصري والتغلب على هؤلاء ؟ اني اخاف على حياتي منهم اذا اظهرت تغيراً في سياستي »

فاعتدل رامز في مجلسه وقد ابرقت اسرته من الفرح وقال « لاشك ياسيدي انهم يستطيعون . ولا اخفي على جلاله الباد شاه بعد ان رايت حسن ظنه فينا ان الاحرار هذه المرة ظافرون بلا ريب لانهم اجتنبوا الجند الى حزبهم . ولم يبقَ ضابط في سلانيك او في غيرها الا وهو عضو في جمعية الاتحاد والترقي المقدسة فاذا ارادوا عملاً انفذوه بالقوة ولا سيما اذا كانت ارادة الذات الشاهانية معهم »

وكان عبد الحميد يسمع ذلك وقلبه يكاد يميز غيظاً لكنه تجهد على عادته واطهر السرور فانبسطت اسرته وظهر الاستبشار في محياه فاستأنس رامز بمنظره ورقص قلبه طرباً وثبت ينتظر ما يقوله عبد الحميد فاذا هو يقول له « هل انت على ثقة باقتدارهم على ذلك ؟ »

قال « كيف لا وانا من صميم الجمعية ؟ اني واثق بان الجمعية اذا اكدت رضى جلالة السلطان عنها تفديه بالارواح وتقاوم اعداءه اشد المقاومة »

فقال عبد الحميد « وما هي الطريقة للمفاوضة معهم بهذا الشأن وانا سجين في هذه القصور . . لا استطيع الخروج منها ؟ »

قال رامز « اذا شاء مولاي كنتُ سفيراً بينه وبينهم » قال ذلك وهو لا يتوقع ان يوافقه السلطان على الخروج من سجنه فرآه قد اظهر الارتياح السكلي وقال « نعم الرأي هذا . . ولكنني اخاف ان يطالع احدٌ من هؤلاء على قصدنا »

قال « لا خوف من ذلك فان لجمعيةنا طرقاً لتتكم لاسبيل معها الى معرفة شيء . وقد راي جلالة السلطان تكتمنا بالامس وكيف ان احدنا يعرض نفسه للقتل ولا يبيح بسره ولا غرض لنا الا خدمة الامة والدولة »

فاطرق السلطان لحظة وقال « حسناً لسكنتي اودُّ المفاوضة مع زعماء هذه الجمعية بجلسة سرية مثل هذه . ان المخابرة عن بعد لانشفي غليلاً وعندى امور كثيرة احب تبينها والاحتياط لها ولا يتم ذلك بالمخابرة عن بعد وانا لا يتيسر لي الخروج اليهم كما تعلم »

فقال رامز « هم يتشرفون بالمتول بين يدي جلالتم »

فقال « لا اظنهم يفعلون اذ تعوزهم الثقة بالماين . . فان اهله لم يبقوا للامة ذرة من الثقة بي . » وغصَّ بريقه

ولم يكن رامز من اهل الدهاء كما قدمنا فاعتقد كلام السلطان على ظاهره فقال « انا اؤكد لهم حسن ظن جلالتم واحملهم على تعيين وفد يتشرف بالمتول بين يديكم » فقال « لا يسعنا المطاولة في الاخذ والرد فينبغي ان يكون ذلك الوفد مفوضاً في كل شيء فتنتهي هذه المشاكل في جلسة واحدة تنتقل بها الدولة من حال الى حال . آه من هؤلاء المتذاقين كم اغروني على الايقاع بالاحرار واقنعوني انهم غير اهل للدستور وانا مضطر للتسليم . . قالان انا ملقٍ حملي عليك وواضع ثقتي بك فعسى ان يتم هذا العمل على يدك - اذا جاء الوفد فليكن مؤلفاً من خيرة الرؤساء العقلاء يظهرون انهم آتون لمشروع اقتصادي او علمي او نحو ذلك »

فاشار رامز مطيعاً وقلبه يرقص طرباً وهو لم يصدق ان عبد الحميد يطلق سراحه فقال « ومتى يأمر سيدي بمباشرة ذلك ؟ »

قال « تذهب في هذه اللحظة . . تخرج من هذه القصور من باب سرّي ارشدك

اليه على يد احد ثقتي تخرج ولا يدري احد بخروجك فاذا اصبحوا في الغد ظنوا انك فررت . وانما ينبغي المبالغة في كتمان ما دار بيننا عن كل احد حتى تصل الى الجمعية وتعرض هذا الراي في جلسة سرية .. فهمت ؟ » فاجاب براسه ويديه ان « نعم »

## الفصل الخامس والخمسون

سعيد بك

وباغ من استثناس رامز بعبد الحميد وتصديقه اياه حتى اعتقد ان الدستور اصبح في قبضة يده . وتذكر والده وتلفه على معرفة مكانه فاغتم قربه من عبد الحميد للسؤال عنه فقال « قد حملني لطف جلاله السلطان على ان اتجاسر بعرض مسألة .. هل افعل ؟ » فقال « قل يا ولدي ما الذي تريد ؟ » فزاده ذلك التلطف دالة فقال « لي والد دخل بلدز منذ بضع عشرة سنة ولم نعد نعلم ماذا جرى له فهل هو ياترى في قيد الحياة ؟ » فاظهر عبد الحميد الاهتمام بهذا السؤال وقال « والدك في بلدز منذ بضع عشرة سنة ؟ ما اسمه وما كان غرضه من المجيء ؟ » قال « ان اسمه سعيد وقد جاء للبحث عن اوراق في قصر مالطة » فنظاهر عبد الحميد بالبغثة وقال « سعيد بك ابوك ؟ قد اغروني عليه وزعموا انه جاء بدسياسة لينتقم لمذحت باشا لانه صديقه وكذت اقلته ثم اكنفيت بسجنه .. » فانحنى رامز انحاء الاستعطاف وقال « هل يتاح لي ان اراه .. ان ذلك اكبر نعمة علي .. فاذا حصلت عليها تفانيت في خدمة السلطان » قال « طبعاً .. وهل تخشى ان تطلب مني ما تريده بمد ان صرحت لك بمقاصدي — سابعث باخراج والدك من السجن في هذه الدقيقة واخرجك معاً من بلدز في هذه الليلة » فلم يتالك رامز عن الاكباب على طرف ثوب السلطان يقبله فامسكه عبد الحميد وقال « انا عائد الان الى قصري وسابعث اليك بوالدك مع حرمي يدخل به عليك من باب هذا القصر كما دخلت انت . والحرمي يرشدك الى طريق النجاة » قال ذلك ونهض فنهض رامز وهو يقول « اخشى اذا صرت الى صلاتيك ان يعرف ناظم بك بقدومي فيتعمد القبض علي »

فقطع السلطان كلامه قائلاً « لا تهتم بهذا الامر انا اديره »  
 فعاد تشكره وامتنانه وتحول عبد الحميد نحو ذلك الباب في الحائط ففتحه وخرج منه  
 ثم اوصده وراءه فعاد الحائط كما كان  
 وبقي رامز في مجلسه وقد تولته الدهشة واخذ بفرك عينيه لئلا يكون في حلم فتحقق انه  
 في بقظة فقال في نفسه « ما هذه الغرائب المدهشة .. عبد الحميد يطلب الدستور من تلقاء  
 نفسه ! اذا تم ذلك عليّ بدي ما اعظم سروري .. هل ارى والدي الان وانجوبه ؟ رب شر  
 ينتج عنه خير . لو لم يش بي عدوي وبلقيني في هذه الورطة لم اوفق الى ملاقاته والدي  
 ولا الى ما ارجوه من الانقلاب السيامي .. لا اصدق اني اصل الى الجمعية واقص عليها  
 اخباري .. »

ونفض وجعل يخطر في الغرفة وهو ينظر الى ساعة دقاقة موضوعة عليّ منضدة مذهبة  
 فاذا هو في الساعة الثانية بعد نصف الليل واصبح بعد الدقائق في انتظار والده .. وقد صبر  
 عليّ بعده اعواماً لكنه وجد هذه الدقائق اطول منها كثيراً . واوحشه ذلك السكوت فاذا  
 وزيت ناموسة اجفله وزيزها

وهو في ذلك سمع وقع خطوات في الخارج عقبها قلقة المفتاح فوثب من مجلسه الى  
 الباب ووقف ينتظر فتحه ليرى القادم . ففتح الباب ودخل منه حرسي ملثم و اشار الى رامز  
 اشارة التحية ثم اوماً الى الخارج . فنظر رامز فرأى رجلاً فوق الكهولة قد تغيرت سحنته  
 وطال شمر راسه ولحيته حتى صار كالنساك الحباء الذين لا يمسون شعورهم بقص او اصلاح .  
 ومع انتظار رامز لوالده واطلاعه سلفاً عليّ خبر قدومه فقد انكره لتغير سحنته عما يعرفه اذ  
 تولته الشينوخة وشاب شعره واسترسل وامتنع لونه من طول الاحتجاب عن اشعة الشمس

اما الوالد فخالما وقع بصره عليّ ابنه صاح « ولدي رامز حبيبي ! » واكب عليّ عنقه واخذ  
 يقبله ويكي من الفرح فلم يتالك رامز عن البكاء وقبل والده وهو يتفرس فيه . وما لبثا ان  
 تعارفا وعادت الي ذهنيها الصورة القديمة التي عرفها كل منهما في صاحبه فقال رامز « ابني  
 ينبغي ان اشكر الله عليّ وقوعي في هذا الاسر اذ لولاه لم اوفق الى رؤيتك وانقاذك »

فقاطعه ابوه قائلاً « انما الفضل لرضى امير المؤمنين ومراحمه فلو لم يدب الخوف في  
 قلبه لم يات بجيئك ولا اسرك بفائدة . فقد ابلغني هذا الحرسي ان جلالة البادشاه اذن  
 بخروجنا من هنا وانه عهد اليك اوراً خاصة فنشكر الله عليّ نعمه فالان نحن هنا حتى  
 بشير الينا هذا الحرسي بما نفعل »

اما الحرسي فكان وافقاً لا يتكلم ولما سمعها يذكرانه استخرج من تحت ابطه صرة

دفعها اليها على ان يفضاها . ففتحتها رامز فوجد فيها اسطوخودوسين مما يلبسه الياوران و اشار اليها ان يلبسهما . ففعل رامز وهو ينظر الى نفسه في المراة فاذا هو كالياوران تماماً ووقف ينتظر ما يشير به الحرمي فاستخرج من جيبه ورقة كالبطاقة دفعها الى رامز وقال له بالاشارة ساخرج بك من هنا ثم تنطلق توتاً الى محطة السكة الحديدية فتدفع هذه الورقة الى رئيس محطة فيركبك القطر الى سلايك « والتفت الى سعيد بك و اشار اليه ان يلبس فتوقف وقال انه لا يستطيع الخروج من بلدز في تلك الليلة بل بفضل ان يصلح من شأنه قبل الخروج . فاستغرب ابنه ذلك منه وهم وان يعترض فوقفه الوالد قائلاً « لا بدء من بقائي الليلة هنا وساتبعك في الند فنلتني في سلايك . فهل عندك شك بامر العفو ؟ »

قال « كلاً »

قال « استحي من نفسي ان اخرج في الاسواق وانا كالتسك .. وقد قضيت في هذا المكان اعواماً وسابقي فيه يوماً آخر وفي الغد اخرج والحقك في سلايك ان لم يكن في الاستانة

فتاسف رامز على تمسكه بالبقاء وقال في نفسه « لا بد من سبب بعثه على ذلك » فودعه وقبل يده وخرج مع الحرمي ف اشار الحرمي اليهما ان يتبعاه ففعلاً فجعل الطريق من جهة قصر مالطة . فلما وصلا اليه اشار الحرمي الى سعيد ان يدخل ذلك القصر وامر حراسه ان يستقبلوه باشارات بينهم فهموها . وقاد رامزاً في طريق مجهولة بين الاشجار حتى وصل به الى باب من ابواب السور الخارجي فتجه الحرمي بفتح معه و اشار اليه ان يخرج واذا اعترضه خفير من خفراء بلدز خارجاً فليقل له « الذات الشاهانية » وهو شعارهم في ذلك اليوم — وهي اول جملة نطق بها ذلك الحرمي المثلث منذ قدومه ومسيره مع رامز ولم يفعل ذلك الا مضطراً . ولما سمع رامز نطقه وجد صوته يشبه صوت عبد الحميد . ولكنه لم ينتبه لذلك الا بعد ان فارقه . ولم ينتظر له ان ذلك الحرمي هو عبد الحميد نفسه . وانما اعتقد المشابهة بين الصوتين

## الفصل السادس والخمسون

### فلسفة ما كيا فيلي

بلغ من دهاء هذه الطاغية انه اراد ان يخفي تهريب رامز حتى عن الحرس فلبس لباس الحراس ومشى بين يدي رامز حتى اخرجه من يلدز. وله من وراء ذلك حكمة لا يدركها الا الذين فطروا على المكر والدهاء. وبعد رجوعه دخل قصره كما يدخل بعض الحرس الخاص وكان الحرس الذي لبس ثيابه محبوساً في بعض الغرف فاخرجه وأمره ان يعود الى موقفه فعاد ولم يشك من رأي عبد الحميد داخلاً بلباس الحراس وخروج هذا على اثر ذلك انه هو الحرس الذي دخل

دخل عبد الحميد قصره وكل اهله نيام فترع تلك الملابس وارندى ثياب نومه ومشى الى غرفة المطالعة وهو ساكت يفكر في ماذا فعله في تلك الليلة هل اصاب او اخطأ ووجد على موقف هناك باقة من البنفسج تعود رئيس الفراشين ان يتحفه بها من وقت الى آخر لعلمه انه يحب رائحة هذا الزهر كثيراً. فتناول عبد الحميد الباقة وتنشقها فانتعش ثم اعادها الى محلها والقى نفسه على مقعد وتنفس الصعداء وهو بهي سيكاراً ليدخنه. ثم اشعل السيكار وتمدد وبسط رجليه ورفع بصره الى السقف وقد تألفت تلك القاعة بالاضواء وجعل بنفخ الدخان ويتأمل حلقاته وهي تتصاعد متتابعة متعاقبة وافكاره منصرفه الى ما اتاه في ذلك اليوم من الامر الغريب. ثم ناجى نفسه قائلاً: ظن ذلك الشاب اني وثقت به وبوعده ويزداد اعتقاداً بصدقي متى اطلقت والده.. وهو يرى ذلك ثقة مني بهما.. ومن يشق بكم الى هذا الحد. لكن بقاء رامز هنا لا فائدة منه لانه مصمم على الانكار ولا فائدة لي من قتله اذا لم اقتل كبار تلك الجمعية الجهنمية.. وزد على ذلك ان شيرين هنا في قبضة يدي وهو لا يعلم فاذا علم بعد ذلك انها رهن عندي على وعده اتعب نفسه في الانجاز وقد اخبرني صائب بك انه يستهلك في حبها فاذا جاءني ولم يفعل ولا هي اعترفت باسماء اولئك الناس قتلها... ولكن حيلتي ستنتظلي على مؤسسي تلك الجمعية ويرون من اطلاق سراح احدهم بعد ان قبضت عليه صدق نيتي في التماس آرائهم للإصلاح فيأتييني كبارهم ومتى اتوا أذيقهم الموت فيخاف رفاقهم وتضعف عزائمهم وتذهب هذه الجمعية كما ذهب غيرها من قبلها ونخلص منها»

ثم اعتدل في مجلسه وزجر كالشبل الجريح ووقف بغتة وقد اخذ الغضب منه وقال « تبا لكم من اغرار جهال .. لن يبلغ كيدكم كيدي .. سوف تذهبون طعاماً للاسماك - اني لا ازال اسفك واقتل حتى تخلو الدنيا من المعارضين لي .. مهم ما يكن من تقمهم بي فاني على رأي ماكيافيلي ... لله در هذا الفيلسوف .. صدقت يا ماكيافيلي ان الرجل العظيم لا يستطيع ان يستقل بحكمة وينجو من الرقباء والحساد الا اذا اغضى عما يسمونه الشرف والامانة والوفاء في معاملته اعدائه .. ولا بأس عليه اذا ضحى هذه الفضائل في سبيل المحافظة على الدولة او الوطن وان يستبدلها بالمكنر والدهاء وهي ما يسميها الجهلاء خيانة وغدرًا ... ليست الخيانة ان احتال على عدوي حتى اظفر به واقتله واتماهو الدهاء - وما فائدة الوفاء اذا اضطرني الى اطلاق سراح رجل اعرف انه يريد قتلي ... بورك فيك يا ماكيافيلي .. نعم اقتل ثم اقتل .. اقتل من شككت به او من تخاف منه شرًا ولو على سبيل الشك - تلك هي سياسة كبار الرجال .. وهي التي سار عليها كبار القواد في تأسيس الدول ... الم يفعل ذلك ابو مسلم الخراساني نصير العباسيين في تأسيس دولتهم؟ .. الم يفعله بامر الامام ابراهيم العباسي الم يقتل على الشك؟ ولو لم يفعل ذلك لما قامت للدولة العباسية قائمة .. فهل يلام عبد الحميد اذا سار على خطوات ذلك الامام واقتدى باكبر الفلاسفة العقلاء .. »

كان يقول ذلك قولاً متقطعاً كأنه يخاطب رجلاً واقفاً بين يديه ولو رآه احد يفعل ذلك لظنه اصيب بعقله . فلما فرغ من تلك الاقوال رمى السيكار من يده وتناول باقة البنفسج ومشى يطلب الرقاد في غرفة من غرف ذلك القصر على مقعد او كرسي كالعادة في تسره في النوم حتى لا يعلم احد بمرقده - نام في تلك الليلة نوماً متقطعاً واصبح باكراً فبعث الى الباشكاتب وامره ان يستقدم رامزاً في قصر مالطة اليه فاسرع وارسل في طلبه فعاد الرسول واخبرانه غير موجود هناك . فظهر عبد الحميد الاستغراب وقال « الم يكن هناك في الامس؟ »

قال « نعم يا مولاي .. ولكنهم يقولون ان حرسياً من حراس الماين جاء في طلبه »

فقال « انها حيلة انطلت عليهم .. كيف تتركون هذا الرجل يفر من بين ايديكم لله ما هذا .. اني لا اقدر ان اتق باحد من هؤلاء المجانين الخونة ... » واخذ يكرر مثال هذه العبارات ويظهر الغضب والحلق والباشكاتب واقف لا يرد جواباً . ثم اظهر عبد الحميد انه هداً روعه وقال للباشكاتب « ما العمل ينبغي لي ان اتولى كل شيء

بنفسي حتى الاحتفاظ بالسجناء؟ فالرجل فرّ ولا فائدة من تعقب آثاره في الاستانة ولا بد انه عائد الى سلانيك فلنغتم فراره ونستدل على مقر تلك الجمعية « واطرق كانه يعمل فكرته ثم قال « ارسل تلغرافاً الى حبيبتنا ناظم بك قل له فيه ان رامز الخائن أفلت من ايدينا وعاد الى سلانيك فليستقبله ويظهر له الصداقة ثم يراقب حركاته ويقتص آثاره بدون ان يشعر به حتى يقف على مقر تلك الجمعية فيقبض على من يجدهم هناك ويرسلهم الى مكبلين بالحديد او فيقتل وليفتك . . . فاذا استطاع هذه الخدمة رقيناه واجزناه »

وكان الباشكاتب يسمع اوامر عبد الحميد وهو يعجب لدهائه فكتب صورة التلغراف وتلاه عليه فاصح به بعض الشيء وامر بارساله حالاً فخرج وفعل ما امر به وعاد عبد الحميد الى تفكيره فاعجبه ما اتاه من الدهاء فضحك ضحكة يندر ان يضحك مثلها وقال في نفسه مع الاعجاب بالذي اتاه « ينبغي ان ادبر اموري بنفسى . وهؤلاء اذا صح اخلاصهم فانهم قليلو التدبير » ومشى مشية الخيلاء وهو يقول « اذا صح تدبيرى قضيت على تلك النفوس النجسة وعلمتهم من هو عبد الحميد »

ثم وقف هنيهة وقد طرقت ذهنه امر شيرين وما دبره من اغراء القادين بها وهو لا يشك في انها تنجح في استنطاقها لاعتقاده بدهائها وذكائها وتذكر ما يخافه من حملها ووضعها فقال « ومتى فرغت من مهمتها اقلها لانخاص من حملها »

وقضى بقية ذلك اليوم في مطالعة التفارير التي اتته من جواسيسه المنبئين في اطراف المملكة وفيها امور هامة لكنه لم يهتم بها بالنظر لاشتغاله بتدبيره الجديد ولما امسى المساء تزيابزى حرسى الامس واخرج والد رامز من بلدز كما فعل برامز

## الفصل السابع والخمسون

### الى سلانيك

خرج رامز من بلدز ولم يصدق انه نجا فناداه خفير واقف على بضعة امتار من الباب « من القادم » فاجابه « الذات الشاهانية » فوسم له ورحب به ومشى معه حتى تجاوز بلدز واصبح بعيداً عن الظنون

وطال مسير رامز قبل ان يوصل الى محطة السكة الحديدية فوصلها في الصباح قبيل

مسير القطار فذنع البطافة الى ناظر المحطة فرحب به وانزله في القطار المسافر الى سلايك  
في تلك الساعة في عربة خاصة

فلما جلس في المركبة وخلا بنفسه عادت اليه هواجسه وراجع في ذاكرته ما مر به  
من الاحوال في ذلك الليل وأخذ يمني نفسه قبل كل شيء بمشاهدة شيرين لانه لم يصدق  
قول والدها أنها هربت واذا تحقق هربها الى مناستير او غيرها سافر اليها . وفكر في  
المهمة السياسية التي هو ذاهب بها فلم يخامر شك في صدق عبد الحميد هذه المرة اذ لولا  
صدق نيته في ذلك لم يطلق سراحه وهو اسير عنده ثم اطلق سراح ابيه فاعتقد انه  
صادق في ما قاله - على انه استغرب التماس والده البقاء هناك يوماً آخر فوق السنين التي  
قضاها في اعماق السجن ولكنه آانس منه اصراراً فقال لعل له عذراً او غرضاً وقد خامره  
ريب من بقاءه واسف لتركه لئلا يحدث ما يوجب اعادته الى السجن لكنه قال في نفسه  
« لو لم يكن للسلطان غرض في اطلاقه ايس ثمة ما يكرهه عليه »

قضى الطريق في مثل هذه الهواجس وشغل عما يمر به القطار من التلال والادوية  
والغياض ووصل سلايك في الضحى نخرج من المحطة بسهولة بتذكرة اعطاء اياها ناظر  
محطة الاستانة بعلاوات بينهم يفهمونها

ولما خرج من المحطة اخرج مندبله من جيبه فاذا فيه ورقة مطوية لم يكن يعهدا  
هناك ففضها وقراها فاذا هي بخط تذكر انه خط والده فقراها فاذا هو يقول فيها « احذر  
من مراقبة ناظم ورجاله السريين خوفاً من معرفة مقر الجمعية . افعل ذلك ربنا آتيك »  
فدهش واخذ يفكر في مابعت والده على هذه الكتابة فبعثه ذلك على الشك في ناظم ولم  
يعبأ بما فيها من سوء الظن بالسلطان ولكنه عزم على المحاذرة

فأول ما خطر له ان يفعله في سلايك ان يذهب الى بيت خطيبته ولما اطل على المنزل  
اخذ قلبه بالخفقان وتصور انه سيلاقي شيرين في المنزل فشعر بلذة انسته متاعبه واخطاره  
وصل الى بيت الحبيبة فرآه مقفلاً فسأل الجيران عن اهله فقص عليه احدهم خبر  
ضباع شيرين منذ ايام وان والدها سافر الى الاستانة واما والدتها فقد سافرت الى مناستير  
للبحث عنها عند بعض اهلها هناك . فأسقط بيده وتذكر قول طههاز فوجده صادقاً فوقع  
في حيرة واسودت الدنيا في عينيه وحدثته نفسه ان يتبع الوالدة الى مناستير لكنه عاد  
الى التفكير في المهمة فتذكر ان تلك الليلة موعد اجتماع الجمعية فعزم على الذهاب اليها وهو  
لا يخاف ان يكشف امرها للتدبير الذي دبروه في اخفاء مكانها . ولم يشأن يؤجل ذلك الى  
مجيء ابيه فذهب الى الفندق الذي كان نازلاً فيه التماساً للراحة فوجد رسولا من ناظم

في انتظاره وقال له « ان حضرة القومندان يطلب مقابلته للترحيب به فصدقته وذهب اليه في قصره فرحب به وهناك برضى الذات الشهانية عنه وعرض عليه ما يريد ان يخدمه به فائني على فضله ولولا الورقة التي وجدها في جيبه لوثق بقوله لكنه اعتذرا انه يطلب الراحة في هذا اليوم فدعاها للنزول عنده فاعتذرو ومضى الى الفندق وهو يتوقع ان يتبعه الجواسيس فلم يلاحظ شيئاً من هذا القبيل ارتاح في الفندق بقية ذلك اليوم وهو يهيء ماسيعرضه على الجمعية حتى اذا كان العشاء مشى الى قهوة تعود الاعضاء ان يتفرقوا في اطرافها قبل الاجتماع ليتواعدوا على مكان الاجتماع وكيفية الوصول اليه

## الفصل الثامن والخمسون

### نظام جمعية الاتحاد والترقي

واصطلاحهم في نظام جمعيتهم انها مؤلفة من عدد محدود يغلب ان يكون ١٢ عضواً هم لجنة الادارة عليهم رئيس يسمونه « المرخص » تماشياً من تمييز بعضهم بالرئاسة فهؤلاء الاعضاء يتعارفون ويجمعون غير متسكين للمباحثة في اعمال الجمعية واصدار الاوامر الى الفروع . اما من ينضم الى الجمعية غير هؤلاء فانه لايتأني له ان يعرف اعضاء اللجنة معرفة شخصية وانما يعرف الشخص الذي يكون واسطة لادخاله فيها وذلك ان احد اعضاء اللجنة اذا عرف شابا من العثمانيين آانس فيه ميلاً الى الحرية وحب الاصلاح قرب به اليه وتدرج في اطلاعه على وجود جمعية حرة تطلب الاصلاح فاذا احب الانتظام في سلكها وطلب اليه ذلك وعده بالنظر في طلبه ثم يخاطب اللجنة بشأنه فاذا قبلت به اعطته رقماً (نمرة) يعرف به في سجلاتها ودعته للحضور في جلسة سرية تعيينها له يحضرها اعضاء اللجنة متسكين فيدخل متهيأ ويقسم اليمين على الانجيل او القران والمسدس ويخرج . وهذا العضو الجديد اذا راي صديقاً له استحسن ضمه الى الجمعية قدم طلبه على يد العضو الذي قدمه قبلاً واذا قبل ياتي الطالب الجديد للجلسة السرية ويقسم اليمين ويخرج وهو لا يعرف غير صديقه الذي ادخله . واما هذا فصار يعرف اثنين امامه والاخرين زوايه واذا دخل اثنين او ثلاثة او اربعة فانه يعرفهم وهم يعرفونه

واعتبر هذا التحفظ أيضاً في العلاقة بين الجمعية المركزية وفروعها في الجهات فانها تنفرع اولا الى شعب (واحد اشعبة) في المدن الكبرى وللشعبة فروع يقال لها قولات « واحد اقول » وكل شعبة او قول مؤلف من لجنة ادارية لها رئيس واعضاء مثل الجمعية المركزية . ومؤسسو الشعب اصلهم من الجمعية المركزية وذلك ان احدهم ولاء الاعضاء اذا راي في نفسه الكفاءة لانشاء شعبة في بلد من البلاد عرض مشروعه على اللجنة فتتخول له انشاءها فينتقل الى ذلك البلد ويجمع باناس يثق بحريتهم وصدقهم ويؤلف معهم لجنة يخبرهم انها فرع للجمعية المركزية ولكنه لا يصرح لهم باسماء اعضائها . ومتى تألفت الشعبة تشتغل في ادخال الاعضاء على الكيفية التي سنها الجمعية المركزية وهذه اللجنة لاتعرف من اعضاء الجمعية المركزية الا الذي اسس الشعبة

وهكذا يقال في انشاء الفروع الصغرى والقولات ، فان احد اعضاء لجنة من لجان الشعب ياخذ على عاتقه انشاء فرع للشعبة ويخرج للقرية ويؤلف لجنة من اهل ثقته لا يعرفون من اعضاء الشعبة الا هو وقس على ذلك

وتختار الجمعية لنشر آرائها صحفاً ينشئها افراد منها يظهرون للناس وقد لا يظهرون وكان رامز من اعضاء لجنة الادارة في سلانيك فلما آتى القهوة عرف من لقيهم هناك من الاعضاء وكانوا قد بنسوا من حياته فأخبرهم انه جاء بهمة ذات بال تغنيهم عما يقاسونه من العذاب واخبروه عن محل الاجتماع في بعض اطراف المدينة ودلوه على طريقة الوصول اليه

فتفرقوا من هناك وسار كل منهم الى منزله . وتذكر رامز والده وربما آتى في انشاء الاجتماع تلك الليلة فاسرع الى بيت طهماز واوصى الجار اذا جاء رجل صفته كذا وكذا ان يلحق به الى بيت كذا وهو المكان المؤدي الى محل الاجتماع ولم يلحظ رامز ان احداً يتبعه على انه لم يكثر بذلك لعلمه ان طريقة الوصول الى ذلك المكان لا يستطيع الجواسيس كشفها . فلما كان قبل منتصف الليل خرج من الفندق ومشى في شارع استطرق منه الى اخر فاخر حتى وصل منزلاً طرفه ففتح له فدخل فيه ثم خرج من باب سري منه الى زقاق لايهتدي اليه غير العارف فاذا تعقبه جاسوس لا يشك ان ذلك المنزل هو محل الاجتماع فاذا دخله وسأل عن القوم لا يجد فيه احداً ولا يهتدي الى المكان الذي خرجوا منه . وهو منزل بعض الاجانب مما لا يجسر رجال الضابطة ولا غيرهم ان يطرقوه ولم يكونوا يذهبون كل اجتماع في نفس ذلك الطريق . فاوصى رامز صاحب ذلك المنزل اذا آتى والده ان يرشده الى محل الاجتماع ويخبره عن كلمة السر

فلما صار رامز في الزقاق اصبح في مأمن من الرقباء ومشى مدة في طرق مبهمه حتى انتهى الى محفل ماسوني يجتمع فيه الماسونيون ولا حرج عليهم وقد احيط المكان في تلك الليلة بالرجال من اعضاء الجمعية المنبئين في جهات مختلفة لا يراهم احد وعليهم العدة والسلاح للدفاع عند الحاجة

فلما وصل الى الباب تلفت حتى تحقق خلو الطريق من الجواسيس فطرق الباب طرقاتاً مخصوصاً ففتح له فدخل في دهليز مظلم الا مصباحاً في احد اركان الدهليز نوره متجه بواسطة عدسية مقعرة نحو الباب فيقع النور شديداً على وجه الداخل بحيث يرى ولا يرى وقد اصطف في الدهليز صفان من الرجال عليهم البسة سوداء وقد تلموا حتى لا تظهر منهم الا العيون . فحالما دخل رامز رفع الحراس سيوفهم المجردة فوق رأسه فاشارة ففتحوا الطريق فدخل الى غرفة يعرفها فاتشح فوق ثيابه برداء اسود يغطيها كلها ولها كساء للراس كاللثام يرسل على الوجه عند الحاجة ومشى الى قاعة الجلوس بتقديمه احد الحراس ليهديه الى الباب فلما وصله قرعه قرعاً خاصاً ففتح له ودخل وفيه ١٢ كرسيًا هي مقاعد لجنة الادارة لا يحضر تلك الجلسة سواهم الا باذن خاص وكان رامز واحداً منهم كما تقدم . وقبل دخوله او عز الى الحراس اذا جاء والده وادى العلامة اللازمة ادخلوه اليهم بالطريقة المعروفة

## الفصل التاسع والخمسون

### الجلسة

فلما صار رامز في داخل القاعة طرق المرخص على الطاولة طريقة خاصة معناها الدعوة الى الجلوس فجلس على كرسي من الاثني عشر كرسيًا وكانت القاعة مربعة الشكل يحيط بها الكراسي وفي صدرها المرخص او الرئيس وامامه طاولة عليها كساء اسود وفي منتصف القاعة طاولة صغيرة عليها الانجيل والقرآن والمسدس وفي صدر القاعة فوق مجلس الرئيس صورة مدحت باشا مجللة بالسواد . فعرف رامز من الاعضاء الاميرالي حسن رضا بك من الطوبجية والقائمقام فائق بك اركان الحرب والبكباشيين اركان الحرب فتحى بك وحقي بك والمحمي رفيق بك وطلعت بك والبكباشي انور بك والقائمقام اركان حرب جمال بك ورحمي بك وغيرهم . وكل الحضور بالبسة سوداء

وقد رفعوا اللثام عن وجوههم لانهم اعضاء لجنة الادارة  
 فلما استقر الجلوس بالاعضاء قال الرئيس « تفتح الجلسة باسم الله وبذكرى مدحت  
 باشا ضحية الدستور »  
 فوقف الجميع احتراماً ثم جلسوا وقال الرئيس « ايها الاخوان ان اخانا رامزاً  
 قادم الينا من يلدز بمهمة خصوصية يرجو منها خيراً فلنسمع ما يقول »  
 فوقف رامز وقال « انتم تعلمون اني اخذت غيلة الى يلدز منذ ايام واعلمكم قطعتم  
 الامل من حياتي لان الذهاب الى ذلك المسكان كالذهاب الى الجحيم »  
 فضحك الحضور وقال الرئيس « علمنا بذلك وكانت اخبارك تأتينا بواسطة احد  
 اخواننا الشجعان هناك لا نظنك تعرفه . . . »



مدحت باشا

فاستغرب رامز ذلك وقال « اني لم اشاهد احداً لاني قضيت مدة مكثي هناك في  
 مكان منفرد عن الناس »  
 قال « ان اخانا هناك اخبرنا ببعض ما قاله له وقال انك كنت مسجوناً في  
 قصر مالطة »

فازداد استغراباً لانه لم يكن يعرف وجود جاسوس للجمعية هناك فقال « نعم اني كنت مسجوناً وقد قاسيت كثيراً ولي الشرف اني قتت بالقسم الذي اقسمته بالنظر الى الجمعية المقدسة فلقيت السلطان وغيره من رجال المايين والحواء علي ان ابيح باسماء الاعضاء العاملين فيها فاييت وكنت اتوقع ان اتشرف بالقتل في هذا السيل لكن فتح لي باب لم يسبق لاحد انه وفق الى مثله وفيه منجاة من سفك الدماء والوصول الى المقصود على اهون سيل »

فتناول الاعضاء باعناقهم لسماع حديثه وتعرض الرئيس قائلاً « ما هو ذلك الباب ايها الاخ اتنا من ارغب الناس في المسالمة وانت تعلم ان خطة جمعيتنا هذه نبيل الدستور وانقاذ هذه الدولة من الدمار بالطرق السلمية ما استطعنا الى ذلك سبيلاً » فقال رامز « ولعلمي بذلك فقد عدت ما وفقت اليه نجاحاً باهراً » فاستأذن انور بك وقال « هل يأتي من المايين امر فيه مصلحة لا يعتوره سفك الدماء ؟ . اني لا اري الاصلاح ينال بغير السيف وسفك الدماء » فقاطعه الرئيس قائلاً « لله درك يا انور من رجل حرب وحزم . ولا يمنعنا ذلك من الاصفاء الى ما يعرض علينا وليس على الله مستحيل » فعاد انور الى مجلسه وهو يقول « ليس على الله مستحيل — هات ايها الاخ ما عندك »

فقال رامز « انتم اهل حرب وكفاح يهون عليكم القتل . واما انا فاني رب قلم وبحث ولا اري الوصول الى الاصلاح بالحسنى مستحيلاً ومع ذلك فاني عارضت عليكم ماجئت من اجله »

## الفصل الستون

### حديث رامز

فاصغى الجميع واخذ رامز يقص حديثه مع السلطان حتى اتى الى مادار بينهما في قاعة قصر جيت وكيف اعترف عبداً الحميد بخطأه وكلفه ان يخبر اعضاء الجمعية بشأن الحجيء اليه وكيف اطلق سراحه لهذا الغرض - الى ان قال « وبما يؤكده لي صدق نية السلطان هذه المرة انه اطلق سراحني بعد ان كنت في قبضة يده . وفعل ذلك سرّاً عن كل

انسان حتى تولى اخراجي سرّاً بنفسه — وقد اطلق سراح والدي ايضاً وانتم تعلمون  
انا يئسنا من بقائه حيّاً و . »

فلما ذكر والده ظهرت البغته على الحضور ولم يتالك الرئيس عن قطع حديث  
رامز قائلاً « والدك اتى معك ؟ اين هو ؟ »

قال « لم يأت معي فانه استمهلني ريثما يصلح من شأنه ويأتي في الغد .. الاتعدون  
هذه المعاملة دليلاً على اقتناع عبد الحميد بخطئه وانه ألهم الرجوع الى الصواب على ايدي  
الاحرار العثمانيين ؟ »

وكان الكل يسمعون وهم يستغربون هذا الاقتراح فلما فرغ من كلامه قال الرئيس  
ينخاطب الاعضاء « انتم تعلمون قانون جمعيتنا المقدسة ولا يخفى عليكم ان قانونها انما  
هو المطالبة بالدستور وقلب الحكومة الاستبدادية بالحسنى بلا سفك دماء على قدر  
الامكان . ولذلك فلا يمكننا رفض اقتراح عبد الحميد مع ما فيه من نيل الدستور على  
اهون سبيل . ولا يخفى عليكم ايضاً ان هذه الجمعية ترى اذا نالت الدستور ان لا تلحق  
بالسلطان سوءاً — اذ لا رغبة لنا في الانتقام وانما زريد الاصلاح »

فوقف انور بك وشاربه المرتفعان ينتفضان من التأثر وقال « يا اخواني ان  
اقتراح عبد الحميد جميل وحجب الدماء جميل — اما نيل الدستور بالحسنى فنعمة  
لا مثيل لها — ولكن ذلك يخالف النوااميس الطبيعية الاجتماعية التي جرت عليها  
الامم من اقدم ازمته التاريخ . هل سمعتم بامة نالت حريتها وقلب حكومة الاستبداد  
الا بالسيف ولله در الشاعر العربي القائل :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم  
لا نقول ان نيل الدستور بالحسنى مستحيل ونحن في الواقع ساعون فيه جهد  
طاقتنا ولكنني ارى امر ذلك يطول وقد جعلنا هذه الجمعية عسكرية واعضاءها اكثرهم  
من الضباط الشجعان المثقفين الذين يعرفون قدر الحرية او الكتبة الاحرار العارفين  
فينبغي لنا ان نبادر الى العمل . . هذا هو رأيي ولا ارى اقتراح ذلك الطاغية الا  
حيلة يدبرنا من ورائها مكيدة » قال ذلك وجلس وحصل ضجيج استحسان وسمع  
صوت احدهم يقول « اقتل . . اقتل . . لا يفيد غير ذلك . . » فعلم الجميع انه صوت  
احد الضباط الحاضرين وهو الملازم ك . وقد عرفوا فيه الحماسة فضحكوا واعجبوا

• اما الرئيس فوجه كلامه الى انور بك وقال « لله درك يا انور وبارك الله في بسالتك  
وحزمك ان جمعية فيها امثالك فائزة باذن الله . ولكننا نبحث عن اقتراح عرضه علينا

ذلك السلطان وهو يوافق غرض جمعيتنا هل نرفضه بتاتاً ؟  
 فهض القائم فائق بك وقال « ايها الاخ المرخص ان قانون جمعيتنا المقدسة لا  
 يؤذن لنا برفض هذا الاقتراح .. صدقت ولكن الاختبار الماضي يدلنا على ان هذا الرجل  
 لا يركن اليه ولا يوثق بقوله . كم استرضى الاحرار بمثل هذه الوعود ثم غدر كما فعل بجمعية  
 باريس وحديث مراد وغيره اشهر من ان يذكر واول وعد غدر به يوم مبايعته لم يعد  
 مدحت باعلان الدستور والثبات عليه ثم اخلف ولم يعلنه الا قهراً وما زال حتى افسده



البيكاشي انور بك

وفتك باصحابه . ثم ان هذا الرجل عامل بفلسفة ما كيا فيلي الايطالي في السياسة ولا يقرأ  
 غير كتبه وهي تعلم الفتك بالناس في سبيل مصلحة الدولة بلا مبالاة بالشرف وبالوفاء  
 وقد زاد عبد الحميد عليه اقتداره العجيب على اخفاء عواطفه والتظاهر بما ليس فيه  
 كما تعلمون — ولو انه اقترح علينا المخابرة كتابة لم يكن ثمة بأس من القبول باقتراحه :

اما الذهاب الى بلدز مدفن الاحرار فانا لا اوافق عليه بل ارى اننا اليوم في خطر  
اشد مما كنا فيه قبلاً »

فصاح انور بك « تمام . تمام »

فهض رامز وقال « بحق لكم الشك في ما سمعتموه وانا ظلمت برهة وانا بين  
الشك واليقين ولكنني رايت الدمع يتساقط من عيني عبد الحميد وهو يتكلم واصبح بين  
يدي كالطفل النادم على ذنب اقترفه خوف العقاب . اما المحاربة عن بعد فلا تفيد  
لانه يريد ان يفعل ما يفعله ولا يشعر به رجال المايين وقد اصبح يخافهم على حياته اذا  
شعروا انه ناقل النفوذ من ايديهم الى ايدي اعدائهم . وسيأتي والذي وله فيه راي  
كما تعلمون »

فقال الرئيس « نؤجل الحكم في هذه المسألة للتأمل فيها واذا شئتم ان نعقد جاسة  
عامة يجتمع فيها سائر الاعضاء غير اللجنة فعلنا . . »

فصاح الجميع « موافق »

فوجه الرئيس كلامه الى رامز قائلاً « شغلنا بهذا البحث عن حديث والدك سعيد  
بك . . هل ظفرت به في بلدز ؟ »

قال « نعم وسيكون هنا الليلة او في الغد »

فقال حتي بك « سعيد بك صديق مدحت باشا لا يزال حياً ؟ »

## الفصل الحادي والستون

مدحت وسعيد

قال الرئيس « نعم . نحمد الله على ذلك . لعلمكم تعلمون مهمة هذا الاخ . او بعضكم  
لا يعلمها فاقصها عليكم بالاختصار لاني صديق قديم لسعيد بك . . كان اخونا المشار اليه  
اكثر الاحرار التصاقاً بايضا واستاذنا مدحت صحبه في اكثر مصائبه ونكباته حتى رافقه  
اخيراً الى منفاه في الطائف لانه كان يتعشقه او هو يتعشق الدستور الذي ذهب ضحية عنه  
وقد قص علي الفظائع التي قاساها مدحت في منفاه من الجوع والتعذيب الى القتل . اخبرني  
الاسخ سعيد انه شهد مقتله على ايدي تسعة من الخونة فيهم ضابطان احدهما شركسي خاناً

الشرف العسكري والباقون من الانفـار قتلوه خنقاً وقطعوا رأسه وارسلوه في صندوق  
شحنوه الى بلدز وكتبوا عليه انه يحتوي عاجاً يابانياً وادوات صناعية لجلالة السلطان .  
قص سعيد عليّ ذلك وهو يبكي وقد بكيت معه ولاشك انكم تشاركوننا بمصيبة ابي الاحرار  
ان عبد الحميد قتل مدحت ولكنه لم يقتل روحه وتعاليمه . ووجودنا في هذا المجتمع وسعيانا  
في سبيل الدستور انما هونسة من تلك الروح الطاهرة . وليس ذلك كل افضال مدحت فانه  
علمنا تجنب الخطر وعدم الاركان الى المواعيد اقتداء به . وقد بعث الى الاحرار العثمانيين  
رسالة شفوية على يد الاخ سعيد بلغنا اياها وقال ان هناك وصية مخطوطة كتبها المرحوم  
وهو في قصر مالطة يوم قبضوا عليه واخذوا في محاكمته تلك المحاكمة الظالمة وكأنه احس  
بالخطر القريب وهو هناك فاعتنم انفراده وكتب وصية للاحرار ووضعها في مخبأ في قصر  
مالطة على ان يحملها معه ويدفعها الى بعض خاصته بعد خروجه من ذلك القصر . فاخرج  
فجأة ولم يمهل ريثاً يأخذ الوصية فبقيت هناك وظن نفسه يعود بعد تقلب الاحوال فلما  
يشس من ذلك واحس بقرب الاجل امر الى سعيد خبير الوصية ودله على مخبأها في قصر  
مالطة واوصاه ان يتلوها على الاحرار العثمانيين حينما وجدوا . فلما عاد سعيد من الطائف  
اخذ يث افكار مدحت سرّاً وانتم تعلمون اكثرها . واصبح يترقب الفرص لاستخراج  
الوصية فلم يستطع دخول بلدز بالحيلة الا منذ بضع عشرة سنة ونحن في انتظار رجوعه  
الى الآن . فانا اعد خبر خروجه قوياً لنا وبشارة تدل على قرب النجاة من اسر الاستبداد  
واطلاق روح الدستور »

وكان الجميع سكوناً لان الحديث اكثره جديد على مسامعهم حتى رازم فانه لم يكن  
يعرف من هذه التفاصيل الا قليلاً فلما فرغ الرئيس من كلامه نهض انور بك وكان في اثناء  
الحديث غارقاً في التفكير وقال « هل يطول بنا انتظار الاخ سعيد بك ؟ »  
فقال رازم « ارجوان يكون هنا الليلة او غداً ولعله تاخر لياتي بالوصية معه . هذا ما خطر  
لي الآن على اثر ما رأيته من رغبته في البقاء هناك يوماً آخر وقد اوصيت من يلزم اذا جاء  
الليلة واراد المجيء الى هنا ان ياتي »

فقال « اما وقد دنا مجيئه ومعه وصية مدحت فلنؤخر حكمتنا في هذا الامر حتى نتلو  
الوصية ولاشك اننا سنجد فيها اموراً هامة »

وهم في ذلك سمعوا قرع الباب الخارجي فانصتوا وبعد برهة قرع باب القاعة ففتح  
الحارس فدخل احد الحراس بقول « ان اجنبياً لا اعرفه يريد الدخول فلم ناذن له فطلب  
ان يرى الاخ رازماً »

فتأكد الرئيس ان القادم سعيد بك فاذن رامز ان يذهب لاستخدامه فخرج ولبث  
الجمع في انتظاره على احر من الجمر. وبعد قليل عاد رامز ومعه ابوه ف اشار الرئيس الى الجميع  
بالنهوض اجلالاً له وقال الرئيس « اننا نقف لك ترحاباً بك واقراراً بفضلك في خدمة  
الحرية . وايضاً لانك رسول استاذنا مدحت »

فحيام ووقف ف اشار اليه الرئيس ان يقعد على كرسي بجانبه احتفاً به فقعد والدهشة  
ظاهرة في طلعه وابنه رامز ينظر اليه ويتامله فرأى فيه الصورة التي يعرفها ولم بلحقها الا  
تغيير قليل . ولما استقر الجلوس بسعيد مكث الجميع في انتظار ما يقوله . اما هو فمكث هنيهة  
صامتاً مطرفاً كأنه تهيّب من تلك الجلسة او انها اذكّرتة أموراً مخزنة ثم التفت الى صورة  
مدحت المعلقة بالحائط وتفرد فيها طويلاً والاعضاء ينظرون اليه كأن على رؤوسهم الطير  
فاحفظوا قطرات من الدمع تساقط على لحينه وهو يتجلد فاراد الرئيس ان يشغله عن تذكاراته  
المخزنة فقال « ان فرحنا بقدمك كثير وخذ وصاً بعد نجاتنا اخينا رامز من خطر القتل ولا  
شك انك تشر بما في قلوبنا من البيهجة بهذا اللقاء بل نحن نستبشر خيراً بقدمك يا حامل  
رسالة ايّنا وقدوتنا شهيد الحرية . لا ينبغي ان نخزن عليه فانه لا يزال حياً بيننا حتى  
ناخذ بثاره ونتم عمله فيبقى ذكره خالداً . نحن في انتظار الوصية المكتوبة . هل وقفت  
عليها ؟ »

فنهّد وقال « نعم انها معي وقد سمجت من اجلها اعواماً وهي اقرب اليّ من جبل الوريد  
ولكن السجن حال بيني وبينها لان اهل بلدز اشتبهوا بمقاصدي فسجنوني وعذبوني لاطلعم  
على غرضي من وجودي في قصر مالطة بلا مناسبة فلم اجبهم ولم اشأ ان احتال في الخروج  
بدون الوصول الى هذه الوصية حتى اتيح لي النجاة امس مع ولدي كما اخبركم فطلبت البقاء  
هناك يوماً آخر فبقيت بلا رقيب فاستخرجت الوصية من مخبائها وخبأتها بين اثوابي بحيث  
يستحيل الاطلاع على مكانها وها هي » قال ذلك واستخرج اوراقاً تآكلت اطرافها  
لطول دفنها في التراب وتهرأت ودفعتها الى الرئيس فشخصت الابصار وتناولت الاعناق  
لما سينلى عليهم

## الفصل الثاني والستون

### وصية مدحت

فنهض سعيد لمساعدة الرئيس في ترتيب الاوراق ومعرفة اولها وآخرها وتعرف الرئيس خط مدحت فقباه وقال « هذا خطه رحمه الله » وعاد الى الترتيب ثم قال « ان هذه الوصية مكتوبة بالسرعة الكلية ولذلك فهي اسطر متقطعة اشبه بالمفكرات منها بالوصية فابدأ بما على ظهرها » وقلب الورقة وقرأ « الدستور اطلبوه بالسيف »

فلم يتالك انور ان صاح « برافو... بالسيف بالسيف » فنظر اليه الرئيس بلطف كأنه يوجه على مقاطعته ولم يكن انور بك بمن يقاطعون بل هو من اعلم الناس بالاصول والقواعد لحفظ النظام ولكنه سر ببطابته قول مدحت لرأيه فغلب عليه فرحه فقال تلك الكلمة اما الرئيس فعاد الى القراءة فقرأ « سأذهب ضحية طلب الحرية ولكنني فرد لا تذهب بذهابه تلك الروح التي اخذت تدب في انفس العثمانيين . روح الحرية انتشرت في الشبيبة العثمانية ولا بد ان تزداد انتشاراً كل يوم بطبيعة العمران فموت واحد من الاحرار او عشرة او مئة لا يستطيع ان يقف في سبيلها . ولذلك فانا اكتب هذه الاسطر اخاطب بها تلك الروح الممثلة بالشبيبة العثمانية... اثبتوا في طلب الحق فانكم ستنالونه . لا بد من نيل الدستور لانه حق وان طال الامد على ضياعه . لا بد من تغلبه ولكنني ارشدكم الى امور عرفتها بالاختبار الشخصي ولو عرفتها قبل الآن لم تصل ابدي الظالمين الي ولا افلت الدستور من يدي ولكنني وثقت وارتقت فذهب سعبي بين الرفق والثقة فاحذروا من ذلك وهذه وصيتي بالاختصار فان الوقت لا يساعدني على التطويل وانا مطلوب للوقوف امام تلك المحكمة الظالمة ولا البث ان يحكم علي بالقتل او النفي فاكتب مختصراً :

١ : علموا الامة رقوا العامة ان الجهل سبب كل علة . ولا اعني التعليم المدرسي

كالصرف والنحو والحساب ولا الطب والهندسة والقضاء وانما اعني تربية الشبان وتدريبهم على الحرية الشخصية واستقلال الفكر وبث روح الوطن في نفوسهم حتى يدركوا ما هو — وهذا يقتضي تعليم المرأة فانها روح الامة — فاذا ارتقت وتنقفت نشأ ابناؤها على مثالها فالامة التي نساؤها مثقفات او مرتقيات بنشأ ابناؤها اهلاً للحرية ولو لم يتعلموا فان القصد التريية وهذه لا تثبت الا اذا رغبت في الصغر . فاول وصاياي ترقية الشعب وتدريبه على روح الحرية ولو كان لهذه الامة النعمة شيء من ذلك الان لما اذنت بجل مجلس المبعوثان

وقبل الدستور وانصاره وهي نائمة لا ترفع صوتاً ولا تجرد سيفاً - انا ذاهب ضحية هذا الجبل فاستفيدوا منه واذا علمت ان قلبي يأتي بفائدة فاني اتلقى الموت مسروراً

٢ : احذروا من الشقاق بين العناصر والاديان ان الدستور العثماني يحتاج الى هذه الوصية اكثر مما الى سائر الوصايا لاختلاف العناصر والمذاهب في هذه المملكة . دعوا التعصب الجنسي او المذهبي واتحدوا في العنانية . لا تذكروا الاسلام والنصرانية او اليهودية ولا التركي والعربي او الرومي او البلغاري او الالباني اغضوا عن هذه الاختلافات لانها اكبر سلاح يحاربكم به اعداء الحرية الظالمين . هم يفرقون بين العناصر والمذاهب ليستتب لهم الاستبداد ويأمنوا اجتماع الایدی علی مقاومتهم . كلکم مظلوم وكلکم موتور . ان الظلم لا يخلص طائفة دون اخرى ولا مذهب دون آخر فاتحدوا

٣ : اجعلوا معولكم في الدفاع على الجندية الفوا الجمعيات السرية وادخلوا الجند فيها .. الجند هم الامة وباسيا فهم يحمي الدستور وتستقر الحرية . ان لم يكن الجند معكم فسعيكم في سبيل الحرية يذهب عبثاً - بالجند حاربنا هذا الطاغية . لو كانت الجندية معنا لفعلنا كما نشاء - لا تفلح امة في طلب حق من حكومتها ان لم يكن الجند نصيرها ويشترط ان يكون متعلماً مثقفاً . عولوا على الضباط وهم قادة العساكر . اما العساكر فالجهل يجعلهم أتباعاً لكل ناعق يباعون ويشترون واما الضباط المتعلم المرس بالفضيلة فانه سيف قاطع - اجعلوا معولكم على الضباط المتعلمين فهم وحدهم يدركون معنى الحرية وهم وحدهم يحملونها باسيا فهم . . .

حدثت تمثة ولو اتيح للسامعين الكلام لصاحوا « لتحي الجندية » ولكن ظهر هذا القول بتمتهم وعاد الرئيس الى القراءة فقال :

٤ : وهذه وصية خاصة احرضكم على العمل بها فقد كلفتني حياتي وحياة كثيرين امثالي من الاحرار - ان المرء الصادق قريب من التصديق كثير الوثوق وقد يجره وثوقه الى الخطر لان الناس حوله على غير ذلك - وخصوصاً عبد الحميد اذا وصلت وصيتي اليكم وهو حي فاوصيكم ان لا تتقوا باقواله ولو اقسم الايمان واغاظ القسم فانه كاذب الا اذا كان قوله عائداً الى اشباع مطامعه - احذروا من الوثوق به فان الوثوق جرنى الى الموت .. لا تصدقوه ولو اقسم وظهرت علامات الصدق في وجهه فان ذلك الوجه لا مثيل له من حيث النلون . ان فيه شيئاً لا اعرفه في سائر الوجوه يوهمك . منظره انه صادق وما هو كذلك . له قدرة غريبة على اقناع مخاطبه وقد يتظاهر بالبكاء ندماً واسفاً وهو ينوي غير ما يقول فاحذروه «

فلما بلغ الرئيس الى هنا وقف انور بك وقال « استأذن الاخ المرخص ان اقول فليحي مدحت ابو الاحرار... هذا هو الرأي الصواب وقد جاء قوله فصل الخطاب »

فابتسم الرئيس وعاد الى القراءة فقرأ :

٥ : بقيت وصية ربما تعجبون منها لعلمكم بالقواعد التي تقتضيها الحرية — ان الحرية تقتضي العدل والرفق وحجب الدماء ولكنها لا تنال الا بسفك الدماء — اعني الفتك بالافراد الذين يقفون في سبيل اغراضكم . لان رجلاً واحداً شريراً قد يكون وجوده سبباً في خراب امة او ضياع حقوقها . فاذا كان الحق لا يقضي بقتله فالسياسة تقتضيه — افنكوا بالاشرار.. اقتلوهم .. واذا كانت الجندية معكم فليس اهون عليكم من ذلك — كل من تأكدتم سعيه ضد الحرية والدستور اقتلوه وانا المسئول عن ذنبكم بقتله . انكم اذا قتلتم شخصاً تحييون امة — لو اتيح لي ان اعرف ذلك قبل الآن لكنتم راقلين الآن في بجوحة الدستور ولكن تلك سنة الله في خلقه يستفيد الابناء من اختبار الآباء

ولما فرغ من قراءة هذه الوصية تنفس الصعداء ولم يتكلم احد الا الشاب الملازم ك فانه تمنح تصديقاً لما سمعه وعاد الرئيس الى القراءة :

٦ : اذا اتيح لكم الفوز بالدستور احذروا ان تبقوا هذا الطاغية على كرسي السلطنة وان ظهر لكم انه تاب ورجع فانه يظهر غير ما يضمير

٧ : لي وصية اخرى هي آخر الوصايا تتعلق بتوارث الملك في الدولة العثمانية . ان طريقة التوارث الجارية الى هذه الغاية لا تخلو من الخطر على الدولة اذ يكون ولي العهد شخصاً معيناً هو اكبر ابناء السلاطين سناً فقد يتفق ان يكون غير كفاء لادارة امور الدولة فاذا اعلن الدستور وصارت الحكومة العثمانية دستورية اصبحت مقاليدها في ايدي النواب فينبغي ان ينظروا في توارث الملك انه عظيم الاهمية ان لم يكن حال الانقلاب فبعده عند سئوح الفرصة . والذي اراد ان يبقى حق السيادة في آل عثمان يتوارثونها بشرط ان يكون كل بالغ من ابنائهم مرشحاً لولاية العهد وانا يكون للامة او مجلس نوابها ان يختار منهم من يجد فيه الكفاءة لهذا المنصب — لا انكر ما يعتبر هذه الوصية من العقبات ولكنها لازمة

اخيراً استودعكم الله وانا ذاهب لاموت في سبيل الدستور ما (مدحت)

## الفصل الثالث والستون

### المفاوضة

فلما فرغ الرئيس من تلاوة الوصية قعد وقال « قد سمعتم هذه الوصايا الثمينة وبعضها قد سمعناه شفاهاً من اخينا سعيد وبعضها جرتنا اليه الحوادث واقتضته الاحوال فما رأيكم ؟ »

فنهض المحامي رفيق بك وقال « ان بعض هذه الوصية قد عمنا به على قدر الامكان وبعضها يحتاج الى نظر فترجو من حضرة المرخص ان يعرض هذه المسائل واحدة واحدة وبأخذ الآراء بشأنها »

فقال الرئيس « ان تربية الامة هذا امر اقتضته طبيعة العمران وان كنا لم نستطع شيئاً كثيراً لوقوف حكومة الاستبداد في طريقنا . اما الجمع بين العناصر فانه وجهتنا وان كنا قد تأخرنا في اتباعه كما تعلمون فوصية ابنا واستاذنا مدحت نجعلنا نثبت فيه . وهكذا وصيته في التعويل على الجندية فانها خطتنا الجديدة وقد وصلنا اليها بعد طول الاختبار ونعم الرأي هو . اما تحذيره ايانا من عبد الحميد وعدم الركون الى مواعيده فقد اتى في ابان الحاجة اليه ونحن في اضطراب وتردد . واظن هذه الوصية تكفي للفصل في هذه المسألة . فهل تترددون في رفض اقتراح عبد الحميد الذي اتانا به الاخ رامز ؟ » وأشار الرئيس الى الاعضاء يطلب رأيهم في ذلك فصاحوا بصوت واحد « مرفوض »

فقال الرئيس « والفتك - ما قولكم به ؟ ان غرضنا حتى الساعة ان ننال الدستور بلا فتك ولا قتل ولكن استاذنا مدحت يلح في تحريضنا على الفتك فما قولكم ؟ » فوقف انور بك وقال « ان استاذنا يعين الاحوال التي يجوز فيها الفتك ويقول اذا وجد شخص كثير الاذى للاحرار ووجوده حرج عثرة في سبيل مقاصدها فلنقتله ان هذه سياسة الملك يقضي بها العقل والعدل - فان قتل شخص واحد افضل من ضياع حقوق امة برمتها . . . »

فاستأذن الملائم للكلام وهو شاب في حدود الخامسة والعشرين من عمره قد امتلأ صدره حماسة وتدفقت عيناه ذكاء وحدة فبش له الرئيس واذن فقال « اذا كانت السياسة لا تقضي فالحق يقضي . ان اهل المساكين واتباعهم اعداء لنا وهم

يقتلون مناعشرات قتلاً تسيل منه الدماء فضلاً عن قتل الحرية وامانة الشعائر. وشريعة الحرب تميز ان تقتل منهم من يقف في طريقنا . هم يقتلون منا طلاب الدستور ونحن نقتل من يسعى في قتل الحرية والاحرار وكل واحد منا يساوي مئات منهم « قال ذلك وعيناه تبرقان وصدق اللججه ظاهر في كل حركة من حركاته

فاشار الرئيس مبتسماً ان يقعد وقال مخاطباً الجلسة « هل توافقون على الفتك عند الحاجة . هذه خطوة جديدة في جمعيتنا تأملوا قبل الاقرار عليها انها خطوة مهمة جداً فما قولكم ؟ »

فاستأذن سعيد بالكلام فاذن له فقال « ان هذه الشريعة قديمة وانا اعتقد انها ستكون الدواء الناجع لهذه الحالة . انكم تفكرون ببضعة من كبار الظالمين حتى تصغر نفوسهم ويهايونكم اذ يعلمون انكم لا تقتصرون في الدفاع على الاقلام ولكنكم تدافعون بالسيف ايضاً . وهؤلاء القوم لا يفهمون الا بالارهاب فخاطبواهم بلسانهم وانا الضمين بفوزكم باذن الله »

وكان لكلام سعيد وقع عظيم في نفوس الحضور حتى لم يبق الا من وافق على هذا الراي ولما عرضة الرئيس على الاكثرية أقرّوا عليه بالاجماع وكان الجهادية اكثر سروراً به لانهم اهل سيف . ومع ذلك وقف الرئيس وقال « نقبل هذا القرار رغم ارادتنا لانه مخالف للخطة التي رسمناها من اول انشاء جيتنا لكننا قبلناها اولاً لانها وصية ابنا واستاذنا وثانياً لان السياسة تقتضيها وقد اقر عليها الاعضاء »  
ثم عرض مسألة بقاء عبد الحميد على العرش اذا اخذ الدستور فاختلفت الاراء فيه وفي الوصية التالية واتفق الراي ان ينظر في ذلك فيما بعد . فاذا وقفوا الى نيل الدستور تصرفوا حسب الاحوال

ثم اوعز الرئيس الى الكاتب ان يبلغ هذا القرار الى شعب الجمعية في مناسبتين وغيرها فاجاب مطيعاً ثم سأل الرئيس « كم هي الساعة »  
فقال الكاتب « الساعة الثانية بعد نصف الليل »

فقال الرئيس « لم يأتنا خبر حتى الساعة من الاخ المقيم في بلدز وقد عودنا ان يرسل الاخبار كل يوم او يومين . »

فقال الكاتب « لم يتأخر عن الارسال فقد اتني رسالته في هذا المساء ولم يتمكن من حلها قبل مجيئي وانا اشتغل الآن في حلها على الارقام ( شيفرا ) »  
فاستأذن رامزان يساعده في حلها لانه خبير بذلك فاذن له . ثم اشار الرئيس ان تعطى

عشر دقائق استراحة ريثما يفرغ الكاتب من حل رموز تلك الرسالة فهضوا وخرجوا لراحة الاستراحة والتفوا جميعاً حول سعيد ورامز وجعلوا يسألونهما عما مرَّ بهما من الأهوال ويتحدثون ويتفاوضون وتناولوا بعض المنعشات . ثم عادوا الى الجلسة فقال الرئيس للكاتب « هل في رسالة اخينا شي جديد ؟ »

فقال « نعم يا حضرة الاخ المرخص »

قال « اقرأها »

فقرأ « خذوا حذرکم ان المسألة اخذت دوراً جديداً انبهوا جيداً ان الطاغية بعث الى ناظم بك قومندان سلانيك ان يفتك بالجمعية ويقتل على الشبهة فمن قدر ان يقبض عليه ويرسله الى سلانيك ارسله والا فهو مفوض بالقتل سريعاً وله الجواز على ذلك - واخشى ان يطلع على محل الجمعية فيباغتكم برجاله اعوذ بالله خذوا حذرکم »

## الفصل الرابع والستون

### الفتك

وكان الكاتب يقرأ والقوم صامتون مبغرتون فلما فرغ من القراءة ضج الحضور وكان اعلامهم صوتاً الملازم ك فانه قال « قد اقرب اجله ... قولوا رحمة الله عليه » فمجبوا من تعبيره وفرحوا بحماسة ولكن الرئيس طلب النظم للجلسة فانتظمت فقال « قد سمعتم ما جاءنا من اخينا في بلدز بشأن ناظم بك فما قولكم ؟ » فقال انور بك « ينبغي ان يذهب هذا الرجل من الوجود بمقتضى قرارنا الاخير » فقال الرئيس « ان هذا العمل يستلزم ان يكون في الجمعية فدائيون يبذلون ارواحهم في هذا السبيل كما في سائر الجمعيات السياسية في اوربا ونحن لم نعود ذلك بعد فينبغي ان ندبر تدبيراً جديداً تسير عليه »

فوقف رامز وقال « ان ناظم هذا اساءني وانا اولى الناس بقتله »

فتصدى الملازم ك وضحك وهو يقول « لا تتعد يا رامز على ما ليس من شأنك . انما انت اهل لكتابة المقالات ونظم الاشعار فاذا احتجنا الى ذلك يوماً ما فلا غنى لنا عنك . . اما اعدام هذا الرجل فهو عليّ اقول ذلك واطلبه بالحاح . انا اعدم ناظم من الوجود غداً »

فأعجب الجميع بمروأته وشجاعته وثبات جاشه وقال له الرئيس « تعهد بقتل ناظم ؟ »

قال بدون تردد « نعم »

قال « فانت اول فدائي في سبيل الدستور فاذا بقيت حياً فلك الفضل يتناقله الناس وليس في الاحياء من العثمانيين من عمل عملك . واذا مت فليس في الاموات منهم من سبقك الى ذلك »

ونهض الرئيس وناداه اليه فقبله في راسه ودعاه ليحفظه الله من ذلك الخطر فقال الشاب « لم اقدم على هذا العمل وانا خائف من الموت . لا بد من الخطر في سبيل الحرية فاذا مت اذكروني عند اهلي »

ثم اجتمعوا جميعاً في وسط القاعة حول القرآن والانجيل والمسند وأقسموا على الثبات والسكران حتى يقضي الله بما يشاء وودعوا بعضهم بعضاً وقد قرب الفجر واخذوا في الخروج من باب سري غير الذي دخلوا منه يوءدي الى زقاق ضيق لا يظن له احد وهم في ذلك استوقفهم احد حراس المحفل فرجعوا فقال « شاهدت رجلاً متكرراً اكثر من المرور ذهاباً واياباً في الشارع المؤدي الى المحفل في هذه الليلة . ويظهر من مشيته وحركاته انه ناظم بك القومندان او رجل يشبهه »

فلما سمعوا قوله اجفل رامز والتفت ابوه اليه وقال له « الم اقل لك انه سيراقب خطواتك فاحذر منه ؟ »

فمد الضابط الملازم يده اليهم وقال « لاتعبوا انفسكم بالخطر من هذا الملعون فانه لن يملك فرصة يستفيد بها من معرفة مكاننا ولا ان يطلع احداً على ما عمله . . قولوا رحمه الله »

فتمس القوم عند اظهار هذه البسالة وقالوا له « بورك فيك من فدائي شريف ووقاك الله غائلة الظالمين . وجعلك قدوة اقرانك في هذا السبيل . الجديد انت اول فدائي في طلب الدستور » وتسرب القوم من ذلك الاجتماع الى اماكنهم

## الفصل الخامس والستون

### الحريم في بلدز

تركنا شيرين وقد امر عبد الحميد بارسالها الى القادين ج لتحتال في استنطاقها . وكانت هذه القادين في قصر خاص بها مثل سائر القوادين وهن ١٢ قاديناً منهن اربع نساء هن ازواجه الشرعيات ولكل من هؤلاء القوادين قصر خاص فيه دائرة خاصة لها الباشكاتبه والخازنة والمهردار والاسفتجي وعدد من الخدم والخصيان والجواري . ولا تخرج القادين من القصر لسبب من الاسباب



عبد الحميد في اواخر ايامه يقابل وفدأ من الاجانب

واصل القادين في الغالب سرية من السراري المجلوبة الى قصر بلدز . وقد بلغ عدد السراري عنده في الزمن الذي نحن فيه نحو ٣٠٠ سرية . وللسراري قواعد في تربيتهم وتدريبهم . واكثرهن من الشركسة وفيهن الروميات وغيرهن من الاجناس العثمانية الاخرى . والغالب فيهن ان يجلبن صغاراً الى بلدز بالبيع او على سبيل الهدايا من الاهل

او بعض الاعيان. ويندران يقبل عبد الحميد جارية على سبيل الهدية من الاعيان خوفاً من دسيسة او غدر قياساً على مايفعله هو مع سائر الناس  
 ينشأ أولئك السراري في بلدز على قواعد خاصة. فاذا دخلت السرية بلدز نسبت كل ما هو في الخارج فتنسى اهلها واصدقائها. ويتولى تربيتها نساء تعرف الواحدة منهن في اصطلاحهم بباش قلفة. ويرجع كلهم الى والدة سلطنة سيدة دار الحريم. تبقى هذه السرية في المدة الاولى سنتين تتدرب فيهما على ما يسر السلطان من حسن الهندام او الاحاديث او غير ذلك حتى مشيها ووقوفها وجلوسها فانهم يجعلونه على نسق خاص. ويعلمونها بعض الاشعار والاقوال الشعرية ويشقفونها على سرعة الفهم بالرمز وغير ذلك مما يطول شرحه (١)

فاذا احرزت الفتاة قبولاً وظهرت فيها المواهب التي تؤهلها لرضى السلطان سموها «كوزده» فاذا تحطت الرتبة الاولى وحازت الاستحسان سموها «اقبال» فاذا حامت الاقبال صارت قديناً فيفرد لها قصر خاص كما تقدم. لكنها لاتعد زوجة شرعية الا متى توفيت احدى الأزواج الاربع فتحل احدى القوادين محلها حسب اختيار السلطان فيبقى مئات من السراري على اختلاف طبقاتهن يتوقعن لفتة من السلطان. وهن جميعاً مع القوادين والأزواج وما في قصورهن تحت رعاية والدة سلطانه وفي ادارتها واذا توفيت صارت احدى الخوازن او كبيرتهن في مكانها ويسمونها ايضاً «والدة سلطنة»  
 كانه لقب المنصب لالقب النسب

وفي كل قصر من قصور القوادين طائفة من الخصيان والجزاري والسراري للخدمة والتدريب. وعلى الخصيان رئيس يسمونه الباش آغا او قزير آغاسي وقد تداول هذا المنصب غير واحد في زمن عبد الحميد آخرهم نادر آغا وقد تقدم ذكره مراراً وصاحب هذا المنصب من اكبر اصحاب النفوذ والسطوة لثقة السلطان فيه واركانه اليه وقد مرزمن كان الباش آغا فيه اقوى شوكة في الدولة من اكبر الوزراء. ذكروا ان زكي باشا ارادت الدولة ارساله قائداً لعاكرها في طرابلس الغرب فجاء لوداع الباش آغا وهو يومئذ بهرام آغا فدخل عليه وهو في مجلس حافل فوقف بين يديه وقال «يامولاي ان الدولة عينت عبدكم قائداً على عساكرها في طرابلس الغرب ولي امنية القس من عنايتكم بتحقيقها لتكون لي حرزاً من ريب الدهر وهي ثقيل بدمكم الشريفة» فقهقه الآغا وقال له «متى وصل قدركم ان يتعدى رجلي الي يدي»

ويذكر من نوادر الآغا انه خرج الى ظاهر السراي في الوقت الذي وصل الروس فيه الى سان استفانو وهو الوقت الذي كان فيه الفرع الاكبر والسلطان مهتم لما يؤول اليه التخت العثماني الذي اودعه اياه آباؤه واجداداه العظام فدخل عليه الاغا وقال له « لا يهتم مولانا الاعظم فقد خرجت الى ظاهر السراي ونظرت يمينا وشمالا فوجدت جميع ما انتهى اليه بصري هو ملك جلالتك فلا تزعل فانه يكفيننا »

ومن ادلة نفوذ اولئك الخصيان ان بهرام هذا هو الذي منع عبدالمجيد من ارسال جنود عثماني الى مصر في اثناء الحوادث العربية وكانت انكسرتا قدا وعزت اليه ان يفعل ذلك ليحتل مصر مكانها فزعم الاغا المذكور ان السلطان اذا ارسل جنودا الى مصر لم يبق في بلد من يحافظ على حياته

وتحت الباش آغا من الخصيان طبقة المصاحيين واشهر منهم جماعة كبيرة كان لهم شأن في زمن هذا الطاغية مما يضيق عنه المكان

## الفصل السادس والستون

### شيرين والقادين

دخلت شيرين الى قصر القادين ج فبهرها ما فيه من الرياش الفاخر الثمين واستغربت كثرة من يجول في عرصانه من الخدم والخصيان والجواري. ومشى بها الاغا حتى ادخلها القصر ونساؤه وجواريه يرفلن بالالبسة الفاخرة بلا حجاب ولا نقاب وفيهن البارعات بالجمال. ولاغرو فانهن منتقيات من الوف من الجواري حملن للانجبار بالجمال وخصصن لرضى سلطان آل عثمان صاحب الشوكة والاقنتدار في ذلك العهد والناس يتسابقون الى الارتزاق بما يرضيه

لم يقع نظر شيرين على اجمل من هنالك ولم تكن تجهل الغرض من جمع تلك الانفس هناك وكيف انها جمعت لرضى شخص واحد هو من اشر الخلق فتألمت في داخلها لكنها شغلت بالنظر الى ما بين يديها من الفتيات وهن شغلن بها وان نفرن منها لانها غريبة ويندر ان يدخل تلك القصور احد من الغرباء رجالا ولا نساء. وهن اكثر استئناسا بالعبيد والخصيان مما بتلك الفتاة رغم ما في وجهها من الدعة واللطف

وصلت شيرين الى باحة في ذلك القصر كانت القادين ج قد انكسرت فيها على مقعد مكسو بالسجاد وتمددت بغير كلفة او حذر وبين يديها المهرج المضحك كاغدخانه امامي وغيره من الخصيان الذين اتقنوا بعض اسباب اللهو من الالعب ونحوها

فلما اطل نادر آغا على تلك الباحة وشعر الجوارى والخصيان بقدمه تنافروا  
وتفرقوا في دهاليز القصر تهيئاً من سيدهم وولي امرهم . اما القادين فلما انبتت بقدم  
الباش آغا اعتدات في مجاسها وابتسمت له فدخل وحيماً واوماً الى شيرين كأنه يقدمها  
اليها وقال « اعرف اليك هذه الفتاة واسمها شيرين وقد امر مولانا البادشاه ان تكون  
ضيفتك مبالغة في اكرامها ورغبة في استئناسها »

فتحفظت القادين لقيام اظهاراً لاحترامها امر الخليفة وقالت « كلنا عبيد امير  
المؤمنين غارقون في نعمه وآلائه » والتفتت الى شيرين ومدت يدها فصاحتها وامرتها  
بالجلوس وقالت « لقد اتيت اهلاً ووطئاً سهلاً - انزلي على الرحب والسعة »  
فخبجات شيرين من هذا الاطراء واستأنست بالقادين وكادت وحشتها تذهب . اما  
نادر آغا فانه تحول عنهما وهو يقول للقادين « لم تبق حاجة الى التوصية بعد ان اخبرتك  
برغبة امير المؤمنين . »

وحلما خرج تراجع الجوارى من الدهاليز الى الدار والبطرظاهر فيهن يتلاهين بكل  
النقول كالفستق وغيره او يضع اللادن يتضحكن ويتغامزن وينهن البارعات في الجمال  
وقد ارخين شعورهن على غير كلفة . وبعضهن اختص بحمل ما تلهو به القادين لقتل  
الوقت فاحداهن وكنت بتربية بغاء جميل اللون اتقن التقليد واخرى تلاعب قطعة  
جميلة من قسط انقره وهو ضرب من السنابير حسن الشعر جميل الالوان . واخرى  
تحمل ورق اللعب او غيره من اسباب اللهو . ولما راى شيرين اخذن ينفرن فيها ويتساءلن  
من عسى ان تكون وايس عليتها ثياب الجوارى اول قدمهن ولا عهدتها في القصر من  
قبل ولا هي كوزدة ولا اقبال . على انهن ابئن ينتظرن ما يبدو من امرها وهن  
لاهيات مسرورات . الا القادين فانها مع ما اظهرته من البشاشة والاستئناس بضيفتها  
كانت الهواجس مستترة بين اسرتها لما قام في نفسها من الشك في حب عبد الحميد لها  
رغم ما اظهره بالامس من رجوعه الى سابق عهده معها . ولم يفها انه انما اظهر ذلك  
تملقاً لها حتى تقضي ما في نفسه لكن حبها له كان يخدمها حتى تصدق دعواه وتتوهم انه  
يحبها وما زالت ترجو نيل بغيها وتقديماً متى وضعت حملها فاذا كان غلاماً ارتفعت  
مراثيها »

اما شيرين فلما رأت ما يحدث بها من اسباب اللهو والقصف نفر قلبها من تلك  
الجلسة لسكنها تجلدت وسكنت . واحست القادين بوحشتها وهي تريد ان تملقها للغرض  
المقصود من مجيئها خدمة لاغراض مولاهما فهشت لها وقالت « اراك مشعرة بالوحشة

لانك في وسط لم تتعوديه لكنك لا تلبشين ان تألفيه . وقد سرني اختصاص امير المؤمنين هذا القصر بنزولك فيه اذ جعلك ضيفة علي وهذا من حسن حظي وارجوان تتحقتي سروري بقربك لما اقراء في عيالك من آيات اللطف والذكاء فعمى ان تكوني سلوة لي في وحدتي - والان ينبغي لي ان ابذل جهدي في تسليتك « واومات الى جارية جانية بقرب مقعدها تلاعب قطة جميلة فهضت ودفعت القطة اليها فتناولتها القادين وادتها من خدها وجعلت تتلذذ بنعومة شعرها اذا لمس خدها وهي تخاطب الجارية قائلة « احب ان ارى الخازنة »

فاسرعت الجارية ثم عادت والخازنة وراها . وهي امراة كهنة كانت القادين تحبها وتثق بها وتعول عليها واصلاها من البانيا وطن شيرين وقد جيء بها الى بلدز وشبت هناك وارتقت حتى صارت خازنة القادين ج وكانت هذه تقربها وتركن اليها باسرارها وتعدها صديقة لها . فاحبت ان تستعين بها على اجتذاب قلب شيرين للغرض المقصود من نزولها هناك . فلما جاءت في تلك الساعة قدمتها الى شيرين قائلة « هذه خازنتي وصديقتي فطينة وهي من بلدك لان اصلها من جهات منا-تير »

فصاغتها شيرين وتفردت فيها فرات الجمال لا يزال بادياً في عيهاها وملامح الالبانيين ظاهرة فيها فاحست بارتياح الى رؤيتها وتحركت لتحييها لها مجلساً فاذا بالقادين تخاطبها قائلة « قد دعوتك لاعرفك الى ضيفتنا ولدي تساعديني في تهية ما يسرها فدبري ما تريبه »

فذهبت فطينة ولم يمض يسير حتى جاء المهرج ( كاغد خانة امامي ) فدنا من القادين وحياتية عسكرية و اشار بعينه نحو شيرين اشارة استفهام مع مداعبة فقالت له القادين « هذه ضيفتنا ينبغي لنا ان نمرها وننسيها الوحشة فاذا كنت لا تستطيع ذلك امض بسلام »

فادار عمامته حتى مالت على اذنه اليمنى وقال « امن اول الكلام خصام ؟ ان هذه الجميلة ان لم يعجبها كلامي لا بد ان تضحك من رشاقة قوامي - وحسن هندامي .. ولكن اذا امرت مولانا بمن يغنيننا او يرقصنا كان ذلك ادعى الى الانبساط »

فاجبها ذكر الرقص والغناء فاشارت الى الخازنة فصت وبعده قليل جاءت فتاة طويلة القامة عليها لبس خاص بالراقصات وحول زنديها الاساور والدمالج تحمل دفاً تنقر عاياه وترقص ومعها عوادة اخذت تسوي عودها وقد جلست الاربعاء على البساط وجعلت تنقر تنقرأ يناسب حركات الرقص . وبذلت كل واحدة جهدها في اتقان ما عهد

اليها والقادين تلاطف شيرين بالحديث عن حركات الرقص او الحان الغناء واكثره من اللحن التركي والرومي وشيرين تظهر امتنانها من ذلك التلاطف . لكن القادين ادركت بفراستها ان ذلك لم يشغلها عن هواجسها فاشارت باخراج القوم وقالت لشيرين « يظهر انك لم تطربني لهذه الانعام فان عندنا جارية تقلد كل صوت من اصوات الحيوانات الالهية كالديك والكلب والماعز وغيرها » واومات الى جارية سوداء هناك فسمعت شيرين صوتاً كأنه صياح الديك فاجفقت والتفتت الى جهة الصوت فرأت جارية تحمل بيغاء فظنتها تحمل ديكاً فاحفظت القادين انها تتوهم ذلك فقالت « اطنك تحسبين ديكاً يصبح وهو صوت تلك الجارية » واشارت اليها بخفات وهي تقلد الديك في مشيتها ثم غيرت مشيتها الى ما يشبه الكلب واخذت في العواء ثم قلدت الفرس والحمار وقد علت القهقهة . فشاركتهم شيرين لكنها كانت تنظر الى ذلك اللهمو نظراً للاعتبار فضلاً عما شغل خاطرهما من امر رامز ورغبتها في معرفة مكانه . وكانت لمارات رغبة القادين في مؤانستها قد عازمت على استخدامها في استطلاع خبره او الوصول اليه

## الفصل السابع والستون

### الشكوى

ولم تكن القادين ج من المنهمكات في اللهو او اللعب مثل سائر القوادين ولكنها قلتهن في ما يرغبن فيه من القصف ولو تركت لنفسها لكانت اقرب الى الرزانة والتعقل والدهاء . ولكن للوسط تأثيراً في الاخلاق والاطوار . وما دار الحريم في بلدز الا ملهى لعبد الحميد لا يأتيه الا اذا اراد ان يلهو فتتجه الافكار الى هذا الغرض . وما شأنك في نساء لا عمل لهن غير الاكل والشرب وهن في الغالب جاهلات ؟ بماذا يقضين اوقتهن ان لم يكن بالالعب والغناء والرقص وتربية السنابير والطيور والتعامل بالاكل او المضع او الاحاديث الفارغة عن الجان والعمقاريت — ذلك كان شأن النساء في بلدز الا القادين ج فانها كانت اقربهن الى الرزانة والتعقل فادركت ان شيرين لم يفرحها ذلك العمل فامسكت يدها وانهمضتها وهي تقول « هلم بنا الى غرفتي »

نهضت شيرين ومشت حتى دخلت دهليز القصر وشاهدت ما هناك من التحف الثمينة والفرش الوثير وتذكرت ان عند عبد الحميد ١٢ قديناً لكل منهم قصر مثل هذا بفرشه واثائه وخدمه وخصيانه غير قصوره الاخرى وغير ما في بلدز من منازل الحاشية والياوران والمشائخ وغيرهم وناهيك بالحراس الالبان . فام تعد تستغرب ما كانت تسمعه من الاحرار في عرض انتقادهم المايين ان في تلك القصور خمسة الاف انسان وفيهم النساء والجواري والخصيان والياوران و٧٠٠٠ جندي من الالبان . وان تفقأترا ٣٥٠٠٠ ليرة عثمانية في الشهر وانهم يهيئون كل ليلة ١٢٠٠ مائدة ( طباية )<sup>(١)</sup> تفرق في القصور وغيرها ويبقى من الاطعمة ما يقتات به مئات ثم يوزع باقيه في بعض العائلات فلما تصورت ذلك اسفت كيف يتعم الظالمون باموال المظلومين الارباء وكيف يسود رجل سفاح كعبد الحميد فيقبض على رجل حر نزيه كرامز وامثاله - واحست عند تذكرها راءاً بقشعريرة وهب جسمها خوفاً عليه لئلا يكون قد اصابه سوء وعزمت ان تخاطب القادين بشأنه في اول فرصة - حتى اذا وصانا الى غرفة القادين الخصوصية دعته الى الجلوس على مقعد مطعم بالعاج بين يدي سرير مذهب يحيط به ستائر المطرزة وقد فرشت تلك الغرفة باحسن ما تفرش به غرف الرقاد من السجاد والستائر . وفي صدر الغرفة موقد التدفئة ( صوبا ) من البروسلين نحو موافد المايين الصغير وعليه ساعة مذهبة

جلست شيرين على المقعد بجانب نافذة تطل على الحديقة الداخلية وتشرف على البوسفور عن بعد وجلست القادين الى جانبها وهي ترحب بها وتتلطف في بحاملتها حتى دعته الى تبديل ثيابها وهمت بان تطلب من الاوسنه باشي اعداد بدلة فاخرة فاعتنرت شيرين بانها تشعر بتعب وربما بدلت ثيابها بعد ذلك . وجلست الى المافذة واطلت الى الحديقة فرات ما يسرح هناك من الطيور واكثرها من الحمام فاستغرقت في هواجسها وانقبضت نفسها وتلألاً الدمع في عينيها والقادين تراعيها وتتوقع فرصة تفتح بها الحديث . فلما رات انقباضها قالت « ما بالك يا عزيزتي انى اراك منقبضة النفس واذا كلن دخولك هذا القصر قد ساءك فاني لا احملك على البقاء فيه قهراً »

نفضت شيرين من هذا التوبيخ اللطيف وابتسمت وقد نوردت وجنتها من الحياء وقالت « العفو يا سيدتي .. اني هنا منذ بضعة ايام ولم اشعر بانس وراحة كما شعرت في هذا اليوم منذ رايتك . بالحقيقة انك معدن اللطف والانس .. »

قالت « مالي اراك اذا منقبضة النفس على هذه الصورة ؟ »

فنهدت وسكنت

فادركت القادين انها قاقمة على حبيبها وكان نادر آغا قد افهم القادين كل ما عرفوه عن شيرين حتى تعرف كيف تنصل الى تسقط اسرارها فنجاهلت وقالت « اسمحي لي يا حبيبتى ان اقول بحرية ٥٥٠ ان ما اراه فيك لا يكون الا في المحبين »

فلم تتمالك شيرين عن البكاء فهمت القادين بسمح دموعها وقد اثر فيها منظرها واحست بما تقاسيه لانها جربت مثله بنفسها فاحبت الاستطراق الى الغرض من هذا الطريق فقالت « يظهر ان ظني قد صدق فانت عاشقة و٥٥ »

فاجفلت شيرين من هذا التعبير ومدت كفها نحو فم القادين كأنها تستكشفها عن الكلام حياء وانكاراً فقالت القادين « لا يسؤك انك عاشقة فان الحب ليس عاراً وقد يكون حبك طاهراً ٥٥٥ قولي لا تخفي عني شيئاً اجعليني مستودع سرى وان كانت هذه اول مرة لقيتني بها فاني شعرت بانعطاف نحوك مثل انعطافي على شقيقتي »

فانشرح صدر شيرين لهذا التلطف وحسبت نفسها قد فازت بما تريد لانها انما اظهرت اقباضها بين يدي القادين لعلها تنصل بالحديث الى توسيطها في انقاذ رامز وهي تعتقد انه اسير هناك . فابتسمت وقد خفق قلبها فرحاً بهذا الامل وقالت « انك بالحقيقة اكبر تعزية لي ولا ارى بأساً من الشكوى اليك لعلك تستطيعين التفريج عني بما لك من النفوذ والدالة »

فتطاولت القادين نحوها وقالت « قولي لا تخفي عني شيئاً واكدي اني ابذل جهدي في سبيل راحتك »

قالت « الا تعرفين اسيراً حمل من سلانيك الى يلدز في هذين اليومين ؟ »

قالت « نحن بعيدات عن امثال هذه الاخبار - لا يؤذن لنا بالاطلاع على شيء من ذلك ٥٥ ولكنني استخدم من يأتينا بخبره اكراماً لخاطرك ٥٥ زبديني ايضاحاً » فاستبشرت شيرين وابرقت اسرتها وقالت « ان شاباً من ذوي قرابتي اسمه رامز اتهموه بالدخول في جمعية سرية في سلانيك ووثى به بعض الجواسيس فقبضوا عليه وساقوه الى يلدز منذ بضعة ايام . فلم اتمالك عن اللحاق به حتى يلحقني ما يلحقه او يستطيع انقاذه وقد علمت انه محجور عليه في بعض هذه القصور - سمعت ذلك من السلطان نفسه ولكنني لم اعرف غير ذلك »

فاظهرت القادين الدهشة وقالت « تشرفت بمقابلة البادشا ؟ »

قالت « نعم تشرفت بلثول بين يديه .. »  
 قالت « انه حظ يندر ان يوفق اليه النساء وبظهر ان جلالاته عالم بما بينك وبين  
 رامز من القربى .. »

قالت « نعم هو عالم .. بظاهر ان الجواسيس اطعموه على خبري معه .. »  
 فظهرت الاستغراب وقالت « لا توأخذيني على كثرة استنائي .. ما الذي دعك الى  
 مقابلة الذات الشاهانية ؟ »

قالت « دعائي الى ذلك كما قلت لك رغبتني في الدفاع عن رامز والتصريح للسلطان  
 بما يجول في خاطري من امر الدولة وما يحدق بها من الاخطار اذا لم يتداركها جلالاته  
 بالدستور .. »

فاجفلت القادين وتراجعت عند سماع اسم الدستور وقالت « قات له ذلك ؟  
 وماذا قال لك ؟ »

قالت « اظهر لي كل ارتياح وآسني لكنه طاب الي ان اخبره عن اعضاء جمعية  
 الاتحاد والترقي القائمة بالمطالبة بالدستور في سلانيك ورامز واحد منهم .. فاعتذرت  
 بأني لا اعرف منهم احداً .. فهددني بانني اذا لم ابح له باسمائهم كان رامز في خطر على  
 حياته واني اذا بحثت انقذته من القتل »

فبادرتها القادين بالسؤال « وماذا فعلت لم تجيبي ؟ »  
 فهزت راسها هز الانكار وقالت « كلاً .. هي اني اعرف احداً منهم فهل من  
 المرواة ان افشي خبرهم .. واعرضهم للخطر ؟ »

فابتسمت القادين ابتسام الاعجاب وظهرت عدم رغبتها في الاطلاع على شيء من  
 ذلك وقالت « لله درك من جسورة حازمة اني لم اعهد مثل ذلك في النساء من قبل ..  
 تعرضين نفسك وخطيبك لخطر القتل محافظة على عهد بعض الناس ! انها مناقب كبار  
 النفوس » وخفضت صوتها وتلفتت يميناً وشمالاً كأنها تحاذر ان يسمعها احد وقالت  
 « والحق يقال ان بين اعضاء هذه الجمعية جماعة من العقلاء والعلماء .. ولكن بينهم ايضاً  
 جماعة من الضعفاء المنافقين يستفعلون باذى غيرهم .. ولو كانوا كلهم مثل رامز ومثلك  
 لكانوا .. » وسكت وتحفزت للوقوف وهي تقول « الا نهضين للطعام ؟ »

فشق عليها قطع الحديث قبل اتمامه لعلها تتوصل الى طلب مساعدتها فاعتذرت عن  
 الطعام انها غير جائعة فقالت القادين « الا تأكلين بعض الفاكهة ؟ »  
 اجابت « كجا تشائين » وظلت قاعدة فعادت القادين الى الجلوس وقالت « لم تقولي

لي ماهي الخدمة التي تطلبيها مني «  
 قالت « لم سبق لي مع ذكائك من حاجة الى التصريح »  
 فضحكت وقالت « طبعاً انت تطلبين معرفة مقرّ رامز وتبْحِثين عن الطريق  
 الى نجاته »  
 قالت « نعم هذا كل ما اطلبه واذا كنت تستطيعين ان تساعديني على ذلك لا انسى  
 فضلك طول حياتي »  
 قالت « اذا استطعته فاني افعله من كل قلمي ولا فضل لي في شيء من ذلك .. »  
 وتضحكت واظهرت انها تهتم بالكلام ويمنعها الحياء  
 فقالت لها شيرين « ماذا تريدين .. قولي يا سيدتي .. العلك تربن مانعاً من دخولك  
 في هذا الامر فاذا كنت .. »  
 فقطعت كلامها قائلة « كلا .. ولكنني اكنم امرأ لا اجد من ابيح به اليه ..  
 وقد رايت فيك ... » وبلعت ريقها واطرقت لحظة ثم وقفت وهي تتجاهل ما بدر  
 منها وقالت « سأبحث الليلة عن خبر رامز واطلعك عليه .. افعل ذلك من كل قلمي .. »  
 وصرقت فجاءت جارية سوداء فامرتها ان تعد المائدة وتكثّر عليها من الفاكهة وان تدعو  
 الخازنة فطينة . وامسكت شيرين يدها وانقضتها الى المائدة فمشت معها وهي تتوقع ان  
 تسمع منها تمة الحديث وان تبوح لها بسرها والقادين تغالطها وكلما اقترب حديثها من  
 تلك النقطة غيرته واستأنفت الموضوع . فادركت شيرين انها كانت تريد ان تكشفها  
 بسر وندمت فسكتت

## الفصل الثامن والستون

### الاستنطاق

قضنا بقية ذلك النهار في امثال ذلك وشيرين تزداد استئناساً بالقادين وخازنتها  
 وظلت عاقلة الذهن بما هممت ان تكشفها به وتوهمت ان القادين عدلت عن المكاشفة  
 خوفاً من ضياع سرها لقلّة ثقتها بها فاجلت ذلك الى فرصة اخرى . ولما مالت  
 الشمس الى المغرب وانقبضت الطبيعة لفرأقها انقبضت نفس شيرين وغلبت عليها السوء وبادء

وايس انقل على قلب المحب المشتاق من ساعة الغروب فانها تز يده وحشة والماء . ولم  
تسا شيرين ان يبدو انقباضها لدى القادين ولا خزنتها فالتفت الخلو في غرفة  
اعدوها لها واظهرت انها تعبئة تطلب الرقاد لحظة

فلما خات بنفسها في تلك الغرفة اخذت تتأمل بما هي فيه وماذا عسى ان يكون  
من امر رامز هل هو هناك وهل يمكن انقاذه - على انها كانت ترجو من وعد القادين  
خيراً كثيراً ولم يخامرها شك في صدقها وخصوصاً بعد ان راتها تم بمكاشفتها عن  
سرها وهي لم تقابلها من قبل . قضت ساعة في هذه الهواجس وقد اطلمت الدنيا وانبرت  
مصايح القصر الا غرفتها فلم يشأ الفراش ان يزعجها بدخوله لانه يحسبها نائمة

وهي في ذلك سمعت وقع اقدم في ارض الغرفة فرفعت راسها لترى من القادم  
فتبينت في تلك الظلمة القادين داخلة وهي تخفف الوطاء لئلا توقظها فحركت شيرين  
في سريرها دلالة على انها مستيقظة . فتقدمت القادين نحوها بسرعة واكبت عليها  
وجعات تقبلها ترحيباً بها . جلست شيرين في الفراش وقد احست بحرارة تلك القبلات  
ولم يبق عندها شك في محبة تلك المرأة فبادرتها القادين بالسؤال عن صحتها فقالت  
« اني في خير اشكر فضلك ؟ »

قالت « لا تظني اني نسيت وعدي اباك للبحث عن حبيبك ولكنني لا استطيع  
ذلك الا في فرصة مناسبة ولم تتأت لي الا الان .. ولا اقدر ان افعل ذلك الا سرّاً  
عن كل انسان .. وقد يكون ذلك مستحيلاً علي لو لم اوفق الى فرصة لم يوفق اليها  
سواي من القوادين .. » قالت ذلك ونهدت

فاحست شيرين بميل القادين الى الشكوى والمكاشفة فقالت لها « منلك يتنهد  
ويشكو ايضاً ؟ انك اشرف امراة في المملكة العثمانية لانك من نساء السلطان . وفي  
المملكة ملايين من النساء يحسدنك على مقامك ومع ذلك فانك تتواهين .. »

فنهدت نائبة وقالت همساً في تلك الظلمة « ايس في المملكة العثمانية اشقى لمن  
نساء السلطان . حتى جوارينا فانهم اسعد حالاً منا . »

فاستغربت شيرين هذه الشكوى واراوت ان تعترض فبادرتها القادين قائلة « هل  
في الدنيا ائمن من الحرية ؟ »

فانتعشت شيرين عند ذكر الحرية وقالت « كلا »

فقالت « الحرية التي يتمتع بها كلابنا وسنانيرنا وطيورنا ودوابنا حتى الناموس  
والذباب - ان هذه الحرية نحن محرومون منها دون سائر البشر . ان المرأة متى صارت

قاديناً دفنت في قصرها لا تخرج منه حتى الى الحديقة التي تربتها من هذه النافذة . وهي فوق ذلك عرضة للخطر والغضب وسوء الظن . تسمى الجارية في بلدز في الرقي وارقي درجة يمكن ان تبلغها ان تصير قاديناً من نساء السلطان فاذا وصلت الى هذه الرتبة ندمت على ماضيها لانها تفقد حريتها - حرية الذهاب والمجيء وبمنع عنها التمتع بالطبيعة . الحرية آه الحرية ... » وسكنت كأنها غصت بريقها

فتأثرت شيرين من هذا القول ووجدت للكلام مجالاً فقالت « آه ياسيدي ... الحرية ! هذه هي طلبة الاحرار الذين يحاربهم السلطان ويبحث عنهم ويتعمد قتلهم » ولما قالت ذلك خافت ان تكون قد تطوحت لكنها ما لبثت ان سمعت القادين تقول « السلطان ! انه لا يريد ان يكون احدٌ حرّاً حتى هو نفسه فانه مقيد في هذه القصور كما تعلمين ولكن ما العمل ... اعلمي يا شيرين اني تسرعت في مكاشفتك فارجو ان لا اكون قد اخطأ ظني فيك .. اني ظننت فيك المحبة وصدق المودة فهل انا مخنطة بهذا الظن ؟ »

فبادرتها شيرين قائلة « ان ظنك في محله انت تخاطبين فتاة تحبك وتعمل عليك ... ويا حبذا لو استطيع ان اخدمك في شيء »

فنهضت القادين حتى وصلت الى الباب وتلفتت خارجه كأنها تبحث عن احد هناك ثم عادت وقالت لها « ان اكبر خدمة تقدرين على تأديتها لي هي ان تنقذيني من هذا السجن .. هل يمن الزمان عليّ بذلك يا ترى ؟ »

وكانت الغرفة مظلمة الا بصيص من النور كان يدخل من شقوق الباب والنوافذ والقادين تتكلم همساً وشيرين تستغرب ما تسمعه وقد داخلها الشك لحظة في صدقها لكنها لما رأتها تكشف لها سرها ولا تطلب منها كشف خبرها غلب عليها تصديقها فقالت « اذا اتيح لي الخروج من هذا الاسر مع رامنز تقي اني باذلة جهدي في ما تريدن - ان القوم العاملين مع رامنز على نيل الحرية اذا نجحوا - وهم ناجحون باذن الله - كنت في مقدمة الفازين .. انا افديك بروحي »

فاظهرت القادين انها صدقتها وقالت « صدقت في ما تقولين بالنظر الى حبيبك واليك واما بالنظر الى سائر اعضاء تلك الجمعية فلا ... انا اعلم منك بذلك ... كثيراً ما سمعنا بجمعيات قامت تطلب بالدستور او الحرية ثم رايناهم يأتون ويسلمون انفسهم للسلطان طمعاً بالمنصب وانما يضم منهم الاحرار الصادقون الذين انما يعملون لخدمة الحقيقة - ولا اظن جمعية سلايك هذه المرة الا مثل سوابقها في باريس وغيرها -

ومع ذلك دعينا نؤمن بنجاحها ... » ثم قطعت الحديد وانتقلت الى سواء لتوهم شيرين انها لا تطالبها بكشف السر - وذلك ادعى الى الحصول عليه - فقالت « قد شردنا عن الموضوع الذي جئت من اجله - فاول كل شيء اني واثقة بمحافظتك على السر - ثم اني جئت لاعتذر لك عن تأخري في استنطاق خبر حبيبيك لاني لا استطيع ان اظاهر بذلك ولا بد من اغتنام الفرصة . » وسكنت

فقالت شيرين « الم توفقي الى فرصة بعد ؟ »

قالت « سنحت لي فرصة لم يوفق اليها غيري .. قلت لك ان نساء السلطان لا يؤذن لهن بالخروج من قصورهن ولا ان يأتي اليهن احد غير الخصيان والجواري ولذلك رايتنا نشغل أنفسنا بتلك الالعب الصبانية كمهارة الاديالك وملاعبة السنابير - الا انا فان السلطان اذن اذنأ فوق العادة لطبيب من اطباء المايين ان يتردد الينا منذ بضعة ايام يسألني عن صحتي وكنت اشكو انحرافاً عاجلي من اجله - فهذا الطبيب اشعر انه صادق وقد غمرته بالجوائز والنعم - وانا مع ذلك مستغربة الاذن له بالدخول الى هذا القصر ولا اجسر على مخاطبته بشأنك لئلا اعرض نفسي للخطر ولمكنني رايت رايأ اظنك توافقيني عليه وذلك ان اعرفه اليك بحجة انك منحرفة المزاج فمتي اتى للاستفهام منك عما تشكين تدرجي بالحديث حتى تسأليه عن محل رامنز. ولا بأس عليك اذا فعلت ذلك فان السلطان نفسه يعلم قلقك عليه. فلعله يجبرك عن مكانه واذا افلحت فاذكريني بالخبر - وها انا الآن ذاهبة وسأرسل الخادم ايضياً هذه الغرفة فامكنني في الفراش وانا اشبع في القصر انك منحرفة الصحة » وخرجت . ثم جاء الخادم واطاء الغرفة وهي ساكنة في الفراش كالمریضة وما بها مرض وقد عادت اليها هواجسها واحست ان القادين تحبها حباً صادقاً وتثق بها ثقة كبرى ورات انها قصرت في ايفائها حق الصداقة لانها ساءت الظن بها وخافت مكاشفتها باسرارها

اما القادين فقد اتقت حيلها حتى اوهمت شيرين انها لا يهمنها سرٌ غيرها وتقدمت هي بكشف سرها لها حتى جعلتها تسمى من نفسها لمكاشفتها باسرارها وادركت بدهائها ان شيرين تنظر اول اجتماع تجتمع فيه بالقادين لتبيح لها باسرارها في مقابل ما فعلته هي

ومكثت شيرين في الفراش ساعات حتى آن الرقاد ولم يأت الطبيب اذ لم يكن على موعد من الحجيء وقد اوغز اليه نادراً غا ان يقتصر عن القادين هذين اليومين اذ لم تبقى حاجة الى التعجيل - وفي الصباح التالي بكرت القادين الى شيرين لتعتذر لها عن

تختلف الطيب عن الحضور في ذلك اليوم وهي تحسب له عذراً في الغياب وانها بعثت اليه من يستقدمه وجلست بجانب سرير شيرين وقالت « تأملي يا عزيزتي مقدار تقيدينا - اني لا اجسر ان استقدم الطيب الا سرا ولو علم السلطان بذلك لبالغ في العقاب وقد يعاقب بالقتل لاقل الذنوب . . ان هذا البوسفور مملوء بجثث القتلى من نساء والرجال » قالت ذلك وهي تخفض صوتها وتلتفت

فلما سمعتها شيرين تقول ذلك عزمت على التصريح لها ببعض الشيء فقالت « اذا كنت تشكين من اقامتك هنا فاتركي هذه القصور واخرجي الى بلاد الحرية » فقالت « الى اين اذهب وانا غريبة وحيدة؟ واعترف لك اني لا اثق بالاحرار فانهم كثيراً ما رجعوا وخافوا . »

فقطعت شيرين كلامها قائلة « انهم ياسيدي اليوم غير ما كانوا عليه من قبل »

فهزت راسها استخفافاً وقالت « انهم هم لم يتغيروا .. »

قالت « اؤكد لك انهم هذه المرة غير ما كانوا عليه قبلاً وانا من اعلم الناس بهم » فاستبشرت القادين بقرب الوصول الى المقصود فقالت « يا حبيبتي ان امثالنا لا يمكنه الاطلاع على حقيقة الرجال . . لم يظهر بين الاحرار المقاومين للظلم اضخم من مراد بك وهو الآن في الاستانة بين الاخصاء المقربين .. »

فابتسمت شيرين ابتسام عالم بامور هامة يجهلها مخاطبه وقالت « قات لك ان اعضاء جمعية الاتحاد والترقي هذه المرة يختلفون عنهم في المرات الماضية اختلافاً كبيراً - ولولا حرمة الاسرار لذكرت لك بعضهم فتتقين بقولي وتعلمين اني اقول لك الصدق .. » فاطرقت القادين لحظة ثم رفعت بصرها الى شيرين وفي عينيها ملامح العتاب وقالت « صدقت ينبغي للانسان ان يكون حريصاً على سره ولا يفرط به كما فعلت انا.. ولكنني وثقت بك ولم اندم على ما فرطت به لاني شعرت بلذة الراحة »

فتوردت وجنتا شيرين من الخجل واحست انها اخطأت بما قالته . واذا لم يكن في نيتها مكاشفة القادين بشيء لم يكن ينبغي لها ان تذكر شيئاً من هذا القبيل فانبتكت في امرها ولم تجدها مخرجاً الا بالمكاشفة لكنها قالت « قد اخطأت ياسيدي فهم مرادي .. ومع ذلك فقد قبلت توبيخك . فاننا لم اقل اني اضن عليك بسر اكمته اذا كان ذلك السر لي واما هذا السر فهو لرامز وقد اطلعني عليه ونحن نتشاكى ولا يخفي عليك ذلك وهو واثق انه لا يخرج من في لاحد فاذا اخرجته اعد عملي خيانة. واما الاسرار التي هي لي فلا اخفي عنك شيئاً منها »

فاجابتها وهي تساعدها على الاعتذار « ان قدرك قد ارتفع في عيني الآن عما كان عليه قبلاً .. ان الانسان يجب ان يكون اميناً صادقاً والا فهو من الاشرار وحاشاك ان تكوني منهم — وهذا يؤكد لي ان ما كاشفتك به الآن يبقى محفوظاً عن كل انسان .. لانظني اني اطلب منك ان تبيحي باسرار الجمعية ولكنني اجادلك في حقيقة هذه الجمعية فاحب ان اعرف الفرق بين اعضائها الآن واعضائها في الامس »

فانشرح صدر شيرين لذلك التخلص واحست بنزاهة تلك المرأة وكبر نفسها وسعة صدرها وتعقلها حتى هان عليها ان تضع كل اسرارها بين يديها . على انها جاملتها قائلة « الفرق المهم ان اعضاء الجمعية اليوم اكثرهم من ضباط الجيش العثماني وكانوا قبلاً من الكتاب والادباء .. ولا يلبث الضباط كلهم ان ينتظموا في سلكها فاذا فعلوا ذلك فيماذا يطارد هم عبد الحميد؟ »

فاظهرت القادين الاستغراب وقالت « هل انت على ثقة مما تقولين؟ .. قد سمعت شيئاً من ذلك .. ولكنهم يقولون ان بعض الضباط الصغار المطرودين من الجيش انتظموا في الجمعية »

فقال « كلا ياسيديتي .. ان المنتظمين في الجمعية اليوم هم اهم ضباط الجند من امراء الايات فمن دونهم وهم في خدمتهم العسكرية والجند تحت اوامرهم متى شاءوا وانا اعرف كثيرين منهم » قالت ذلك وتساعد الدم الى وجهها ندماً على تصريحها انها تعرف كثيرين منهم

## الفصل التاسع والستون

الدكتور . ن .

اما القادين فاكتفت في تلك الساعة بهذا التصريح اذ تحققت ان سر الجمعية عند شيرين وعزمت على اتخاذ الوسائل لاستنطاقها فيما بعد فقالت « آراك تغالين نفسك بين التصريح والكتمان فانا اتوسل اليك ان تكفي عن التصريح ... وكاني اسمع انعطاً في الدار لعل الطيب اتى » قالت ذلك وخرجت ثم عادت مبغوتة وقالت « لم يات الطيب لانه امر ان لا يدخل قصرى في هذا اليوم ولكنني سأبعث اليه ان ياتي متنكراً في هذا

المساء « قالت ذلك وخرجت لشأنها. فأتت الخازنة لمسيرة شيرين ومحابتنا وتفاوضنا في شؤون مختلفة

فلما امسى المساء ذهب اهل القصر الى منامهم وظلت القادين ساهرة في غرفة شيرين وبعثت الخازنة تترقب وصول الطبيب وتأتي به اليهما . فلما قرب نصف الليل أتت الخازنة تخبرها عن قدومه فأذنت بدخوله ووقفت لاستقباله بالباب فاطل وعليه لباس خدمة القصر فاستقبته مرحبة فأنحني احتراماً وقال « قد أتيت ياسيدي طوعاً لا مكره رغم الخطر الذي اخافه .. فماذا تأمرين »

فأنت على غيرته وقالت « انت تعلم ثقني بمهارتك واعتقادي صدق علاجك وعندى صديقة اصابها انحراف فاحببت ان تكون انت طبيبها » قالت ذلك ودخلت . فقبعتها وهو ينظر نحو السرير فرأى شيرين جالسة فيه فلم يتفرس فيها تأدباً فسبقته القادين في مخاطبتها قائلة « هذا طبيبنا وصديقنا اخبريه عن شكواك ريثما اعود اليكما، وخرجت فاستغرب الطبيب تخليها عنهما وجلس على كرسي بجانب السرير وسأل شيرين عما تشكوه فقالت « اني اشكو من ألم شديد في الراس »

وكان يخاطبها وهو مطرق فلما سمع جوابها اجفل لانه تذكر صوتاً يعرفه فنظر اليها وهي تنظر اليه .. وكان الطبيب في حدود الثلاثين من العمر فلما وقع نظرها عليه اختلج قلبها في صدرها لانه يشبه شخصاً تعرفه في سلاطنة كان صديقاً لرامز فجعل كل منهما ينظر الى صاحبه فبقية هو الى الكلام وان سبقته هي الى المعرفة لكنها خافت التصريح فقال لها « شيرين ؟ »

قالت « نعم .. وانت الست الدكتور . ن . ؟ »

قال « بلى ... ما الذي جاء بك الى هنا؟ » وأشار باصبعه على فمه ان لا ترفع صوتها قالت « جئت لافتش عن رامز » وغلب عليها البكاء ثم قالت وهي تشرق بريقها « اين هو؟ وماذا تفعل انت هنا؟ »

قال بصوت منخفض « انا هنا في مهمة باسم اخواننا استطلع لهم اخبار هذا الطاغية واما رامز .. » وسكت وهو يتردد كأنه يكتفم شيئاً يعرفه فخافت ذلك التردد وقالت وقد شخصت بصرها فيه « اين هو ماذا اصابه؟ قل . قل .. بالله قل . »

قال « تعقلي يا شيرين مثل عهدي فيك لاقص عليك خبره .. » فتطاوت بعنقها نحوه وحدثتها نفسها بسؤال اصاب حبيبها وعلمت ان هذا الطبيب

جاسوس الاحرار في يلدزولم تمالك ان اعادت السؤال والحلت في طلب الجواب فاجابها  
 « علمت مندبضة ايام ان رامزاً اتى يلدزوانه مقيم في قصر مالطة فجعلت اترقب الفرص  
 للذهاب اليه لعلي استطيع انقاذه فلم استطع ذلك الامساء امس بحيلة انسحلتم فلم اجدده هناك »  
 فاقشعر بدنهما وقالت « ابن هو ؟ ابن ذهب ؟ . »  
 قال « لا ادري »

قالت « بل انت تدري . . قل . . هل قتلوه ؟ . »  
 ف اشار اليها ان تخفض صوتها وقال « لا اعلم ابن هو ولا ما فعلوا به ولم اجده  
 احداً من اهل يلدزيعرف خبره . والذي عرفته بعد البحث الدقيق الى ساعة مجيئي انه  
 خرج من ذلك القصر في اواسط الليل منذ يومين بدعوة من الماين ولم يرجع . . »  
 وهز رأسه كأنه يأسف لضياعه

فتحققت شيرين انهم قتلوه خلسة كما قتلوا مئات قبله اما خنقاً او غرقاً او تسميماً  
 ووثبت من السرير رغم ارادتها وهي تقول « قتلوه يا دكتور ! قتلوه ! اظنه ذهب  
 طعماً للأسماك » ولطمت وجهها وبكت  
 فامسكها واجلسها وقال لها « تجلدي يا شيرين ولا تفعلي ما يؤول الى الخطر عاينا  
 جميعاً »

فصاحت اما انا فلا ابالي بما يصيبي بعد رامز ولكنني اخاف عليك فانك ذو نفع  
 للاحرار . . . »

فقال « وانت انفع مني لهم . . هدي روعك . . واذا فرضنا ان اخانا اصيب  
 بسؤ في سبيل الحرية والدستور فهنئاً له . . ان اسمه سيخلد في بطون التاريخ . ويا حبذا  
 يوم انال انا شهادتي في هذا السبيل »

فاطرقت شيرين وقد رجع اليها رشدها واخذت تغالب عواطفها . ومع تفانيها في  
 سبيل الدستور والحرية فان حبها رامزاً غالب على كل ذلك - لم تسمح نفسها ان يكون  
 ضحية الدستور لان المحب لا يرضى ان ينال الدنيا كلها فداء لحبيبه . لكنها ظلت  
 ساكنة ودموعها تتساقط على خديها فعاد الدكتور الى الكلام فقال « على اتا لم  
 تتحقق مصير رامز وقد يكون اقرب الى الحياة منا . . خففي عنك واصبري ان الله مع  
 الصابرين »

وهما في ذلك سمعا وقع خطوات عند الباب فانقبه الدكتور انه فرط في الكلام  
 وخاف ان تكون القادين قد سمعت ما دار بينهما وهناك البلية الكبرى والخطر العظيم

ولم تنتبه شيرين لهذا الخطر فظلت ساكنة  
 اما الدكتور فاعمل فكرته لحظة وكان سريع الخاطر حازماً فظناً ولولا ذلك لم  
 يقبل ان يكون جا-وساً للجمعية في بلدز مدفن الاحرار. ووقف لاستقبال الداخل  
 فاذا هي القادين ج قد دخلت باشة هاشة فانحنى لها باحترام فقالت له « هل عاجلت  
 حبيبتنا شيرين العلاج الشافي »

فاجابت شيرين عنه قائلة « ان العلاج لا يفيد يا سيدتي لانهم قتلوه » وغصت بريقها  
 واستغرب الدكتور تصریحها بذلك للقادين اذ لم يكن يعلم انه دعي لهذه الغاية  
 بعلم القادين فقالت القادين « ماذا تقولين ؟ هل قتلوا رامزاً ٠٠ من قتلوه ؟ »  
 فقالت شيرين « الم تأذني لي ان اسأل الدكتور عنه لعله يطاعني على خبره فقال  
 انه علم بوجوده في قصر مالطة الى منتصف الليل من يومين وانه دعي الى المايين ولم  
 يرجع فهل عندك شك انهم قتلوه ؟ »

فاطرقت القادين وبانت الدهشة في عينها وقالت « ليس من الضروري ان يصح  
 حذرک ولكن ربما كنت مصيبة اذ قد يفعلون ذلك ٠٠ »

## الفصل السبعون

فوز باهر

وكان الدكتور يعمل فكرته في تلافي ما قد يكون من اطلاع القادين على حديثهم  
 فلما رآها سلمت ان عبد الحميد يقتل على الشبهة سرّاً وجهرّاً طرق ذهنه سبيل للنجاة  
 من هذا الباب فقال « هل تعتقدين يا سيدتي ان رامزاً قتل ؟ »

قالت « لا اعتقد ذلك اعتقاداً ثابتاً ولكنهم يفعلون هذا في سبيل صيانة الدولة »  
 قال « اراك تجوزين القتل في هذا السبيل »

قالت « قد جوزه قبلي ما كافيي الفيلسوف »

فاظهر الاهتمام ودعاها الى الجلوس على المقعد فجلست وهي تنظر اليه وتتفرس في  
 وجهه فقال لها « تجوزين القتل في هذا السبيل ولو كان المقتول انت ؟ »

فاجفت وقالت « ماذا تعني ؟ »

قال « اعني سرّاً عظيماً عهد الي منذ ايام وانا اؤجله شفقة عليك »

قالت « تعني انهم ارادوا قتلي »

قال « ارعيني سمعك واستجمعني رشذك واعلمي اني اعرض عليك الحياة بعد

ان حكم عليك بالقتل »

قالت وهي ترتعد « افصح .. لا تخف »

قال « هل عهديت مثلي يدخل على القوادين ويتردد الى قصورهن قبل الآن ؟ »

قالت « كلا »

قال « فما الذي جعل لي هذا الامتياز الآن »

فاطرت واعامت فكرتها واحست كأنها افاقت من سبات وقالت « ثم ماذا ؟ قل . »

قال « اعلمي انك صرت في خطر الموت منذ علم عبد الحميد انك حامل . ولما لم

تفلح الحاضنة باستئاط حملك كلفني بقتلك بالسم خلافة . قد يخطر ببالك الشك في قولي

لكنك تحققين صدقه متى تذكرت تردد هذه الطاغية بشأنك . كم غالطك واهملك ..

ثم هو اجل قتلك لما احتاج اليك في المهمة الاخيرة .. لا اعلم ما الذي يريد منك

ولكنه ما زال يلح علي بانفاذ امره بقتلك الى صباح الامس فامرني ان انقطع عن

قصرك بضعة ايام .. ففعلت واملك اذا تذكرت ما الذي كلفك به بالامس بتحقيقين

صدق قولي »

فتذكرت القادين ما خاطبها به عبد الحميد بشأن استطلاع سر شيرين وهي رغم

حبها له كانت تعتقد غدره مما عرفته من سيرة حياته مع الذين قتلهم من رجاله بعلمها ..

فاطرت حيناً وسبق الى ذهنها صدق الدكتور في قوله وظلت ساكنة

فابتدراها قائلاً « قدرناين في كلامي وربما حدثتك نفسك اني اكذبك وقد

تقايين خبري الى هذا الطاغية .. فانا لا ابالي اذا مت في هذا السيل ولكن موتي لا

ينجيك من القتل فافعلي ما بدالك »

وكانت القادين قد سمعت بعض ما دار بين شيرين والدكتور من الحديث وخصوصاً

قوله انه يتمنى ان يموت كما مات رامز في سيل مصالحة الاحرار وطلب الدستور فغلب

على ظنها صدقه لكنها ارادت ان تثبت من ذلك فقالت « وما الذي يسيء عبد الحميد

من حملي حتى يريد قتلي ؟ »

قال « الست ارمنية الاصل ؟ »

قالت « نعم »

قال « لم تعلمي خوفه من الارمن وكم قتل منهم عفواً ٠٠ وازيدك علماً ان بعض المنجمين تنبأ له ان سقوط دولته سيكون على يد ولد منه تله امرأة ارمنية فلما علم بحملك رغم الوسائل التي اتخذها اصبح همه قتلك وعهد بذلك اليّ فرضيت وانا اؤجل ذلك قصداً لاني اشفتك على صباك »

فقالت « كيف رضيت انت ان ترتكب هذه الجريمة ؟ »

قول « حاشا لله ان افعل ذلك . اني حر صادق لا اقتل النفس البريئة وانما قبالت ليتيسر لي المسكوث في هذه القصور استطلع اخبار الماين لاخواني الاحرار ٠٠ انا ياسيديت جاسوس للاحرار هنا . اقول لك ذلك بكل حرية ولا يفيدك ان تقلي خبري الى هذا الطاغية ولا يهمني اذا نقلته فاني انشرف بالشهادة في هذا السبيل . نحن الوف نطلب الدستور ولو قتل نصفنا في سبيل نيله لان نبالي لان النصف الباقي يناله ويحفظ التاريخ ذكرنا ٠٠ اما انت فانك مقتولة لا محالة لان عبد الحميد يري بقاءك سيئاً لقتله . واذا بقيت حية حتى تلدي فان طفلك يقتل اولاً ثم تقتلين انت - الا اذا قبلت نصحي ونجوت بنفسك ورجعت عن عبادة هذا الظالم وكفرت عن ماضيك بالانحياز الى الاحرار .. هذه نصيحتي لك فافعلي ما تشائين والسلام »

وكان الدكتور يتكلم كأنه صاحب سلطان فكان لكلامه تأثير شديد على القادين حتى اعتقدت صدقه وخافت على حياتها وحياتة جنينها فاطرقت وقد جمد الدم في عروقها وشيرين تسمع ما دار من الحديث وتعجب لهذه الصدفة واغتتمت الفرصة لتأييد قول الدكتور فوجهت كلامها الى القادين وقالت « انظري ياسيديت اني انصح لك ان تصغي الى نصحه . واذا حدثك نفسك بغير ذلك وارتدت نقل خبرنا الى عبد الحميد فقد علمت ان الموت لا يهمننا : اما الدكتور فقد ذكر لك السبب اما انا فهل تظنين اني احب الحياة بعد ذهاب حبيبي رامز ضحية الدستور غدرأ ؟ » قالت ذلك وعادت الى البكاء

فناثرت القادين من كلامها وكانت من اهل الذكاء والدهاء كما علمت ولكن حبها عبد الحميد اعمى بصيرتها فلما داخها الشك في حبه بما سمعته من كلام الدكتور . ن . دها عقلها على ما خادعها به وانه لم يكن يظهر لها الحب الا اذا احتاج اليها في خدمة كما فعل وقت حادثة الارمن وغيرها . وتذكرت تردده في العقد عليها فصح عندها صدق الدكتور في اقواله ولم يبق لديها شك في ذلك فالتفتت اليه وقالت « قد صدقتك يا دكتور فما العمل الان ؟ »

قال « العمل ان تفري من هذه القصور بما خف حمله ومعك شيرين وابقى انا هنا حتى اتم المهمة التي اتيت بها . هذا هو رايني ولا يصح ناجيل فرار كما الى الغد »  
 فنهضت وهي تعمل فذكرتها وقالت « انا ذاهبة لادبر وسيلة للفرار الليلية فامض انت لشأنك وانا ناكرة هذه الفرصة . وسأذكر فضلك ماحييت »  
 فودعهما الدكتور فبكت شيرين لوداعه وتوسلت اليه ان يفر معهما فقال « ان وجودي هنا لازم لمصلحة الجمعية اما انت فتجلدي واصبري وستدور الدائرة على الباغي ولو بعد حين » وخرج

## الفصل الحادي والسبعون

### الفصل الكبير

فلنتركهم يدبرون امر فرارهم ونرجع الى عبد الحميد فإنه اصبح بعد ذهاب رامز وايبه وهو يتوقع ان تصدق حيلته وقد اوشكت ان تنجح لو لم يبادرهم سعيد بوصية مدحت كما رايت . فظل عبد الحميد ينتظر نمرة حياته يومين وهو لا يستقر له قرار وكان يتوقع ان يوافيه ناظم بخبر الجمعية في اليوم التالي فلما ابطأ عليه الخبر جعل ينتحل الاسباب لتأخيره

وهو في ذلك اثناء نادر آغا في الصباح يخبره بفرار القادين ج مع شيرين فاقشعر بدنه واخذ في البحث والاستنطاق حتى قلب يلدز راساً على عقب ولم يبق احد لم يستنطقه . فتبين بعد البحث انها فرت مع فوزي بك احد كبار الياوران وهو رئيس فرقة من حرس الالبان الممهود اليهم حراسة تلك القصور . فاسقط في يده وبث الارصاد والعيون في اطراف المملكة وقد تشام من فرار تلك القادين لما يعتقد من علاقة حملها بحياته فاسودت الدنيا في عينيه واحس بفشل لم يندق مثله . ولم يتوسط النهار حتى اثناء تلغراف من ناظم بك في سلانيك يخبره فيه ان احد اعضاء الجمعية تعمد قتله فاطلق عليه الرصاص فاصابه لكنه لم يموت وان الجمعية اصبحت ذات بأس . ثم اثناء تلغراف آخر ان فدائياً حرراً قتل سامي بك مفتش البوابس وهو ذاهب الى قروشوه . وكان السلطان قد كلفه بالبحث عن رئيس الجمعية والفتك به وتوالت التلغرافات الى المايين باضطراب الاحوال في مكدونيا والباينا وان الناس في خوف شديد

ركان عبد الحميد بتلو هذه التاغرافات وهو في غرفة المطالعة في الماين الصغير كالعادة والباشكاتب بين يديه . وكان يظهر عدم الاكتراث امامه وبشدد عزيمته ليومه انه على ثقة من قدرته . ثم خاف ان يبدو ضعفه فيصبح في خوف على حياته من اعوانه لاعتقاده ان هؤلاء الاعوان لا يطيعونه الا خوفاً من بطشه او طمعاً بما له فاذا راوا منه ضعفاً انقلبوا مع الجانب الاقوى - فلما خاف ظهور ضعفه نهض وهو يتكاف الضحك وقال « لقد آن لي ان افكك بهؤلاء الاغرار ان الرفق بهم لم يجد نفعاً » فوقف الباشكاتب واستأذن وهو يعلم ان عبد الحميد يكاد يموت خوفاً ولكنه اظهر انه صدقه وانصرف



شمسي باشا

اما عبد الحميد فدخل غرفة الكتابة للخلوة بنفسه ولم يصلها حتى تنفس الصعداء وقال « ويل لهم انهم يفتكون برجلي .. انهم غير الاغرار السابقين الذين كنت ابتاعهم بالاموال - متى كان اولئك الملاعين يعرضون انفسهم للقتل ولا يسيحون بالسر ؟ حتى النساء منهم صاروا كالرجال شدة وبطشاً .. » وتذكر القادين وشيرين فقفاً شعر راسه وقال « ويل لك يا ارمنية خرجت من بلد زحية مع جنينك ؟ قد اخطأت في المماطلة كان ينبغي ان اقتلك حالاً .. ويلاه قد خرجت ونجيت ولا تلبث ان تضع

طفلها وهو الذي سيكون شؤماً على ابيه .. هل اقل نجم سمدك يا عبد الحميد وانقلب الزمان عليك ؟ » قال ذلك وقد غص بريقه وبكى بكاء حقيقياً ثم تشدد ووثب من موقفه وهو يقول « متى كان اولئك الملاعين متحدين على اختلاف الطوائف والمذاهب ؟ لا . لا ينبغي ان اياس وانا عبد الحميد وقد غالبت اولئك الغلمان ثلاثين سنة وغلبتهم افيعجزني امر هذه الشرذمة ؟ لا بد من التفريق بينهم ولا بد من الفتك بهم » واطرق لحظة يفكر وتناول سيكارة واشعله ثم جعل يحطّر في الغرفة ذهاباً واياباً ثم صاح بغتة « شمسي .. شمسي .. هو الرجل اللائق بهذا العمل انه فتاك شديد .. هل اشاور احداً بشأنه ؟ لا انه الرجل الشديد وقد اذخرته لهذه الغاية .. سارسله وافوض اليه ان يعزل ويولي ويقتل ويرقي . وارسل من الجهة الثانية من يفرق بين مذاهبهم ... ان صائباً ماهر وسارقيه في خدمتي وقد كان في مقدمة الذين افلحوافي الكشف عن الجمعية واعضاؤها .. المال المال سايدله هذا وقته .. قد اذخرته لئمل هذه الساعة »

قضى ساعة في مثل ذلك ثم طفق يدبر اسباب المقاومة ويدس الجواسيس مما ستراه في مكانه

## الفصل الثاني والسبعون

### شعبة جمعية الاتحاد في مناستير

١ انحلت جلسة الجمعية المركزية في سلانيك كما تقدم عاد رامز الى امره ورجعت اليه هواجسه بشيرين وابن هي وخاطب اياه بحديثه معها كما حدثه بتاريخ حياته بعد فراقه تلك المدة الطويلة . فقضيا يوماً في مثل ذلك واخيراً قال سعيد « ابن هي والدة شيرين الان ؟ »

قال « اخبرني جارهم انها ذهبت للتفتيش عن شيرين في مناستير او جهاتها »  
قال « دعنا نذهب الى هناك فنحمل معنا اوامر الجمعية المركزية الى شعبتها .. »  
الم تقرر الجمعية بالامس ان ترسل وصية مدحت وسائر قراراتها الى فروعها ؟ وهي طبعاً تحتاج الى رسل سريين فلنكن نحن رسلها الى مناستير »  
ففرح رامز بهذا القرار وقال « سأقابل الباشكاتب واخبره بذلك » وافترقا

وفي اليوم التالي ضرب ناظم بك واهتزت سلايك لهذا العمل لانهم لم يتعودوا سماع مثله . وبعد ايام اعدت التقارير ونحوها مما يطلب نقله الى شعبة سلايك وكلها مكتوبة بالارقام ( الشيفرا ) على نسق خاص بين الجمعيتين

وصلا الى مناستير واهتديا الى كاتب الجمعية فبانماه ما يحملانه من الاوامر الجديدة فاهتم بمقدجاسة خصوصية لهذا الشأن فعدت مرآ نحو ما ذكرناه في جمعية سلايك . وكان الكاتب قد حل رموز الرسائل وهياها فانهقدت الجلسة وهي مؤلفة من نخبة الضباط وموظفي الحكومة وفي مقدمتهم القائمقام صادق بك قومندان الاي الفرسان الرابع عشر ونخري بك ترجمان الولاية وحييب بك بوزباشي الطبجية وضيا بك ملازم الطبجية و ابراهيم شاكر افندي معلم الرسم في المكتب الاعدادي ورمزي بك بكباشي اركان حرب ووهيب افندي وغيرهم . وكلهم من ذوي الاخلاق السامية والمبادئ الصحيحة وخصوصاً صادق بك وكان اكثرهم عملاً واشدهم حماسة وهو رب السيف والقلم وعليه كان المعول في التدابير التي دبروها والبيانات التي اتوها والسكل يسبرون على خطواته ويقتدون برايه <sup>(١)</sup> فهو كالرئيس فيهم او المرخص وكان ربعة مستدير اللحية مع ميل الى الضعف شأن اصحاب المزاج العصبي لكنه لم يكن فيه حدة العصبيين وتقلبهم بل هو رابط الجأش ثابت في اعماله يظهر الهدوء والسكينة في حياه فاذا دعت الحالة الى الحماسة او العمل غضب كالاسد الهائج لا يبالي ماذا يفعل وقد يضحي نفسه في سبيل الحق والحربة

فلما عقدت الجلسة كان اول شيء قدموه التعريف بسعيد والدرامز وماله من الايدي البيضاء في تاريخ الاحرار . ثم تلوا وصية مدحت ورحبوا بها كل الترحيب واعجبهم ما كان من قرار الجمعية بشأنها وتحمسوا ووافقوا على الفتك وقرروا توزيع ذلك في الاعضاء وفي فروع هذه الشعبة برسنه وغيرها . وانقضت الجلسة وأول شيء باشره رامز انه ذهب للبحث عن والده شيرين في منزل بعض اقاربها واخذ والده معه فلاقته بالبكاء فرحاً بقدومه وفرحت بقدوم والده لانها تعرفه وسألها عن شيرين وشأنها . فقضت عليه حديثها مع صائب ومادار بينهما وعن نباتها في حبه وكيف اختفت بغته . فعجب بصدق محبتها وازداد اسفاً على ضياعها . وبكى عليها مع العزم على البحث عنها مظانها فقال رامز « لا بد من العثور عليها . . الا ان يكون ذلك الملعون قد حملها على الانتحار تحلصاً منه » . ولكنها عاقلة لا ترتكب هذه الرذيلة وهي تعلم اني لا ازال

(١) خواطر نيازي

حيًا بل هي نخب الحياة من اجلي كما احبها من اجلها . . . »  
 فقال والده « لا بدَّ من الصبر حتى يأتي الله بالفرج . . . وابن طهماز ؟ »  
 فقالت « لا اعلم ابن هو ولكنه كان مع صائب بك الى آخر يوم »  
 فقال رامز « انه الآن من ارباب الرتب المقربين في بلدز »  
 فضحكوا رغم ما هم فيه من الحزن والقلق لانهم يعرفون حقيقة طهماز وانه لا ينفع  
 لغير الاكل ولولا امراته لم يعرف احد بوجوده »

خرج رامز من هناك كاسف البال ولم يأس من وجود شيرين فبعث بعض الناس  
 يبحثون عنها في القرى والاديار وفي كل مكان ظنوا انها تذهب اليه فلم يقف لها على اثر .  
 فيئس من وجودها واعتقد ان عبدالحميد وجواسيسه هم سبب هذا الشقاء فزاد نعمة  
 عليهم واصبح يغتم الفرص للتفاني في مقاومتهم

مضت ايام وهو يشتغل بمساعدة كاتب الجمعية في كتابة المنشورات ونسخها وتدبير  
 من يوصلها الى الجهات وكانوا يرسلونها مع النساء غالباً لبعده الشبهة عنهن بالاشتغال  
 بالسياسة . وهو في ذلك انه الدعوة للاجتماع في جلسة مستعجلة وعينوا مكان الاجتماع  
 وكانوا انما يجتمعون للمداولة في خبر جديد او حادث جديد او تقرير امر مستعجل .  
 فلما عقدت الجلسة واستقر الاعضاء في اماكنهم قال المرخص « دعونا كم الليلة لاجتماع  
 عظيمة الهمية جاءتنا على يد مركز سلانيك وقد حابها الاخ الكاتب وهو يتلوها . . .  
 تفضل ايها الاخ اتل علينا » وأشار الى كاتب السر

فوقف كاتب السر ويده ورقة وقال « هذا الكتاب من مركز الجمعية المقدسة  
 في سلانيك تقول فيه انه جاءتها رسالة رقية من اخينا الدكتور . ن . من بلدز تحتوي  
 على اخبار عظيمة الهمية وهذه صورة الرسالة كما هي » واخذ الكاتب يتلو رسالة  
 الدكتور وهذا نصها :

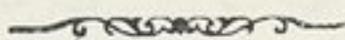
« تأخرت عليكم في ارسال الاخبار اذ لم اوفق الى من يحمل رسالتى اليكم هذه  
 المرة لان التشديد في المراقبة اصبح فائق الحد واصبح الطاغية يخاف من خياله ويشك  
 في نفسه . . ان اخباري هذه المرة حسنة وهامة — اعلوا اولاً ان اصابة ناظم بك  
 بالرصاص ومقتل سامي بك بهذه السرعة والعزيمة كان لها تأثير شديد في نفسه وفي  
 نفسي . بارك الله فيكم . اما هو فانه قام وقعد والتف جواسيسه حوله وتماقوه وحرضوه  
 على التشديد والفتك فعهد الى شمسي باشا اللفظ الغليظ ان يتولى تعقبكم والفتك  
 بكم — وقد ارسل الجواسيس وفيهم صائب لبث روح الشقاق بين العناصر والمذاهب .

فاحذروا من هذا اللعين . واعلموا ان الطاغية خائف من اجتماع الكلمة فهو يبذل مافي وسعه لتفريقها . فوجهوا عنايتكم الى مقاومة ذلك بارسال المناشير الى المسيحيين من كل الطوائف تحذروهم شر التفريق

« ويسرني ان ابشركم باسر وفقنا اليه ولم يكن في الحسبان وذلك ان احدى القوادين من نساء السلطان فررت من القصر وهي شديدة النعمة على عبد الحميد تريد قتله واسمها القادين ج ومعها الياور فوزي بك احد قواد الحرس الالباني . والغالب انهما قصدا البانيا لان الياور المذكور منها - ويسوي في ان اخبركم عن ضياع الاخ الحبيب رامز فاني علمت بوجوده في قصر مالطة . فذهبت لاراه فاخبرت انه طلب الى المايين في منتصف الليل ولم يرجع . . » حدث عند ذلك تممة ونحك وحركة وتوجهت الانظار الى رامز

ثم عاد الكاتب الى القراءة فقال « ومن غريب الاتفاق ان شيرين ابنة طهماز الذي تعرفونه امت بلدزمن تلقاء نفسها واظهرت من البسالة وصدق اللهجة في مصلحة الجمعية ما يندر مثاله . . وخاطبت السلطان خطاباً لم يجسر احد على مثله . . » حدث فصيح بين الاعضاء وشخصت ابصار الجميع لما يكون من تمة الكلام . اما رامز فسارعت دقات قلبه ونسي موقفه تظلماً لما ياتي عن شيرين واتم الكاتب القراءة فقال « وابشركم انها بعد ان وقعت تحت خطر القتل نجحت وكانت من اكبر الوسائل المساعدة على فرار القادين المتقدم ذكرها . . فاذا كان اخونا رامز لا يزال في قيد الحياة فاني اهنته بها . . » فعاد الضجيج ولم يتمالك صادق بك نفسه من ان ينادي رامزاً ويهنئه

« ثم تلا الكاتب تمة رسالة مركز سلانيك فقال « فن تلاوة رسالة اخينا الدكتور . ن . تتحققون حاجتنا الى السعي في مقاومة مساعي اوائك الاشرار . وقد كتبنا صورة منشور الى الاهالي والقبائل نرجوان تفرقوه بمعرفتكم . وكذلك تجدون مع هذا صورة عريضة رفعناها الى قناصل الدول هنا نطلبهم على احوالنا مع سلطاننا وحكومتنا ففرقوا منها نسخاً على القناصل في جهاتكم لتكون اعمالنا مبنية على الحكمة والتعقل . ويسرنا ان نخبركم ان اخانا طوسون بك الذي تنكر بلباس الدراويش وساز لبث روح الجمعية المقدسة في الاناطول قد افلح وانشأ فروعاً من الشعب والقولات في تلك البلاد انتظم فيها اكثر ضباط الفيالق الثالث »



## الفصل الثالث والسبعون

### مخاربة اهل المايين

فلما فرغ الكاتب من تلاوة الرسالة تنفس الاعضاء بعد تعب الاصغاء وخصوصاً رامز فقد كان تأثيره مزدوجاً وهمه امر شيرين ولكنه صبر نفسه الى الخروج من الجلسة . واخذ الاعضاء يتباحثون في ماذا يعملون فقال صادق بك بما عهد فيه من الرزاة في اخرج المواقف « هذه يا اخواني اخبار هامة تستوجب اعمال الفكرة واهمها في نظري ارسال الجواسيس لبث روح الشقاق . وقد سبقنا اخواننا في سلايك الى نشر المنشورات في سيل الوفاق بين الطوائف وارى ان نعيد الكرة ونذكر في منشوراتنا سعي الظالمين واعمالهم وان نترجم هذه المنشورات الى اللغات البلغارية والسربية والابانية فضلاً عن التركية ونفرقها في الرؤساء ومشايخ القرى وزعماء القبائل والعصابات فما رأيكم ؟ »

فنهض سعيد وقال « انه لنعم الراي وانا اتولى تفريق هذه المنشورات بيدي » فقال صادق بك « بورك فيك انك نعم الصديق الامين لاينا مدحت رحمة الله ان هذه المهمة شاقة وكثيرة الخطر اذ يعسر عليك الوصول الى تلك العصابات وهي لا تستقر في مكان . ولكني اشير عليك ان تستعين في معرفة اماكنها بالاخ نيازي بك قائد طابور رسنه انه ذوحية وبسالة وقد قضى مدة في مطاردة العصابات البلغارية وقد احسن البطل هادي باشا العمري حامي حمى الاحرار بتعيينه هناك واني اتوقع من هذا الشاب مستقبلاً مجيداً . نحن نعرفه ولكنه لا يعرفنا اننا من اخوانه اعضاء هذه الجمعية المقدسة . فهو يعرف احوال العصابات فاذا لقيته استعن به في البحث عن اماكن رؤساء تلك العصابات »

ثم استأنف صادق بك الكلام فقال « وهناك امر عظيم الاهمية ايضاً اعني مخاربة الدول على ايدي قناصلها بتقارير نشرح فيها حالنا مع سلطاننا ورجاله حتى نعدر في نظرهم اذا مست الحاجة الى التحكيم او نحوه وهذا العمل لا ارى فينا اليق به من اخينا رامز لانه لا بد من حاجته الى البحث عن خطيبته الباسلة الحرة وهو كاتب متوسع في اللغات الاجنبية ففي طريقه يقوم بهذه المهمة »

فوقف رامز وقال « اني اتشرف ان يرى الاخ صادق بك اللياقة في هذه المهمة وسأقضيها على الراس والعين »

فوقف صادق بك عند ذلك وقد ابرقت عيناه وبانت البسالة فيهما وقال « بقيت مهمة واحدة اطلب اليكم ان تسمحوا لي بها لانها من واجباتي . . . »

ففهم الجميع انه يعني مقتل نعمسي بشا فنصدي ضيا بك قائلا « ان المهمة التي تشير اليها ايها الاخ البائل نضن بيدك ان تمد اليها . . . انا انوب عنك فيها »

فوقف حبيب بك واعترض نفس هذا الاعتراض . فقال صادق « نحن متفقون اذاً على وجوب ازالة ذلك الوجود الفاسد ولا فرق في ان يكون احدنا او الاخر المباشر لهذا العمل . . . وها اني اقسم اليمين » وتقدم نحو القرآن والسيوف فتسابق رضا وحبيب الى هناك ووضع كل منهم يداً على القرآن وبدأ على مسدسه واقدموا اليمين المغلظة بقتل ذلك الرجل وغيره عند الحاجة في خدمة الحرية والدستور . فارتد ذلك في سائر اعضاء الجمعية فهبت الحماسة فيهم ودبت الحمية في عروقهم مثل ديب الكهرباء فنهض شاب من الاعضاء هو الملازم . . . وقال « لا يابق باحد منكم ان يلوث يده بدم ذلك الفظ الغليظ انا انا اريحكم منه تقوا اني افعل ذلك . . . ويجب ان افعله وحدي » قال ذلك وقد تجسست الشجاعة في عينيه

فصاح الجميع « فليعيش الفدائي الحر . . . »

فقال صادق بك « هكذا تكون الحماسة والرواة . . . كان الله معك ايها الاخ لكسر شوكة الظالمين وحماك بمنه وكرمه . . . والان سيتلو عليكم الاخ الكاتب صورة المنشور الذي سيوزع على يد الاخ سعيد بك في رؤساء القبائل وزعماء العصابات البلغارية وغيرها . وبما انه طويل ارجو ان يتلوه مختصراً »  
فوقف الكاتب وقرا هذه الخلاصة :

« الى اخواننا المسيحيين من بلغار و صرب و يونان و البان وغيرهم  
« قد مضى نصف قرن على الممالك الصغيرة المحدقة بمكدونيا - نعني بلغاريا و اليونان و الصرب - وهي تسعى في مساعدتكم لتخليصكم حسب زعمها من ظلم العثمانيين . فاذا صدقت في انقاذكم من ذلك الظلم فلكي تبتلعكم لنفسها . فهي لذلك تبت روح الشقاق بيننا وبينكم حتى جرت الدماء انهرأ . فيا ابناء الوطن اخواننا قد آن لكم ان تستفيقوا وتعلموا ان تلك الحكومات انما هي طامعة في بلادكم . واعلموا ان هذه الامنية لن ينالها اولئك الطامعون لاننا نبذل ارواحنا في سبيل استبقائها . ولكن ينبغي ان نعرف

لكم بفساد الحكومة العثمانية الآن . وحق لكم ان تشكوا منها ونحن ايضا نشكو نفس الشكوى وقد قمنا لاصلاحها بايدينا . واول اسباب ذلك الاصلاح اتحاد العناصر العثمانية من ترك وبلغار ورومان وروم والبان . ومن اجل ذلك اسست جمعية الاتحاد والترقي العثمانية واعضاؤها هم امراء العسكرية وضباطها والمأمورون المليون وكلهم من خيرة رجال الشرف يبذلون كل مرتخص وغال في سبيل هذا الوطن . ومقصد الجمعية الاصلي حفظ الحرية وصون الاعراض والارواح والاموال لكل العناصر وتغيير شكل الادارة فاستعويض بالشورى عن الاستبداد . فندع الافكار القديمة والاراء الفاسدة ولنتحد جميعاً . وعند وصول بياننا هذا اليكم اجتمعوا واقراوه واوصوا عصاباتكم ولنتحد عصاباتكم معنا في طلب الدستور والمساواة الخ الخ »  
 فلما فرغ الكاتب من تلاوة هذه الخلاصة قال المرخص « اقرا علينا خلاصة المنشور الذي سيوزع على الدول الاجنبية ( الاروسيا ) » فقراً :

« سيدي ،

« ان الحال التي بات فيها القسم المهم من وطننا وهو مكدونيا واصلاحها واعداد مستقبلها حملنا نحن ابناء مجموعة الوطن المسماة تركيا على عرض السطور الاتية لمقامكم الرفيع مع كل اعظام . وانما سائقنا الوحيد الى التثبت بهذا الامر هو عشقنا الطبيعي لارض ولدنا فوقها وما يجب علينا من الاتحاد في السعي لاستكمال سعادتها ورفاه بنها . وعلمنا بان اوربا تعرفنا قايلاً وتعرفنا مسيئين . وقصدنا من تحرير هذه لورقة اظهار الحق في مسألة مكدونيا او المرض الذي ابتليت به والدلالة الى الطريقة المثلى المؤدية بنا الى الصراط المستقيم وخلص الدول الاوروبية من مزاحمة ومساع الاطائل تحتها

« ان مساعي اوربا في اصلاح مكدونيا لم تنته بنتيجة ولم تغير الاحوال بوجه من الوجوه . بل هي انقلبت الى ما هو اسوأ وكثرت القلاقل . ومعنى مكدونيا زاد اشكلاً واستولى ارتباك عام على كل انحاء المملكة

« ان اصل هذا الفساد انما هو طمع روسيا في مكدونيا كما يشهد بذلك تاريخها الماضي ونأسف لان دول اوربا تسارها . وقد اختلفوا مسألة ظلم المسيحيين فيها وانهم تعساء تحت سلطة المسلمين . ولكن اوربا في خطأ فاحش . وهناك حقيقتان باهرتان تبينان اسباب ذلك وهما : اولاً انه ليس بمكدونيا داء خاص بها ولا مسألة ناجمة عنه . ثانياً انه ليس بمكديونيا تعصب اسلامي . ونحن نقول قبل كل الناس ان سكان مكدونيا ليسو

في الرفاه المطلوب . وافكارنا متفقة من هذه الوجة مع اوربا . الا ان اختلافنا هو في تعيين منشأ الغدر . ولذا فيكون اختلافنا ايضاً في اتخاذ الوسائل المانعة له . اذاً فمضرات مكدونيا ليست ناشئة منها . والمضرات شاملة الولايات التي تتألف منها المملكة العثمانية لا في مكدونيا وحدها وسببها هو الاستبداد الظالم في اصول الحكومة الحاضرة والشيء الذي آل بالبلاد الى هذه الحال التي لا تطاق هو فقدان الحرية العثمانية ملكية وسياسية

« فان كانت اوروبا تريد حقيقة ان تسعد المكديونيين يجب ان تعينهم على ازالة الاستبداد الحاضر ليستعد العثمانيون عامة ويسعد معهم المكديونيين لان الواقع ليس مرض مكدونيا بل هو مرض تركيا كلها وسيزول بهمة ابنائها

« فاذا كانت اوربا تريد اصلاح احوالنا اكراماً للانسانية فعليها ان لاتعرض لما يزيد من الاصلاح . وان تضيق على الاستانة لتضع حداً للاستبداد او تتركنا وشأننا ندبر امورنا ونصلح شؤوننا ولا رائد لنا غير الحق والعدل لهدم صروح الظلم — وقد قدمت نسخة من هذا البيان لقناصل الدول الاروسيا الخ »

ثم تقرر ان يعطى البيان الاول الى سعيد بك ليتولى ترجمته الى اللغات البلغارية والصربية واليونانية ويكتب منه نسخاً يفرقها في القبائل والعصابات سرّاً وان يعهد بالبيان الثاني الى رامز ليكتب منه نسخاً بالفرنساوية ويقدمه الى قناصل الدول . ثم ارفضت الجلسة وقلوب الاعضاء مملوءة امالاً وحمية

وحلما خرج رامز من الجلسة سار توتاً الى توحيدة والدة شيرين واخبرها سرّاً بما سمعه عن ابنتها وانها فرّت من بلدزولم يعرف الى اين سافرت . وانه مسافر الى بعض الجهات للنتفّيش عنها . ففرحت فرحاً شديداً واعدت اليها امالها ومكثت تنتظر ما يأتي به القدر

## الفصل الرابع والسبعون

### العصابات الالبانية

قضى سعيد بضعة ايام في ترجمة البيان ونسخه ثم تكبر بلباس احد الفلاحين الالبانيين فجعل على راسه كالتاوية القصيرة ولبس دراعة (صدرية) مفتوحة فوقها

الكبران المرخي الاكام وحول حقويه التنورة اثنتا عشرة الى اعلى الركبة . وتمنطق بمنطقة فيها الطنبجة وانف ساقيه بسبور ( الطماقات ) واحتذى حذاء غليظاً ومشى وعكازه يده لا يظن من يراه الا انه من عامة الألبان

وكان في البانيا من جهة مناستير عدة عصابات من البلغار والالبان كل منها تنسب الى زعيمها. اشهرها عصابة جرجيس الالباني وعصابة توفيق الاهوماتي وعصابة امين البيسوجاني وعصابة قورطيس النوسيللي وغيرهم . وكل عصابة مؤلفة من عشرات من الرجال الأشداء يقطعون السابلة على الناس يقتلون وينهبون بحجة الدفاع عن النصرانية واكثر ما يكون تخرشهم بالمارة من المسلمين يأخذون ما معهم ويأسرونهم حتى يفديهم اهلهم . وكانت مهمة سعيد شاقه لان في جملتها ان يبلغ منشور الجمعية الى رؤساء هذه العصابات . ولا يخفى ما في ذلك من الخطر لكنه كان قوي القاب ثابت الجأش عاشقاً للحرية يتفاني في سبيلها

وكانت عصابة جرجيس الالباني شديدة البطش قد ملأت بشهرتها جبال البلقان او هي عصابات تعمل باسمه وفي غيابه او حضوره . فاحب سعيدان يبدأ بعصابته فساغر في طلبها وهي معتصمة في الجبال الوعرة فطال سفره لانه ربما قيل له انها في جبل كذا فيسافر اليها يوماً او يومين فيجدها قد انتقلت الى سواه - قضى في ذلك اياماً قاصية فيها الامر من المشي والتعب حتى كاد يعدل عن طلبها . وهو انما يطالبها اذا كان جرجيس معها لتبليغه المنشور فانبأ بعضهم انها في جبل على بضع ساعات من مكانه ومعها زعيمها . فعاهد نفسه ان يقصدها فاذا لم يجدها عدل الى سواها

وكانت الشمس قد تجاوزت الاصيل وهو يمشي في سفح جبل على ان ينزل منه الى الوادي ثم يعود من طريق آخر الى اعلى الجبل المقابل وهناك يقم جرجيس بعصابته . فنزل الوادي ثم اخذ في الصعود حتى اقترب من قمة الجبل والشمس قد دنت من المغرب فسمع ضوضاء عقبها اطلاق الرصاص فدوى الوادي دويًا عظيماً وليس فيه ولا في سفح الجبل بيت ولا خيمة . ولكنه شاهد بعض الخيم في اعلى الجبل ومنها سمع اطلاق البنادق . فلما سمع دوي الرصاص وقف وراء صخرة يحتمي بها واصاخ بسمعه ولم يبق بينه وبين قمة الجبل الا خمسون متراً وندم على مجيئه متأخراً لكنه تجلد وصبر . فاذا هو يسمع طلقات ابعده من الاولى وراء الجبل وسمع لغطاً بين الخيام ودبدبة حوافر خيل . ثم طرق اذنه صوت امرأة تستغيث بالتركية ولم يسمع من كلامها الا قولها « امان جانم ما الذي تريدونه منا .. اتركونا في سبيلنا » ثم سمع صوت رجل يجاوبها بالتركية

ايضاً بقوله « لا تخافي من هؤلاء الكلاب ولو كانوا مئة » فادرك سعيد ان عصابة جرجيس تعترض بعض المارة . ولكنه توسم في صوت الرجل البسالة والقوة فحدثته نفسه ان يصعد خلسة حتى يشرف على المعركة وقد خيم الظلام فلا يخاف ان يراه احد . فسلق الصخور بخفة حتى اصبح وراء احدى الخيام فاشرف على المعركة فرأى رجال جرجيس محذقين بركب مؤلف من اربعة انفس اثنان را كبان هما رجل وامرأة واثنان على الاقدام هما خادمان . وتفرس في الرجل والمرأة فلم يعرفها لان المرأة ملثمة ويظهر من محمل حالها انها من اهل النعم . وكذلك الرجل مع التناقه فوق انوابه بالعباءة وتغطية اكثر وجهه باللثام . فتربص سعيد ليرى ما يكون وقد استغرب مرور هؤلاء في ذلك الطريق الوعر واصبح شديد الميل الى استطلاع حقيقتهم ولم يخف على نفسه لانه يبحث عن جرجيس من زمن طويل وقد سرء انه وصل اليه

فلما تكاثر رجال العصابة وكادوا يظفرون بالقوم تقدم الزعيم جرجيس وقد عرفه سعيد من طول قامته ونوع لباسه واسترسال شعره وما عليه من الاسلحة الثمينة . وكان قد لبس الجاكت والبنطلون والطماقات وحول وسطه المنطقة فوق الجاكت وفيها الطبنجات والخنجر . وعلى راسه طاقية قصيرة مسطحة وفي مشيته تيه وانجاب . مخاطب الرجل بالتركية وهو ضعيف فيها قائلاً « لا فائدة من دفاعكم وانما اتم تعرضون انفسكم للقتل ونحن لا نريد انفسكم وانما تكفيننا اموالكم فان لم تسلمونا اياها قتلناكم . ولا تخافوا على المرأة فنحن لا نتعرض للنساء »

مخاطبت المرأة رفيقها بلحن الاستغاثة فائلة « يكفي جانم بكفي .. اعطهم ما يريدون »

قأى الرجل ذلك وقال « اليس من العار ان ارضخ لهؤلاء اللصوص رغم انفي ؟ ولكن ... » وحرق الاسنان واثار نحو المرأة وهز رأسه اسفاً يريد ان وجودها معه يلجئه الى القبول والتسليم . على انه استوقف فرسه ووقف وقفة اسد ولم يتحرك فثنى جرجيس نحوه بجأش هادى . وقال له « لا يصعب عليك التسليم فان اعظم منك سلموا لنا وقد رحمتك لاننا اردنا ان نستبقي حياتك اكراماً لهذه المرأة »

فترجع الرجل وقال « وما الذي تريدونه منا ؟ »

قال « نريد ما تحملونه على هذه البغال »

فالتفت الى المرأة وقال « وما هو رايبك ؟ كيف نسلم ... ؟ »

فقال « لا بأس يا فوزي .. اعطهم ما يطلبون فانهم يرتزقون بهذه الحرفة ... »

قبح الله ذلك الطاغية الملعون كم افسد من اخلاق رعاياه »  
 فلما سمع سعيد اسم فوزي وذكر الطاغية اتبه حالاً ان هذه هي القادين ومعها  
 الاميرالاي فوزي بك كما انبأهم جاسوسهم في رسالته . فاخذ يبحث بنظره عن شيرين  
 فلم يجد معهم من النساء غير القادين . فرأى من الحكمة والمرواة ان يتوسط حينئذ  
 وفي توسطه جراءة كبيرة لكنه تعود ركوب الاخطار

وكان الظلام قد تكاثف وهناك نار موقدة امام الخيام . وراى رجلاً من العصابة  
 اشعل عوداً من الكبريت انار به مصباحاً ومشى نحو جرجيس . فظهرت عند ذلك  
 سخنة الاميرالاي وكان ملثماً وعليه ثياب السفر . فتقدم سعيد ونادى « جرجيس . .  
 ايها البطل . . »

فالتفت الجميع نحو الصوت واجفلوا اذ لم يكن احد منهم يتوقع ان يسمع صوتاً  
 من وراء الخيام فاجابه جرجيس « من انت ؟ »  
 قال « اني ضيف عليك وقد قضيت اياماً وانا اطابك لاؤدي لك امانة عندي  
 فهل اقدمها ؟ »

فاستغرب ذلك الطلب واوماً الى رجاله ان يحيطوا بفوزي والقادين وينزلوهم في  
 احدى الخيام ونحو سعيد فرأى رجلاً ليس في لباسه ما يدعو الى التهيب فصاح  
 به « وبلك ؟ من انت ! »

قال « انارسل اليك من أمة برمتها . . ارعني سمعك واجلسني معك لاقص  
 عليك خبري »

فبغت لهذه الدالة والتفت اليه باحتقار وقال « من انت لتخاطبني بهذه اللهجة انرا  
 جسارة غريبة »

قال « قلت انك ستعرف من انا ومتى عرفتني وعرفت من هو خصمك الذي  
 عفوت عن نفسه واقتنعت بماله لا تتدم على الاصغاء لي »

فاشار جرجيس الى رجاله ان يضيئوا خيمته ويدخلوا اليها الاسيرين ولحظ سعيد  
 في اثناء تحول القادين عن فرسها انها تنو كما كانها مثقلة فعلم انها حامل . ثم دخل جرجيس  
 ودعا سعيداً وامره بالجلوس واجلس الاميرالاي والقادين على طنفسة هناك وظل هو  
 واقفاً فقال سعيد « تفضل يا حضرة الزعيم اجلس اني عارف قدرك الست رئيس جمعية  
 طوسقا الالبانية ؟ »

قال « نعم ومن انت ؟ قل حالاً »

قال « اما انا فاني مندوب متنكر جئتكم برسالة من جمعية الاتحاد والترقي العثمانية سأدفعها اليك الآن ولا حاجة بك ان تعرف من انا » ومد يده واستخرج ورقة دفعها اليه فتناولها ودنا من الصباح واخذني قراءتها . واخذ الاميرالاي يتفرس في سعيد فلم يذكر انه يعرفه . اما سعيد فانه اغتم اشتغال جرجيس بتلاوة الورقة وقال للاميرالاي « الست الاميرالاي فوزي بك ومعك حضرة القادين ج ؟ »

فاجفل فوزي بك عند سماعه ذلك التصريح وهو يحسب نفسه بعيداً عن المعارف لا يعلم به احد هناك ولكنه تجاهل وانكر وقال « لا افهم ما تقول — من انت ؟ » قال « ياالعجب كم تسألون من انا وتتكرون من انتم — لا ينبغي ان تخاف مني اتنا لا نقتل على الشبهة كما يفعل صاحبكم في بلدز ولا نطلب غير حقنا . . فاخبرني ابن شيرين رفيقتكما ؟ »

فاما سمع سؤاله عن شيرين تحقق انه مطلع على حقيقة امرهم ولا سيبل للانكار واعظم امر الجمعية لتيقظها فقال « ان شيرين فارقتنا في سلايك » وكان جرجيس قد فرغ من تلاوة الورقة فرماها الى سعيد باحتقار وقال « هذا كلام لا يمكننا سماعه . نعم اتنا اقرب الى المصالحة منكم جماعة المسلمين ولكنكم تخالون علينا وتضحكون منا فتأتوننا كل يوم ببيان جديد . . تكتبون الينا اليوم بمعنى الاتحاد بين العناصر وتكتبون الى المسلمين تحرضونهم علينا . وقد كنا صدقناكم وعزمنا على حل العصابة فوقع لنا كتاب مرسل منكم الى المسلمين تدينون فيه فضل الاسلام ومزية المسلم على غيره وتجعلوننا حلالاً لكم .. »

فقال سعيد « اين هذا الكتاب انه من رجل مفسد . . اين هو؟ » فاشار جرجيس الى احد رجاله فاناه بمحفظه استخرج منها كتاباً مرسلأ الى حاكم استاوره في تلك الجهة عليه الطغراء وقد صدر باسم الخليفة . ثم قال جرجيس « الم تقولوا انكم تطلبون الدستور وفيه حماية الاعراض وحفظ الحقوق لسكل الناس على اختلاف مذاهبهم ؟ وهذا الكتاب من الساطان يقول عكس ذلك — خذ اقرأ الا يقول هنا ان سعي جمعية الاتحاد والترقي في طلب الدستور مفسد للاخلاق ؟ وانه لا يوافق مصلحة المسلمين لانه يجعل نساء المسلمين يخرجن حاسرات كنساء الكفار؟ اقرأ » فتناول سعيد الورقة وقرا فيها نحو هذا المعنى وامعن نظره في الامضاء فاذا هو « صائب » فعلم انه جاسوس الساطان الذي ذكره الدكتور . ن . وانه وصل الى تلك الجهات واخذ في بث تلك الروح الشريرة التي حذرهم منها الدكتور . فقال سعيد

« ياسيدي ان كاتب هذه الاسطر احد جواسيس المايين وهؤلاء اخصامننا يعملون على عرقاة مساعينا طبعاً فلا ينبغي الاصغاء لهم .. »

فادار جرجيس وجهه واظهر عدم المبالاة بما يقوله سعيد كأنه ندم على مسيرته وسماح حديثه والتفت نحو الاميرالاي وقال « اعطونا ما معكم والاقتلناكم »

فشق على سعيد ما رآه من استخفاف جرجيس بقوله ولم يصبر على ذلك الضيم فقال « يا جرجيس .. لا يحسن يبطل مثلك ملأت شهرته الخافقين ان يحتقر رسولا من جمعية حرة تطلب الاتفاق معه على كيد الظالمين . امن اجل رسالة كاذبة من جاسوس منافق ترد ايدي الاحرار الممدودة لمصايفك ؟ »

قال « ومن ينبغي انها من الاحرار ؟ ومن يؤكده لي ان هؤلاء الاحرار القائمين بطلب العدل الحرية لا يصيرون عبيداً للظالمين غداً كما صار سواهم ؟ دعني من ذلك وكفي » فاطرق سعيد واعمل فكرته في طريقة يقنع بها الرجل انه مخطيء ، واذا هو يسمع دبدبة واطلاق النار حول الخيام بكثرة وسرعة وقد قامت الصبيحة في الخيام . فخرج جرجيس للبحث عن السبب . فرأى تلك الخيام قد احاط بها الجند العثماني من كل صوب وفر الالبانيون الاجرجيس فانه اوشك ان يفر كعادته . ولولا اشتغاله بامر سعيد ومباحثته واشتغال رجاله بجراسة اولئك الاسرى لاشتموا رائحة الجند عن بعد ورفروا الى جبال اخرى اعتصموا بها وامتنع على الجند الوصول اليهم

فاطل سعيد من الخيمة فرأى ضعف جرجيس وفرار رجاله فقال للاميرالاي « امكث هنا مع القادين وساعدو اليكم » وتقدم نحو الجند فاذا هم فصيلة في مقدمتها ضابط كالاسد الكاسر وانفق وقوع نور المصباح على وجهه فتبينه فاذا هو نيازي بك الرسنه لي الذي اوصاه صادق بك ان يستعينه في كشف اماكن العصابات وكان قد شاهده في مناستيرو نعارفا . وكان نيازي لكثرة مطاردته العصابات قد اصبح اسمه فزاعة لهم ولم يلق عصابة الا شتت شماسها . فبلغه في تلك الليلة نزول جرجيس هناك بنفسه مع عصابته فاحب ان يبغته ويلاقيه ويباحثه في معنى ما اتى به سعيد . فتسلى الجبل برجاله خلسة وقد عرف المكان من المصباح فرآهم مشتغلين عن التلصص فام يشعروا الاوهم محاطون بالجند ولم يبق لهم حيلة . ولحظ نيازي عزم جرجيس على الفرار فصاح فيه « جرجيس جرجيس . لا تهرب ولا تخف .. اني لا اريد بك سوءا »

فوقف جرجيس وقد تعجب سعيد من هذه الصدفة وتفاءل خيراً بنجاح مشروعهم الجديد وتقدم نحو نيازي وقال « نيازي بك ؟ »

فلما سمع صوته عرفه فترامى عليه وقبله وقال « سعيد بك ؟ انت هنا ما الذي اتى بك .. هل اصابك سوء ؟ »

قال « كلا . اتي في خير والكني مقيم في ضيافة جرجيس البطل الاباني »  
فلما سمعه جرجيس يقول ذلك خجل من نفسه واحترمه وتقدم اليه وقال « لم تقل لي من انت .. »

فقال « لست العبرة في من انا بل العبرة بما جئتك به .. والآ ن ما رايتك اذا سمعت هذا القول من نيازي بك نفسه وهو الظافر الآن ؟ »

فتقدم نيازي الى سعيد وقال « اظنك جئت لتبليغ الرسالة الجديدة »  
قال « نعم ولكن صاحبنا لم يصدقني . وقد اطاعني على رسالة من بعض رجال الملايين تقول عكس قولنا »

فقال نيازي لجرجيس « اعلم ايها البطل اني من اعضاء هذه الجمعية المقدسة ولكي اوكد لك حسن نيتنا في المنشور الذي اتاك به اخونا سعيد بك اطلب يدك لاصاغك ولنتحد معاً على القوم الظالمين . وبدلاً من ان نتقاتل ونحن ابناء وطن واحد نجتمع على مقابلة المستبدين ونسعى في نيل الدستور والقانون الاساسي »

فلم يسع جرجيس عند ذلك الا الاذعان ومد يده وصافح نيازي واقسما على العمل معاً وان يكون ذلك سرّاً مكتوماً حتى ياتي وقته . فاشار نيازي الى رجاله ان يتفرقوا ويستريحوا ومشى فدعاه جرجيس الى الاستراحة . فتقدم سعيد وقال لنيازي همساً « الم يبلغ شعبتكم في رسنه خبر القادين التي فرت من بلدزمع احد القواد الابان ؟ »

قال « بلى .. ومعها شيرين خطيبة صديقي العزيز رامز »  
قال « تعال فاريتك القائد والقادين اما شيرين فقلا انهما تركاها في سلاينك »

ومشى نيازي الى تلك الخيمة فدخل سعيد وعرفه الى الاميرالي فوزي بك والقادين . فاتي الاميرالي على ما شاهده من بسالة نيازي وحميته واعجب بما رآه من تفانيهم في سبيل الدستور الى ان قال « الآن تأكدت فوز الاحرار وان ذلك الطاغية مغلوب على امره لا محالة »

فقال سعيد « اننا لانفك عن الطلب حتى ننال ما نريده او نموت . »  
فقال فوزي بك « الاتخبرني كيف عرفتي وقد خرجنا من بلدزم ولم يطلع احد على خبرنا »

قال « نحن هنا في هذه الجبال ونطلع على اخبار عبد الحميد في ابعد قصوره

ونعرف ماذا يأكل او يشرب »  
 فقال « وفقكم الله الى ما تريدون ونحن لم نترك بالذوالا نكون معكم في هذا السبيل  
 فماذا تفعل ؟ »



نيازي بك

قال « نزلون مناسيتير . وسناتقي هناك ونتعارف ونتعاون والآن قد تعبتم . واظن  
 جرجيس يفض النظر عن مطالبه منكم » والتفت الى جرجيس وضحك فقال جرجيس  
 « بل انا في خدمتكم الى حيث تريدون »  
 فقال نيازي « لانكافك هذه المشقة فانا اتولى ايصال حضرة الايرالاي الى مكانه  
 وانما اطلب منك المحافظة على العهد الذي عقدناه في هذه الليلة »  
 قال « اني على ما تريدون »  
 فودعوه واعدوا فشى نيازي ورجاله في خدمة فوزي بك حتى وصلوا الى الطريق

السلطاني وهناك افترقوا. فعاد نيازي الى بلده وهو غارق في بحار التفكير لامر خطر له وهو يخاطب جرجيس في تلك الليلة سيكون له شأن في نيل الدستور وسار سعيد وفوزي بك يطلبان مناسيتير. فقص فوزي بك حديثه عن القادين وانه كان يتعشقها قبل ان صارت قديناً وهي لا تلتفت اليه لاشتغالها بعبد الحميد وانهما كانت تظهر انعطافها نحوه وكان لها يد في ترقيته حتى صار من الباوران وتولى رئاسة احدى فرق الحرس. فلما علمت بعزم السلطان على الغدر بها بسبب حملها بعنت اليه فدير امر تهريبها مع شيرين. فسأله عن شيرين ابن هي فقال «جئنا معاً الى سلايك بعد ان طال سفرنا في الطريق لاننا جئنا ركوباً على الافراس في طرق بعيدة عن المدن خوفاً من عيون عبد الحميد. فلما وصلنا سلايك نزلنا في فندق متكرين وهي معنا ثم استأذنتنا في الذهاب الى بيت ابيها لعلها ترى والدتها هناك لانها فارقها في ذلك البيت. فمضت مع خادمها ولم تعد. فبعثنا خادمنا في اليوم التالي يبحث عن خبرها فعاد وقال انه وجد اباهما وهو يعرفه منذ كان في يلدز وان صائب باشا الجاسوس معه وقد عزم ان يزفها اليه كأنها بثت من بقاء رازم فقبلت بسواه. ولم يعد بإمكاننا البقاء في سلايك خوفاً من كشف امرنا فسافرنا نطلب بلداً لنا من ولاية مناسيتير فاتفق لنا ما رايت»

فشق خبر شيرين على سعيد اعلمه انه يغضب رازماً غضباً لا مزيد عليه. وفكر قليلاً فنذكر الكتاب الذي قبض عليه عند جرجيس بامضاء صائب بيت فيه روح الشقاق فتحقق انه اذا عرضه على الجمعية حكمت على صاحبه بالموت فيقتل على اهون سبيل لكنه يجب ان يعرف مقره وان يباغ رازماً ذلك وهو لا يعرف ابن هو

## الفصل الخامس والسبعون

### اعلان الثورة

وبعد سفر شاق وصلوا الى قرية في ضاحية مناسيتير صاحبها من نصراء الجمعية كلفه سعيد تهيئة بيت لاقامة عائلة الاميرالاي. وكانت القادين قد نقل حملها ودنا وقت وضعها فارتاحت في تلك القرية واعد لها سعيد كل ما يلزم من اسباب الراحة. وصحب زوجها الى مناسيتير وقدم اسمه للجمعية فقبلت عضويته فادخلوه وحلفوه اليمين في الظلمة وهم ماثمون على جاري العادة في من يدخل الجمعية. وبعد خروجه قص سعيد

على الجمعية خبر مهمته وما كان من امره مع جرجيس ثم استخرج الورقة بامضاء صائب واطلعهم عليها فنقرر بالاجماع ان سعي هذا الجاسوس من قبيل محاربة الحرية والدستور وذلك اشد نكابة على الجمعية من الجند والسلاح فتبرع احد الفدائيين بقتله حالما يعرف مقره

وبعد انفضاض الجلسة عاد فوزي بك الى منزله وذهب سعيد الى توحيدة والدة شيرين قص عليها ما سمعه عن ابنتها فلطمت وصاحت « وبلاه .. انه لا يزال يفكر في صائب وكل مصائبنا منه .. لا ينبغي ان ابقى هنا يجب ان اذهب الى سلايك .. لا شك ان شيرين تكون في اشد الضيق واخاف ان تقبل بذلك المنافق لياسها من رامز وهي لا تعرف انه حي .. وبلاه ما العمل يا سيدي ؟ »

فقال سعيد « لا حاجة بك الى السفر امكثي هنا حتى يأتي رامز فتخبره عن شيرين وانا اذهب الى سلايك بدلاً عنك »

فرضيت لعلمها ان سعيداً واسع الحيلة لعله يقوى على زوجها فيغير عزمه ويفض ذلك المشكل فاخذ سعيد يتأهب للسفر . وفي صباح الغد اتاه رسول من كاتب الجمعية يدعوه الى جلسة ستعقد في مساء ذلك اليوم لامر هام فلم يسهه الا التريص للاجتماع . عقدت الجلسة وحضرها رجل يعرفه من خيرة الاحرار هو جمال افندي رئيس بلدية رسة مقرر طابور نيازي بك ويعرف ما بينه وبين نيازي من الصداقة والالفة . فلما تم عقد الجلسة قال المرخص « يا اخوتي دعونا كم لنطلعكم على امر عظيم الاهمية هو خطوة جديدة في اعمال جمعيتنا المقدسة وسيأول بلا شك الى نيل الدستور وان تكن اختنا او امنا جمعية سلايك قد تقدمتنا باعلان الفتك بالظالمين وهي خطوة مهمة في اعمالنا فان شعبة مناسير هذه سيكون لها الحظ بانها ستخطو خطوة اصعب مراساً نعني قيام الامة معاً المطالبة بحقوقها باعلان الثورة . والفضل في ذلك راجع الى شعبة رسة بهمة الاخ الغيور البطل نيازي بك فانه بعث الينا صديقه اخانا جمال افندي ليقص علينا ما هو عازم عليه فاعبروه سمعكم »

فاصغى الجميع لما سئلوه جمال افندي فقال « يا اخوتي نحن اذا فعلنا شيئاً او استطعنا عمل شيء فانما نفعله بروح هذه الجمعية المقدسة التي ترشدنا وتهدينا وتأخذ بناصرنا . اما ما جئت من اجله فهو ان اخانا نيازي بك قائد طابور رسة كلمكم تعرفون شجاعته في حروبه ببلاد اليونان وكانت الحكومة قد كلفته مطاردة العصابات البلغارية والالبانية وقد طاردها بهمة وبسالة قد عرفتموها فعلم بالاختبار ان الحكومة عاجزة

عن مطاردة تلك العصابات وان قيام الامة في وجه الظالمين على هذه الصورة باسم الحق والحرية افضل وسيلة لنيل حقوقها فكشفتني بهذا الامر ( في ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٨ ) .  
 ومعنا طاهر افندي مفتش البوليس وكلنا من اعضاء هذه الجمعية المقدسة . وقال لنا نيازي « عندي ٥٠٠ ليرة اقتصدتها من تعبي ويمكننا ان نجتمع ١٥٠ الى ٢٠٠ رجل من اعضاء الجمعية والعساكر القرويين ونهيء لهم السلاح وستشاركنا اوخري ورسنة ايضاً فنشغل الحكومة في هذه الآجاء اشهرأ ، وفاتني ان اقول لكم ان المحرك الاصلي الذي حملنا على هذا القيام انما هو امر مضبطة روال التي تقضي بتقسيم مكدونيا واعطائها الى الاجانب كما تعلمون . ولا يمكنني كتم ما رايت من محمس الاخ نيازي بك ونشاطه فمن قوله لنا « ان رسنة ينبغي ان تبدأ بهذه الثورة لان البلغاريين بدأوا منها وجلبوا لنا هذا البلاء . وينبغي لنا ان نحب المسيحيين كاخواننا ونساوي بينهم ونعتبر اعراضهم اعراضنا وارواحهم ارواحنا واموالهم اموالنا لان نهضتنا انما هي ضد اصول الادارة الفاسدة لاعلان الحرية والمساواة والاخاء . واني مرسل اخواتي وابنائهن وامراتي بلا معين الى مناسير ومودعهم وداعاً ابدياً » فوافقناه على العمل وانفذوني اليكم لئستشيركم في ذلك »

فلما فرغ جمال افندي من كلامه عرضت المسألة على الاعضاء فقال سعيد انه لنعم الراي هو . وانا اعلم منكم بصوابه لاني عانيت عذاباً شديداً في البحث عن العصابات ورايت المشقة في مناواتها فعلمت ان الحكومة تعجز عن مطاردتها وهي شرذمة بلا نظام ولا تدريب فكيف اذا كانت يدبرها جند منظم — اسمحوالي ان اهنيء نيازي بك على هذا الفكر الجميل وان اشكره اقيامه به وتعريض حياته للخطر وهو عريس لم يتم العام على زواجه »

فاستأذن جمال افندي للكلام وقال « قد اذكرتموني امراً جميلاً بهذا المعنى وذلك ان نيازي لما عزم على تشكل العصابة علم ان ذلك يقتضي ذهابه في الارض والاعتصام بالجبال وتحمل مشاق الاسفار والايثار فذهب الى عروسه وخاطبها بذلك فشجعته وقد نقل لي لفظها بعينه وهو قولها « اذهب يا نيازي لا وظيفة لك سوى الموت في مصلحة الوطن » فارسلها مع عديله الى اهلها

فوقف صادق بك وقال « ان امراة اخينا نيازي تذكرنا بخطيبة اخينا رامز فان امة فيها مثل هؤلاء النساء لا يجوز حرمانها من الدستور . والان لا اظنكم ترون مانعاً من الموافقة على مشروع الاخ نيازي بك ولنرسل اليه التعليات اللازمة وعسى ان يكون

عمله قدوة لسواه اذ يشعر اهل المايين ان الامة برمتها غاضبة عليهم لعلهم يشعرون بالواجب . وعلينا الان ان نبليغ هذا الخبر الى الجمعية المركزية في سلانيك «  
فوقف سعيد وقال « انا اقوم بهذه المهمة » اراد ان يغتم الفرصة للبحث عن شيرين هناك

فقال المرخص « جزاك الله خيراً - اظن رامزاً لم يعد من مهمته في مخابرة قناصل الدول .. اين هو الان يا ترى ؟ »

قال « لم يرجع بعد ولا نعلم اين هو ولكنه لا يلبث ان يعود وقد افلح باذن الله »  
ثم ارفضت الجلسة وتوجه جمال افندي ومعه التعليمات اللازمة لنيازي بك وشخص سعيد بك الى سلانيك وهو على احر من الجمر فبلغ الجمعية الخبر وسمع منها خبراً لا يقل اهمية وهو ان انور بك قام لمثل هذه الغرض بمن معه من الجنود . وكلفته الجمعية تبليغ ذلك الى شعبه مناستير . ثم قصد منزل طههاز فوجد المكان قفراً فسأل الجيران فاخبروه ان طههازاتي وانت اليه ابنته شيرين ومعها خادمها وبعد ان مكثوا اياماً سافروا للتفتيش عن توحيدة . فسأل « هل يعرفون البلد الذي قصدوه »  
فاجابوا « كلا »

فتأسف سعيد لهذا الفشل ولكنه تجدد لان الزمان علمه الصبر وان الانسان لا ينبغي ان يئس ولا ان ييأس . فعاد الى مناستير فرآها قائمة قاعدة وقد وصل اليها شمسي باشا واخذ في التحري والبحث والتشديد وقد دله بعضهم على بعض اعضاء الجمعية فعزم على الفتك بهم . فعقدت الجمعية جلسة مستعجلة ثبتت فيها الحكم عليه بالاعدام ونهض الفدائي وهو يتسم لقيامه بهذه المهمة . وفي اليوم التالي ضجت المدينة بمقتل ذلك المشير على يد شاب ملازم اطلق عليه مسدسه بين ١٥٠٠ من اعوانه وغيرهم ونجا بنفسه سالماً ولم يقف احد على خبره . فكان لهذا الفتك تأثير شديد في قلوب اعداء الجمعية وتضاعفت هيبتها وخصوصاً بعد ان شاع خبر عصابة نيازي

## الفصل الخامس والسبعون

### اعمال عصابة نيازي

امانك العصابة فقد نجحت نجاحاً باهراً وطلب الانضمام اليهم قرىستو القائد البلغاري فقبلوه فاكثبوا بذلك ثقة البلغاريين . وقبل سفر العصابة كتب نيازي اعلانات بعث بها الى المايين والمفتش العام وقومندان الجندرية في مناستير وبكباشي الطابور في رسنة

ومدير رسة . وجاء في كتابه الى المسايين « ان الامة تطلب الدستور والجمعية صاحبة هذا المشروع مستعدة لخدمة الذات السلطانية ولا تحاسبها عما ساف من السيئات فنحن نريد تنفيذ القانون الاساسي هذا اليوم فان كانت الحكومة لا تمنحه طوعاً فالامة تأخذه عنوة »

ولما ان السفر اخذوا يهتمون بصرف انظار الحكومة عنهم لثلاثا تشعر بفرارهم فارتأى نيازي ان يصرف اهتمامها الى مكان خارج المدينة زعم ان عصابة بلغارية هاجته فخرج الجند الى ذلك المكان نخلت التكنة فدخل هو ورجاله اليها وفتحوا صناديق الاسلحة واخذوا ما وجدوه من النقود وكتب نيازي صكاً بذلك حفظ في صندوق الطابور خرجوا وهم ١٥٠ رجلاً نحو لاجبة يوم الجمعة . فالتقوا بمن واقام الى هناك وشرح لهم نيازي خطته فقال « ان خطتي الجهاد في سبيل الحرية الى الممات فمن لا يرضى فليرجع » فوافقوه وساروا معه وجعلوا يطوفون القرى يدعون اهلها الى الاتحاد معهم في طلب الحرية والدستور ويحلفونهم على الثبات . وبدلوا الجهد في محاسنه غير المسلمين ومعاملة الاهالي بالرفق والعدل وادخلوا عدداً كبيراً من الاهالي في الجمعية وفيهم النصارى والمسلمون على اختلاف الطوائف في استاورة واوخرى وغيرها . وكتب نيازي الى جرجيس رئيس عصابة الالبانيين يدعوهم الى الانضمام اليه لمناهضة الحكومة الظالمة وكتب بذلك الى غيره ايضاً

فلما علمت الحكومة في رسنه بخروج نيازي ورجاله بعثت جنداً للقبض عليهم فخالفوه في الطرق . وساعدهم على الفوز ان الجمعية كان نفوذها قد تمكن في اهم المدن هناك مثل اوخرى ودبره وقروشيسته وغيرها . وانضم اليهم كثيرون من المغضوب عليهم الفارين من كل الطوائف . وكان نيازي يصرف الرواتب الى رجاله بما جاء به معه واذا احتاج الى المال اخذ من البلد الذي يكون فيه واعطى شيوخه صكاً على الحكومة تقتطع قيمته من الضرائب

وفي اليوم الثالث من خروجه كتب الى الجمعية في مناستير بما فعله وبشرهم بنجاحه وبعث منشوراً الى نصارى مكدونية ترجمه الى لغاتهم يطلب اليهم بند الضغائن القديمة والاتحاد مع المسلمين لطلب الدستور وان هذا هو الغرض الاصلي لجمعية الاتحاد والترقي واهتم بتحليف القرى الاسلامية المنتقاربة وتشكيل هيئات ادارتها واحكام الصلح والوفاق بينها . وجمع اليه الهاربين من الجنود والمسجونين ممن كانوا يضرون بالاهالي واجمل لهم النصح ودبر ما يمتنع مضارهم واجتذب قلوبهم بالعمو والملاطفة وحسن الاسلوب

واتباع الحق والعدل ودبرواطريقة لمخابرة رسنه واوخرى واتخذوا بريداوعينو امنازله واشتد ازر نيازي لما بلغه قيام انور بك مثل قيامه وكان ينشيء في القرى التي يمر بها نوعاً من الحكومة الدستورية على ما يوافق نظام الجمعية والناس ينضمون اليه ويؤازرونه ولحق به عدة عصابات وطنية

فلما بلغت اخبار هذا النجاح الى مناستير اشتد ازر الجمعية به فكتبت انذاراً الى والي مناستير تقول في جملته « ان حكومتكم الحاضرة غير شرعية لانها خالفت الدستور وان الجمعية تعمل على استرداد الحق الصريح ( الدستور ) الخ » وكتبت الى نيازي كتاباً ضمنته الاوامر والنصائح والاخبار وفي جملة ذلك « ان شمسي باشا اعدم هنا علناً ونجا قاتله »

ففرح نيازي بذلك . وخافت الحكومة وداعها الارتباك فعينت عثمان باشا الفريق بدلاً من شمسي فاجتمعت الجمعية وبخنت في ما تفعله فرات الميل الى الرفق فقررت القبض عايه بدلاً من قتله وبعثت تستقدم نيازي . وكان قد طاف كثيراً من بلاد البانيا وعزم على المسير الى يانيا ففضي في تنقله اياماً يجمع كلمة الناس باسم الجمعية ويستحلفهم على الثبات ضد الظلم بلا تفريق بين المذاهب او العناصر فدخل في محامته البلغار والصرب والالبان والاروام وصار الرهبان يحتفلون بقدمه ويتوسلون الى الله ان يأخذ بيده وهم يعدون الجمعية حكومة دستورية شرعية خفية

فلما وصله الامر بالجيء الى مناستير اسرع اليها وهو لا يعلم ما يطلب منه وقاسى في سبيل عودته مشقة حتى اتى ضواحي مناستير فوصله كتاب من الجمعية تأمره بالقبض على عثمان باشا فحاصروه في مركز القومندانة وقطعوا الاسلاك التلغرافية وجردوا الحراس من الاسلحة . وكان الباشا نائماً فاقظوه وامسكوه من ذراعيه وافهموه ان لا محل للغضب او الاضطراب . فتقدم اليه نيازي واخذ يقنعه انهم لا يريدون اذاه وان مقصدهم شريف وان المراد حمله ضيقاً الى رسنه . وسلم اليه كتاباً من الجمعية قراه فاذا عبارته لطيفة وفيه ثناء على قدرته العسكرية وشجاعته وان الجمعية لا تنوي قتله كما قتلت شمسي باشا بل هي تأسف اذا اصيبت شعرة من شعره باذى . فسكت فاخذوه الى رسنة

فلما رات الحكومة ان حياز فيلق مكدونية الى الجمعية بعثت تستجد فيلق الاناطول فانحاز الى الجمعية فاسقط بيدها

## الفصل السادس والسبعون

## المولود الجديد

كل ذلك والجمعية تزداد قوة واملأ ولكنها كانت تنتظر رجوع رامز من مهمته الى القنصل. وفي اواسط يوليو من تلك السنة عاد رامز وطلب عقد الجمعية واخبرهم ان الدول لا ترى بأساً من طاب الدستور ولا تعترضهم اذا طلبوه «

فتباحثوا وقد اخذت الحماسة منهم مأخذاً عظيماً فقرروا طلب الدستور من المايين فوقف سعيد وقال « ارى قبل الاقدام على هذا الطلب وهو آخر خطوة نخطوها في عملنا ان نستشير اخانا الجديد الاميرالاي فوزي بك فانه ذو معرفة وحنكة وامراته من قوادين عبد الحميد وتعرف اخلاقه «

فاستحسن الجميع رأيه وكلفوا سعيداً ان يخبره فاصطحب ابنه رامزاً وقص عليه خبر شيرين في اثناء الطريق وكيف انه ذهب الى سلاييك ولم يجدها ولا يعلم احد مقرها فتجددت احزانه وقد علمت ان فوزي بك اقام بقرية بضاحية مناستير فوصلوا القرية في الضحى فوجدوا فوزي بك في الحديقة وامارات البشر على وجهه فلما راي سعيداً هس له وتقدم لاستقباله فتقدم سعيد للتعريف بينه وبين ابنه وسأله عن سبب تغيبه عن مناستير منذ ايام فقال « انه كان مشغولاً بالقادين لانها وضعت منذ بضعة ايام «

فقال سعيد « وماذا وضعت «

قال « وضعت غلاماً «

وكان سعيد قد علم من حديث جرى بينه وبين فوزي بك ان الطفل ابن عبد الحميد وهم ان يسأله عن شكاه فاسرع فوزي واستخرج من جيبه صورة فوتوغرافية دفعها الى سعيد وقال « هذه صورة الطفل «

فاستغرب سعيد تسرعهم في تصويره فقال فوزي « ان القادين طلبت ذلك بسرعة وارسلت الصورة الى بلدز من بضعة ايام وهي تعتقد ان ارسالها يسهل نيل الدستور على الجمعية «

فتأمل سعيد في الصورة ومررت في خاطره افكار متضاربة وتذكر حوادث كثيرة

انتشبت فيها الحروب اعواماً بسبب دعاة الملك المشكوك في انسابهم . لكنه عاد الى المهمة التي جاء من اجلها فقص على فوزي بك نجاح الجمعية وقال « انها عازمت على طاب الدستور من السلطان فانثرت عليها ان تستشيرك في ذلك قبل الاقدام عليه فاذا ترى » قال « اري المبادرة الى الطلب بلهجة شديدة فان السلطان ضعيف الآن وهذه فرصة لا تضيعوها »

وكان رامز وهو يسمع الحديث ينزه نظره في ما حوله من الاشجار والرياحين فوق بصره على شبح بلباس النساء مر في طرف الحديقة البعيد باسرع من ملح البصر فارتاب في امره لكنه راي السؤال عنه فضولاً منه فسكت . ولم تمض بضعة عشرة دقيقة حتى راي اهل القصر في هرج وقد قامت الصبيحة وترا كض الخدم نحو الحديقة فبغت فوزي بك وصاح فيهم ما بالكم فتقدم اليه احد الخدم وهو يلطم ويقول « الطفل ! الطفل ! فقال « ما باله .. ماذا جرى له ؟ »

قال « لا ادري .. انه يصبح من الالم وقد ازرق بدنه وغارت عيناه .. » فركض فوزي وتبعه سعيد ورامز فسمعوا بكاء القادين قبل الوصول الى البيت فدخلوا الدار ودخل فوزي الى غرفة القادين وبعد برهة عاد وهو يحمل الطفل مبتاً لا حراك به ويكاد جلده يكون اسود سخالما وقع نظر سعيد عليه عرف انه مات مسموماً فقال « ماذا اطعمتموه ؟ » قالوا « لم نطعمه شيئاً »

قال « لا بد من شيء سام دخل جوفه .. انظروا من خدعكم .. » فالتفت الخدام الى الموضع فانتهت لامر جرى في تلك الساعة فصاحت « وبلاه لعل تلك الساحرة التي حنكته قد دست السم في فيه .. » فقال فوزي « من هي هذه الساحرة ؟ »

فاخذت الموضع في البكاء وجعلت تلطم وجهها وتقول « اقتلوني اقتلوني انا الشقية انا الجاهلة .. ان المرأة اتني في هذا الصباح وزعمت انها ساحرة وطبيبة وانها تحنك الاولاد فيسمنون وسحرتني بلطفها وحملت الطفل لحظة دخلت في اثائها لغرض فرجعت ورايت الطفل وحده كالنائم ثم سمعته يصرخ ويتوجع .. وبلاه .. ابن هذه الملعونة ؟ » واخذت في النواح

فقال رامز « رايت منذ ربع ساعة امرأة عليها ازار ملون مرت بسرعة من طرف الحديقة لعابها هي .. »

فصاحت المروض « نعم هي هي .. » وهمت ان تتبعها فقال فوزي بك « ارجعي انك لن تدركيها .. ولا بد من يد جانية حملتها على هذا العمل »  
فقال سعيد في نفسه « ان مقتل هذا الطفل انقذ الامة من حروب اهلية في التنازع على الملك »

وهم في ذلك راوا رجلاً مسرعاً نحوهم ينهب الارض نهباً فتوجهت الانظار اليه ولم يقترب منهم حتى عرف رامز انه خريستو خادم شيرين تخفق قلبه تطلعا الى حبيبه ومشى نحوه لكن الخادم لم ينتبه له ولكنه صاح « فوزي بك فوزي بك! » وهو يلهث من التعب فتراجع رامز واجابه فوزي قائلاً « ماذا تريد ما بالك يا خريستو ؟ »  
فقال جئت لانبهك الى جريمة يسعى بعض المفسدين في ارتكابها واخاف ان اكون قد تأخرت لاني لم اكن اعرف هذا المنزل »

فبغت فوزي وتحقق ظنه واقشعر بدنه لضياح الفرصة بتأخر ذلك الرسول وقال « نعم ان كنت آتياً لتحذرننا من وقوع هذه الجناية فقد تأخرت .. »  
فصفق خريستو اسفاً وقال « يا للخسارة .. تباً لاهل البني الاشرار ... »  
فقال البيك « قل .. ماذا جرى من هو مرتكب هذه الجريمة ؟ »  
قال « انه جاسوس ملعون اسمه صائب باشا »

فلما سمع رامز ذلك الاسم قفَّ شعر راسه وصاح « خريستو ... اين هو صائب اللعين »

ولم يكن خريستو يلتفت الى احد من الحاضرين غير فوزي بك فلما سمع صوت رامز اجفل والتفت اليه وصاح « سيدي رامز افندي ... هذا انت ؟ » واكب على يديه واخذ يقبلهما ويندرف الدموع .. ثم تنفس الصعداء وقال « الحمد لله الذي اراني وجهك سالماً .. ما هذه الصدفة ؟ من لي ان اطير الى سيدتي شيرين وابشرها هذه البشارة »

قال « اين هي الآن ؟ »

قال « هي في ضاحية مناسير بالجانب الاخر مع ابيها .. »  
فابتدره قائلاً « وصائب اين هو ؟ »

قال « تركته في هذا الصباح هناك وفررت لتقل الدسيسة التي «برها مساء امس مع احدي النساء على ان تسم الطفل - ولم يكن هذا اللعين عارفاً بكان سعادة الاميرالاي الا امس بعد ان ضعف شأن الحكومة وتحقق ان الجند مع الجمعية فاراد ان يتم مهمته

بقتل الطفل خلسة فعلمت انه يدبر هذه الدميمة فاسرعت لاجباركم ولكن سبق  
السيف العزل .. »

فقال رامز « نأسف كثيراً لفوات الفرصة » والتفت الى خريستو وقال « هل  
صائب هناك الآن »  
قال « نعم »

فالتفت الى فوزي بك وقال « استأذن سيدي في الذهاب لعلي اظفر بذلك المناق  
فاذيقه الموت » وودعه مع ابيه ومشيا مع خريستو فسأله رامز في اثناء الطريق « ما  
معنى وجود هذا الملعون في بيت سيدك وشيرين هناك ؟ »

قال « اقص عليك الخبر ياسيدي باختصار . ان سيدتي لما يئست من رجوعك يوم  
سفرك الى يلدز صممت على الذهاب بنفسها الى هناك واستعانت بي في هذا الامر .  
فسافرنا الى الاستانة ومنها الى يلدز كما قد علمت على ما اظن فكثت في يلدز بضعة ايام  
بين الخدم كواحد منهم . فلما عزمتم سيدي على الفرار مع القادين جئت في  
خدمتها فوصلنا سلايك بعد مدة طويلة فاحببت ان تسأل عن والدتها لانها تركتها فيها  
فاستأذنت من القادين وفوزي بك وسرت في خدمتها الى بيت ابيها فوجدت ابها  
وحده فرحب بها واطهر لها كل انعطاف وقال لها « ان والدتها آتية قريباً » فقدمت  
على مجيئها الى البيت لان صائب باشا اتى في الصباح التالي لزيارة والدها وقد صار باشا  
وتوسع في النفقة واللبس والبذخ . وسمعت سيدي مرة بحب اليها صائباً بانه صار من  
اقرب المقربين الى السلطان وقد عوّل عليه باكبر مهامه لمعاكسة الاحرار وان رامزاً  
قتل ولا فائدة من انتظاره ولا تلبث الجمعية ان تمزق . وهي لا تحيب . واخيراً تقدمت اليه  
ان لا يخاطبها بهذا الشأن مطلقاً . وهي الى الآن لا تعرف انك حيٌ ولكنها ثابتة في  
حبك .. وبعد ايام سافر صائب باشا لادري الى اين . وظلت شيرين مع ابيها وهي  
حزينة لا يلد لها طعام ولا شراب تسأل عن والدتها ولا تعرف مقرها وقد سمعت من  
الجيران انها في مناسير فطلبت الى والدها ان ينقلها الى هنا فانتقل بها وهو لا يأذن  
بمخروجها ولا يسمح لها ان تكلم احداً وقد ضيق عليّ ايضاً وحسني في البيت واصبح  
لا يكلفني ان اشترى شيئاً من السوق . فلما جئنا مناسير انزلنا في الفندق الذي نحن  
ذاهبون اليه وقال لسيدتي انه بعث للبحث عن والدتها . وانا لا اقدر على الخروج  
ولو عرفت انك هنا لهربت اليك . وكان صائب في اثناء هذه المدة يتردد الى الفندق  
تحمل الهدايا ويتزلف ويملق بكل وسيلة وسيدتي لا تعيره التفاتاً حتى سمعته امس

يخاطب تلك المرأة عن تسميم الطفل ورايته يدها على بيت فوزي بك وتحققت ان  
خروجي ينجي هذا الطفل من الموت واخبرت سيدتي شيرين فامرنتني بالخروج حالاً  
لكنني تأخرت عن الوقت اللازم فلا حول ولا . . . »

فقال رامز « نَبأ لهذا اللعين — الا يزال يتعقبنا؟ قد انقضى اجله بلا ريب »  
قال ذلك واعد مسدسه وقد عزم ان يفتك به حالما يقع نظره عليه واصبح يرتعد من  
شدة الغيرة والتأثر . واعاد السؤال عن شيرين واحواها ليلهو بالحديث بقية الطريق  
وبعد مسير ساعة لم يجدوا في اثنائها مركبة يركبونها اطلوا على بيت ظهر لهم عن بعد  
بين البساتين فقال خريستو « هذا هو الفندق » فالحوا في المسير وخصوصاً خريستو  
فانه عمد الى الركض حتى سبقهم فراوه وصل الفندق ودخله فاسرعوا نحوه فراوه  
خارجاً وهو يصفق تصفيق الفشل ويقول « لم اجد في الفندق احداً »  
فبغت رامز وقال « اين ذهبوا؟ »

قال « سألت صاحب الفندق فاخبرني انهم بعد خروجي في هذا الصباح ركبوا  
وساروا الى حيث لا يعلم »

فقال سعيد « يظهر انهم اشتبهوا بخروجك وخافوا ان تبلغ خبرهم للجمعية فانتقلوا  
الى مخبأ آخر . فوقف رامز مبهوراً لا يقول شيئاً فقال له خريستو « دع ذلك اليّ  
يا سيدي وانا آتيك بخبره عاجلاً . اين اجدك؟ »

قال « ضع الخبر عند سيدتك توحيدة فانها في بيت اهلها » ووصف له البيت « واذا  
اقتضى الامر مكاتبتي فهذا عنواني » وذكره له  
فقال « حسناً .. اتركوني وانصرفوا »

فتركا وعادا وهما لا يتكلمان والنار تتأجج في قلب رامز ويتصور نفسه اذا راى  
صائباً ليأكانه اكلأً — ولحظ ابوه فيه ذلك فقال « دع ذلك عنك يا بني وهلم بنا  
الى الجمعية نوذي لها نتيجة مهمتنا في مشورة فوزي بك »

فاسرعوا في ابلاغ الجمعية ان فوزي بك يرى الاسراع في طلب الدستور فاقرت  
على تنفيذ قرارها بطلبه فارسلت تاغرافاً الى المايين تطلب فيه اعادة مجلس المبعوثان  
وهذا نصه :

« الى الحضور الاقدس لحضرة ملجأ الخلافة

« نسترح المساعدة بانفاذ القانون الاساسي الذي منح واحسن الى التبعة والرعية  
بالارادات السنوية المنتقرة وصدور الارادة السنوية بما يجب في ذلك وقاية لصدقتنا

او عبوديتنا من الخلل ونعرض انه اذا لم يصدر الفرمان الهايوني بافتتاح مجلس المبعوثان الى يوم الاحد بديهي ان تحدث احوال تخالف الرضاء الشهرياري وان المأمورين الملكيين والوجوه والامراء والضباط والعسكريين والافراد الشاهانية والعلماء والمشايخ وكل المنتسبين الى الاديان المختلفة كباراً وصغاراً الموجودين بداخل ولاية مناستير بلا استثناء تعهدوا بوحدانية الاله واصبحوا تحت الميثاق العام ما

في ٩ تموز سنة ١٣٢٤  
جمعية الاتحاد والترقي  
مركز مناستير

## الفصل الثامن والسبعون

عبد الحميد في بلدز

فلنرجع الى ربة بلدز وما كان من شأنه بعد تلك الحوادث . تركناه وقد وقع الرعب في قلبه لفرار القادين وهي حامل وتشام من فرارها ووجه عنايته الى مطاردة الجمعية والفتك بها وجعل معونه على شمسي باشا المشير . ولم يلبث ان اتاه التلغراف بمقتله نفارت قواه وزادت وساوسه ومال الى العزلة للتأمل والتفكير . وعمد الى استطلاع الغيب على ايدي المشايخ والمبصرين وهم يطعمونونه . وانما كان تشاؤمه بالاكثر من وضع القادين . فبذل جهده في تعقبها بعد فرارها حتى اخبره جواسيسه انها في مناستير مع فوزي بك وكان قد فوض الى شمسي باشا الامر بالقبض عليهما فتمجأت الجمعية منيته ففوض ذلك الى عثمان باشا فقبض واستحث فيلق الاناطول ولم يجبه كما علمت فازداد فشلاً . وكان صائب باشا يعلم رغبة السلطان في ذلك فرأى ان يخدمه بقتل الطفل اذ يستحيل عليه القبض على القادين او الاميرالاي بعد فشل الحكومة . فعل ذلك من تلقاء نفسه والسلطان لا يعلم

فلما تعاضم اليأس على عبد الحميد وتراكت عليه الهواجس بنهب القوة العسكرية من يده في مكديونية والاناطول تضاعفت وساوسه واصبح يكره ان يرى رسولا قادماً نحوه لتوالي اخبار السوء عليه حتى غداً لا يتوقع خيراً مفرحاً ومال الى العزلة ولم يعد احد يجسر على مقابله وان كان في حال المقابلة لا يظهر عليه شيء من القلق

لاقتداره الغريب على اخفاء انفعالاته - على انه كان كيفما توجه تصور القادين ج امامه  
واذا تصوّر وضعها شعر بخفقان قابه

وهو في ذلك جاءت محفظة البريد على جاري العادة فوضعوها على الطاولة في غرفة  
المطالعة وذهبوا . واتي هو الى الغرفة في الصباح فرأى المحفظة ولم يفتحها لثلا يكون  
فيها ما يسوءه . فان الغداء ولم يذق من الطعام الا قليلاً لكنه اكثر من التدخين .  
فلما جاء الغروب وانقبضت الطبيعة لفراق الشمس حمله حب الاطلاع على فتح المحفظة  
وقد اتبرت المصابيح فوق الطاولة ففتحها وقلب ما فيها من الظروف فرأى بينها ظرفاً  
عليه ختم مناسير وحالما وقع نظره على العنوان تسارعت دقات قلبه لانه بخط القادين ج  
فاخذ في فتحه ويده ترتجف من التأثر ولما فضه وجد فيه صورة فوتوغرافية لطفل  
عاريس عليه من الثياب الاملاء بيضاء ووجهه يضحك كالملاك . فخلمارآه ادرك انه  
ابنه - فلم يستطع التفرس فيه طويلاً فقلب الورقة ليخفي الصورة عن عينيه فرأى  
على قفاها كتابة هذا نصها :

« هذه يا ظالم صورة ابنك الذي كنت تتعمد قتله وقتل والدته خوفاً من ان  
يكون وجوده شؤماً يذهب بدولتك . فها هو قد وجد وامه حية في مكان لا يصل  
اليه سلطانك فاعلم ان نجيم المتجمين قد صدق ولم يبق لك في السيادة مأرب من هذه  
الساعة . . تب الى الله وارجع »

ولم يبكد يتم القراءة حتى اختلجت اعضاؤه فاستلقى على كرسي طويل تعود ان ينام  
عليه احياناً واستغرق في افكاره وراجع تاريخ حياته وما مرّ بها من الاهوال وكم قتل  
من الانفس وانفق من الاموال في سبيل حفظ سيادته والمحافظة على حياته وكان معوّله  
على الجند فاصبح الجند ضده ولم يعد ماله ينفعه

وما زال في امثال هذه الهواجس وقد اخذ التعب منه مأخذاً عظيماً فغلب عليه  
النعاس ونام فتوالت عليه الاحلام المزعجة فترأت له القادين ج تحمل طفلها على ذراعها  
وتقول له « هذا هو ابني وابنك فقد اقل نجم سعدك دع الملك لاهله . » ثم تراءى له  
ان البوسفور قد جفّ ماؤه وانكشف قاعه وقد نبئت جثث القتلى بين صخوره  
كالاسفنج وكل اسفنجة تشبه واحداً من قتلاه قد حلق بعينه فيه . واخيراً رأى  
مدحت عائداً من الطائف يدرج على الارض جثة بلا راس حتى وصل باب الماين فاذا  
براسه قد تدحرج من مخباء واستقر على الجثة بين الكتفين واخذ في توييخه فذكره  
باهور كانت بينهما لا يعرفها سواهما فاجفل واستيقظ ثم عاد فنام وعادت اليه الاحلام

وما زال في ذلك الى الصباح وقد استيقظ من صوت الحجاب وقد جاء ينيشه  
 بقدم الباشكاتب لامر هام فامر بادخله فدخل وفي يده رسالة جمعية الاتحاد والترقي في  
 مناستير تطلب الدستور فدفعتها الى السلطان فخالما فتحها وقرأها لم يستغربها لانها اقل مما  
 كان يتوقعه على اثر تلك الوسوس - كان يخاف ان يأتي الاحرار اليه فاتحين فيكون تحت  
 خطر القتل وهو يبذل كل شيء في سبيل البقاء حياً . فاذا هم يطالبون الدستور فقط  
 بعبارة لطيفة جداً فاحس بضعفه وعزم على الاجابة لكنه دعى وزراءه وذوي شورا  
 واخذ يباحثهم في هل يجب طلب الجمعية  
 ولم يكن الاحرار يشكون في اجابة طلبهم ولذلك كانوا فرحين وخصوصاً الفدائيون  
 والابطال المحاربون امثال نيازي وانور وبالجملة فان الجميع كانوا فرحين الا رامز فانه  
 كان منعصاً لضياح شيرين

## الفصل التاسع والسبعون

### شيرين وصائب

اما شيرين فقد علمت ان طهماز فرّ بها من ذلك الفندق خوفاً من وشاية خريستو  
 بعد فراره لعلمه انه من حزب رامز . وكان طهماز قد علم من صائب ان رامزاً حيّ وله  
 عصبية قوية من جمعية الاتحاد والترقي في مناستير فرجع بشيرين الى سلايك وسبقه  
 صائب الى هناك وعاد الى التردد والتلف الى شيرين ولم يخبرها احد ببقاء رامز حياً .  
 وما زال صائب يطاؤها حتى خاف فوز الاحرار بعد مقتل شمسي والقبض على عثمان  
 وارسال التلغراف الى المايين بطلب الدستور . وشعر انه لم يبق له عيش فالح على ايها  
 ان يعقد له عليها ليسافر بها . فاستخدم طهماز سلطانه الابوي وخطبها بلهجة صاحب  
 السلطة الوالدية على اثر مقابلة طويلة معها فصل لها فيها مزاي صائب باشا وما يرجوه  
 من النعم على يده وان رامزاً صار تراباً فلم تزد الا رفضاً فقال لها ان السلطة لي  
 وحدي في تزويجك .. وغداً يأتي القاضي ليعقد عقدك على صائب باشا .. اذ لا يجوز  
 ان نحسر بسبب جنونك صهراً مثل هذا »  
 وكانت قد تعبت من تكرار الرفض وملت الجدل وقد اخذ الهزال منها . مأخذاً

عظيماً وايقنت بموت رامز وكرهت الحياة فلما خاطبها والدها بهذه الالهيّة سكنت لكنها  
اعدت خنجراً ماضياً خبأته تحت اثوابها وعزمت اذا لم تجدها نجاة ان تقتل صائباً وتنتحر  
اما خريستو فما زال يقتص الآثار حتى علم انهم في سلانيك فجاءها في صباح اليوم  
المعين لعقد القران فلما علم بقرب العقد والسفر خف الى مكتب التلغراف وبعث الى رامز  
ان صائباً هنا فليات سريراً . وهو مع ذلك يعلم ان رامزاً يستحيل عليه الوصول الى  
سلانيك قبل صباح الغد اذ يكون قد قضي الامر ولكنه فعل ما يمكنه . وهو لا يستطيع  
الدخول الى المنزل للوصول الى صائب . واخيراً عزم على المخاطرة بحياته فاقتنى مسدساً  
خبأه بين اثوابه وجاء قبل ميعاد العقد بساعتين وجعل يترقب الفرص للدخول الى المنزل  
فراى القاضي داخلاً ومعه شاهدان فاراد ان يدس نفسه معهم فرفسه احد الشاهدين  
رفسة القته على الارض . فاستغرب خريستوا اهتمام ذلك الشاهد به وارتاب من امره .  
فدار من جهة النافذة لعله يقدر ان يصوب المسدس من هناك فلم يجد منفذاً . فراى ان  
يجبر شيرين على الاقل بقاء رامز حياً لعل ذلك ينعشها ويساعدها فكتب كلمتين على  
ورقة وذهب الى الجيران وهو يعرف خادمهم وبينهما صداقة متينة فسلم اليه الورقة  
وحلفه بايصالها الى شيرين حينما تكون

فاخذ الخادم الورقة ودخل من باب المطبخ فلقى الخادم الجديد الذي جاؤا به  
للمأدبة في ذلك اليوم فوقف يشاغله ويراقب حركات شيرين حتى رآها اتت المطبخ  
لتبعد عن ايها وصاحبه فاسرع ورمى الورقة في يدها وخرج  
فقضتها فعرفت انها بخط خريستوفقرات فيها « ان رامزاً حيٌ وهو آت لنجدتك  
لا تخافي »

فلم تملك ان شهقت من الفرح بغير ارادتها وقالت « رامز ! » ثم انتهت  
وخبأت الورقة ولما رات اهل البيت اتبهوا لشهيقها اظهرت انها احست بألم شديد في  
راسها فلم يستغرب والدها ذلك لعله بما لحقها من القهر . اما صائب فلمهارته في الجاسوسية  
لم يصدق حينها وحدثه نفسه بامر طرا عليها من جهة رامز . وكان جالساً في الصالون  
مع القاضي والشهود فاطهر انه اهتم بامر صحتها فاسرع الى غرقها ووقف بالباب وقال  
« هل ادخل يا سيدي ؟ » يخاطب طهماز

فقال « تفضل يا باشا .. لعل وجودك يذهب ألمها »

فدخل وقد ارخت شيرين النقاب على وجهها لتخفي بكاءها فلحظ في يدها ورقة  
فاصبح همه ان يستخرج تلك الورقة من يدها بالحيلة فقال « دعيني اجس يدك لارى

ما بك « ومد يده نحوها

فاستلت يدها وخبأتها وراء ظهرها فمد يده الى هناك فوقفت وتفرت منه فتبعها واطهر انه يريد الاطلاع على تلك الورقة عنوة . فتمنعت وصاحت فيه بلهجة الاستخفاف وقد عادت اليها قوتها لما علمت ببقاء رازم حياً وانه آت لتجدتها فقالت « ابعد عني يا رجل . . »

فصاح والدها فيها بلحن التوبيخ « ما هذه الجسارة يا شيرين الاتعلمين انك بهذه الرفاحة تحطين من قدرتي ؟ »

فقال صائب « دعها ياسيدي انها مثأمة وانا احب ان ارى الورقة التي في يدها » فقالت « مالك ولها .. الاحسن لك ان لا تعرف ما بها لانها توقعك باليأس .. » فضحك وقال « وماذا عسى ان يوقعني في اليأس ؟ » والتفت الى ابيها وقال « يظهر انها حتى الساعة لم تدرك من انا . . . فيا لضيعة المحبة .. هات الورقة .. »

فابتسمت وقد ذهب بعض امتقاع وجهها من ذكرى رازم وقالت « لا بد من اطلاعك على هذه الورقة ؟ .. خذها » ورمتها اليه وجعلت تنفرس فيه لترى ما يبدو منه وقد استعدت للدفاع بالخنجير المختبأ في اثوابها

فلما قرأ الورقة ضحك ضحك التهمك وقال « انهم يهزاون بك .. ان رازماً اصبح راباً نجساً مثل سائر رفاقه الاغرار وسترين مصيرهم جميعاً .. »

فلم تصبر شيرين على سماع ذلك الطعن في رازم فخرجت عن تعقلها وصاحت فيه « اخساً يا نذل . . . ابمثل هذا الكلام تذكر رازماً . . . عار عليك . . . ولكنك لا تعرف العار لانك لا تشعر .. ولا ضمير لك »

وكان صائب يعلم ان ما في الورقة صحيح وان رازماً لا بد ان يأتي اذا عرف بوجودها وان الاحرار فائزون . وتحقق انها لم تعد تقبل بالزفاف اليه فعزم على الانتقام منها بالقتل قبل ان يأتي احد لتجدتها فاستخرج مسدسه وشهره عليها وقال « الاترجعين عن غيبيك » ولما رآه طهماز يشهر المسدس حسبه يهددها به فامسك بيد ابنته ليوبخها فانتثرت منه وقد اصبحت كاللبوءة الهائجة . وهمت ان تستل خنجرها وتطعن صائباً فرات باب الغرفة قد فتح بقوة وسمعت طلقاً نارياً وقائلاً يقول « هذا عن جمعية الاتحاد والترقي » وطلقاً آخر وقولاً « هذا عن رازم » وصاح صائب صيحة الالم وسقط على الارض يتخبط بدمه وسقط مسدسه من يده

فوقع الرعب في قلب طهماز ونظر نحو الباب فلم يجد احداً لان الضارب اطلق

مسدسه ونجا فتناول الورقة التي كانت في يد صائب وقرأها فلما علم مخواها خاف لكنه اخذ بصيح « ويلاه من ارتكب هذه الجريمة في بيتي » وهرع الى الدار فوجد القاضي ومعه شاهد واحد وهما في خوف فقال له طهماز « ما هذا ؟ من فعل ذلك ؟ »

فقال القاضي « لا ادري يا سيدي ولعل الشاهد الاخر فعله .. والظاهر انه من اعضاء تلك الجمعية السرية وقد تكبر بثياب شاهد ووقف بباب المحكمة الشرعية فلما طلبت شاهدين اتوني بهذين وهو واحد منهما »

وتقاطر الجيران على صوت الرصاص حتى امتلا البيت بالناس اما شيرين فلما رأت صائباً مجندلاً سرها انه لم يقتل بيدها لانها نزهت نفسها ان تكون قاتلة

فغطت وجهها بكفيها وخرجت الى غرفة اخرى واقفلت الباب عليها وتركت اهل الدار يهتمون بتلك الحادثة . وبعث طهماز رسولا من قبله الى مدير البوليس ان يبعث احداً لضبط الواقعة واوصى الرسول ان ينبه المدير ان المقتول صائب باشا ظناً منه انهم يهتمون ويسرعون للبحث عن الجاني من اجله — وصائب الى تلك الساعة ذو مقام رفيع لدى الحكومة طوعاً للاوامر الواردة بشأنه من المايين . ومكث الناس في بيت طهماز ينتظرون مجيء البوليس والجنحة مطروحة في الغرفة وقد اقفلوا عليها الباب فطال انتظارهم

فلما استبطنوا الرسول ارسلوا سواء وسواء ولم يعد احد . وهم في ذلك سمعوا ضوضاء في الشارع والناس يصيحون « الحرية والمساواة والاخاء .. الدستور .. الدستور ليحي الجيش لتحيا الامة » فاطلوا فراوا جماعات الناس يحملون الاعلام ويطوفون في الاسواق يهتفون بعضهم بعضاً ويتعاقون ويتصافحون على اختلاف مذاهبهم وعناصرهم . وهم ضاحكون فرحون وقد قام الخطباء والشعراء يخطبون وينظمون فرحاً بالدستور



## الفصل الثمانون

### الفوز الاكبر

ولم يكن طهماز ولا جيرانه او غيرهم ممن في تلك الدار يعلمون بشيء من ذلك . وبالاستقراء علموا ان السلطان اجاب طلب الاحرار باعلان الدستور في ذلك اليوم وان الجند ورجال الحكومة مشغولون بالاحتفال والفرح وان مدير البوليس وغيره من صنائع المايين هربوا او اختبأوا وصارت السيادة الى اعضاء جمعية الاتحاد والترقي . فرأى طهماز انستتر اولى به واصبح خائفاً على نفسه فاشار الى القاضي ان يدبر غسل صائب ودفعه بعد ان يخرج من منزله ودفع اليه المال اللازم واصبح همه مرصاة ابنته لعلها انها من الاحرار وان رامز لا يزال حياً وهو آت فعزم على استرضائها

وكانت شيرين قد اقفلت الغرفة عليها لتفكر في ما قرأته عن رامز وقرب مجيئه . ثم سمعت الضوضاء في الدار فلم تعبا بها لانها كانت تتوقع شيئاً من ذلك ريثما تضبط الواقعة فتحولت نحو نافذة تطل على بستان فرات خادمها خريستوبيتشوف اليها فاشارت اليه ان يأتي فهورول نحوها وهو يرقص من الفرحة فقالت « اين رامز ؟ »

فقال « ربما يأتي في صباح الغد » وقص عليها ما فعله باختصار ثم قال « يظهر ان مقتل صائب ازال عن الامة المصاب وليس عنك فقط »

فقالت « وكيف ذلك ؟ »

قال « الم تسمعي الضوضاء في الاسواق . . والناس يصيحون فرحين بنيل الحرية والدستور ؟ »

وكانت خالية الذهن من كل شيء لانهم منعوا عنها الجرائد والاعخبار فصاحت « الدستور ! الدستور ! ما ذا تقول ؟ »

قال « نعم يا سيدتي قد طلب الاحرار من السلطان ان يمنحهم الدستور فاطاعهم ولذلك حديث ستمعينه من سيدي رامز افندي . . »

فلم تصدق نفسها لغرابة الخبر وقد تراكم عليها الفرحة من كل ناحية حتى ظنت نفسها في حلم — قدوم رامز ونيل الدستور ومقتل صائب ؟ — وهي مع ذلك تعجب

من امر القاتل ولكنها علمت بما قاله انه من اعضاء الجمعية الفدائيين وتذكرت للحال امها فقالت « ووالدي ابن هي ؟ »

قال « هي في خير بمناسير وربما تأتي مع سيدي رامز . . اصبري الى الغد . . »  
وهي في ذلك سمعت قرعاً بباب غرفتها فسألت « من ؟ »  
فاجاب « انا طهماز والدك »

فهضت وفتحت الباب فرأت الدمع في عينيه وقد اكب على ابنه يقبلها ويقول  
« اهنتك يا حبيبتي بنيل الدستور وبقاء رامز حياً . . قرّب الله خطواته لنفرح  
به وبك »

فلم تستغرب هذا الانقلاب من والدها لعلمها بضعفه وكثيراً ما كانت تغذي عن  
اسائه حتى في ابان ضغطه عليها بشأن رامز وكانت تعذره لقصر ادراكه فلما راته داخلاً  
على هذه الصورة نسبت اساءته وقبلت يده وقالت « احمد الله على ذلك ياسيدي » ثم  
قالت « ادع خريستو الخادم انه في الخارج »

فاسرع اليه وناداه فدخل فقالت له « دبر امر هذا البيت »  
اما رامز فان تلغراف خريستو وصله في ساعة وصول تلغراف السلطان الى الجمعية  
يقبول طلبها اعلان الدستور واصبح في حيرة حل يذهب ويترك القوم يفرحون  
وخدمهم ام يبقى معهم

واخيراً استأذن في الذهاب الى سلاطيك مع اول قطر وحمل توحيدة معه وكان  
والده غائباً عن مناستير فلم يخبره بسفره . فوصلا في صباح اليوم التالي فوجدوا  
خريستو على المحطة في انتظارها وقص عليهما ما جرى فتأسف رامز لانه لم يكن هو  
قاتله بيده . ولكنه عرف القاتل وهو الفدائي الذي تبرع بذلك في الجلسة التي ذكرناها  
وركبوا ورامز يلاحظ حركات الناس في تلك المدينة ومقدار اغتباطهم بالدستور . فام  
يكن يجد الا جماعات يتكلمون عن الدستور او يخاطبون فيه وفي الاحرار ويتبادلون  
التهاني والشوارع غاصة بالناس وقد تعانق الشيخ والقسيس والحلخام

وكانت شيرين قد قضت ايلها ارقه من الفرح بقدم رامز فلما اصبح الصباح بعثت  
خريستو لاستقبالهم . ولما سمعت صوت المركبة اسرعت الى النافذة فرأت والدتها ورامزاً  
نزلا من المركبة فاسرعت الى استقبالها بالباب فضمتها والدتها وقبلتها وبكت بكاء الفرح  
ثم سلمت على رامز مصافحة وقلبا يخفق . فرأى رامز تغييراً كثيراً في لونها ولم  
يفقه السبب

ولم يكده يصل الدار حتى استقبله طهماز وضمه الى صدره واخذ يقبله والدمع في عينيه ويقول « الحمد لله على سلامتك يا عزيزي .. » وكان رامز مثل شيرين من حيث حكمها على طهماز فالتفت رامز الى شيرين عند ذلك كأنه يستشيرها بشأن والدها فاومأت اليه ان بغض النظر عما مضى . فقبل يد عمه ودخلوا الى الصالون وجلسوا يتحدثون واكثر الحديث بين رامز وشيرين ولواردنا بسطه لاعدنا اكثر مما جاء في هذه الرواية وفي اليوم التالي اتى والده ووافق على الاغضاء عن ذنب طهماز لعله يضعفه وقال « ان جمعية الاتحاد والترقي شأنها الاغضاء عن السيئات . وليس في الدنيا من اساء هم مثل عبد الحميد . فلما نالوا الدستور اغضوا عما مضى وعدوه والدم وتبركوا به فكيف بوالد الحبيبة ؟ عفا الله عما مضى »

وبعد قليل تكاثر الاحرار في سلانيك من الضباط والملكيين اصحاب رامز وكانوا يحبونه لانه كاتبهم وشاعرهم . فاحتفلوا باقتراانه احتفالاً حضره نخبة الاحرار وفيهم انور ونيازي والاميرالي فوزي بك والقادين ج والدكتور . ن . وكان قد فرغ من مهمته في يلدز . وجمع كبير من الاحرار وكان فرح العروسين مزدوجاً بالاجتماع بعد التشتت ونيل الدستور بعد اليأس منه

تمت الرواية



# مؤلفات جرجي زيدان

مؤلف هذا الكتاب

	البريد	التمن
١ - مؤلفاته التاريخية		
تاريخ مصر الحديث مزين بالرسوم جزآن (طبعة ثانية)	٤	٤٠
الماسونية العام "	٢	٢٠
اليونان والرومان (مختصر) "	٣	٤
انكلترا مزين بالرسوم "	١	٤٠
التمدن الاسلامي ٥ اجزاء مزين بالرسوم "	٥	٢٥
العرب قبل الاسلام جزء اول "	٢	٢٠
التاريخ العام الجزء الاول	١	٨
تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر مزين بالرسوم جزآن مجلدان (طبعة ثانية)	٢	٤٠

## ٢ - مؤلفاته العلمية واللغوية وغيرها

الهلال - مجلة علمية تاريخية ادبية تصدر مرة في الشهر مزيينة بالرسوم قيمة اشتراكها بالسنة للقطر المصري والسودان		٨٠
وقيمة اشتراكها بالسنة للخارج		١٠٠
سنو الهلال من السنة الاولى الى انخامسة عشرة من السنة	٤	٦٠
ومن السنة السادسة عشرة الى الاخيرة	٤	٨٠
الفلسفة اللغوية (طبعة ثانية)	١	١٠
تاريخ اللغة العربية	٢٠	٥
آداب اللغة العربية الجزء الاول . والثاني تحت الطبع من الجزء	٢	٢٠
انساب العرب القدماء	٢٠	٤

Al-Imam al-Shaykh al-Hafiz

	الـثـمـن	البريد
علم الفراسة الحديث مزين بالرسوم	١٥	١
١٥٦.٩		
Sa 96a 4		

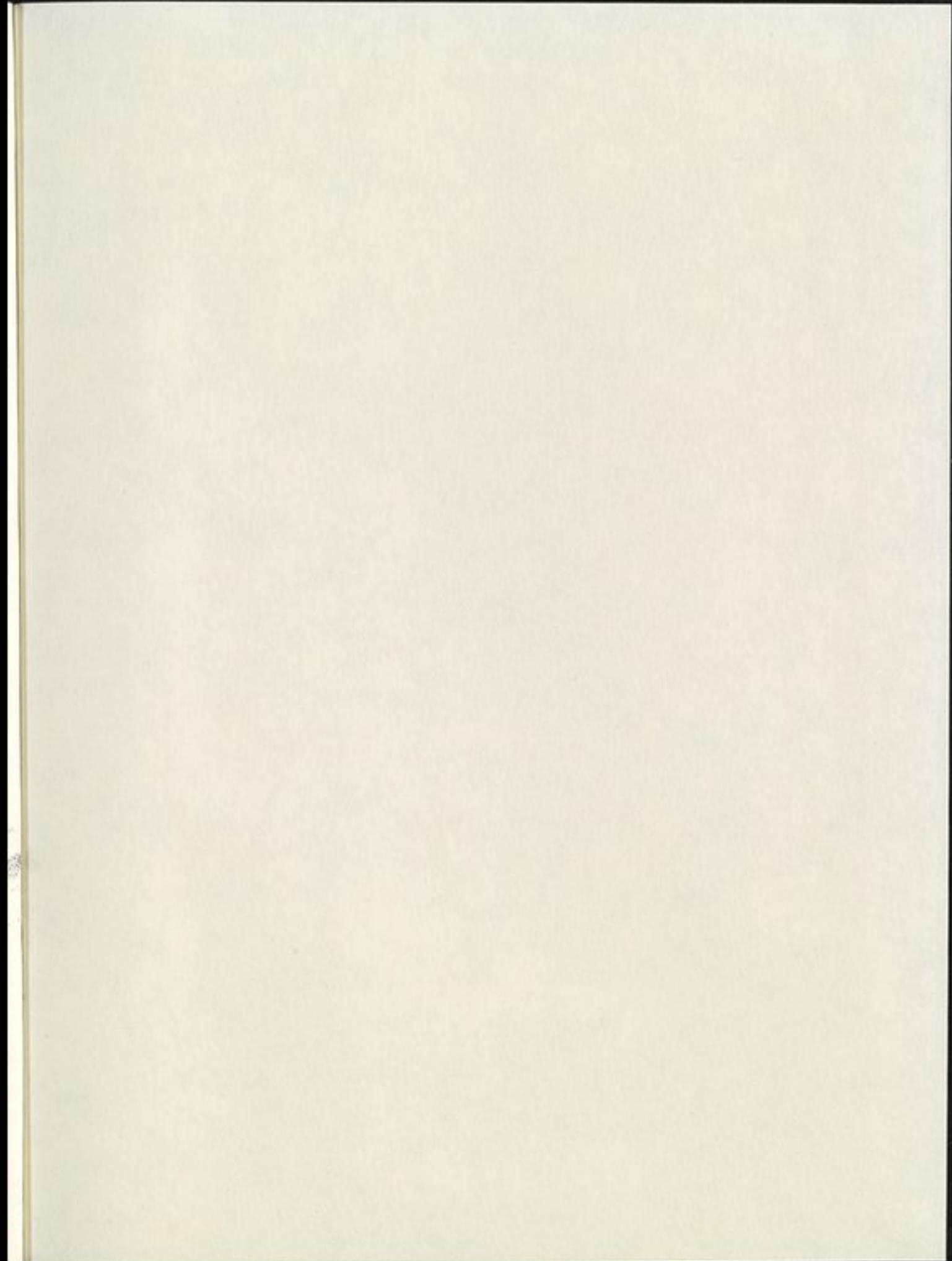
٣ - سلسلة روايات تاريخ الاسلام

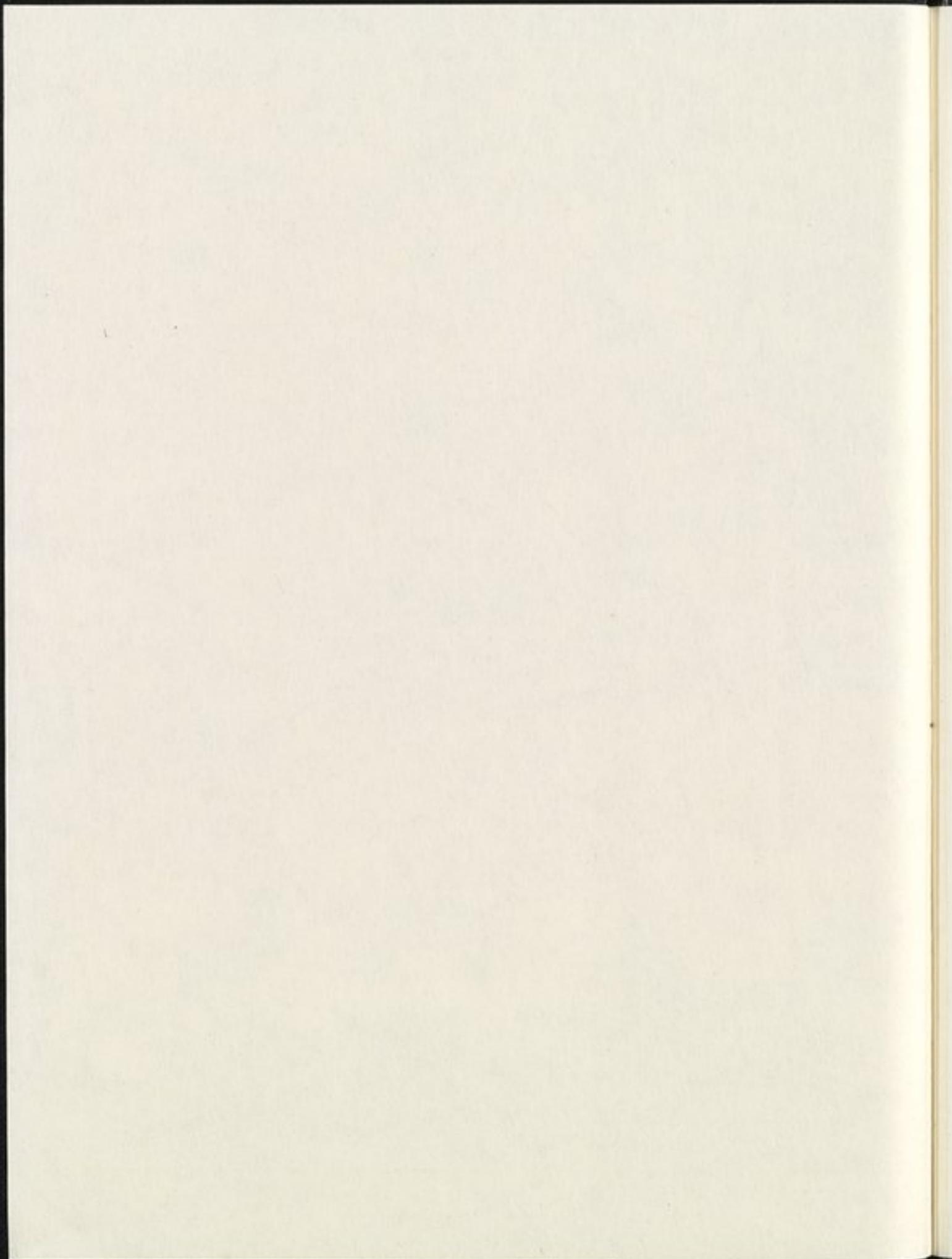
١ « فتاة غسان جزآن طبعة ثالثة »	٢٠	٣
٢ « ارمانوسة المصرية »	١٠	٢
٣ « عذراء قریش »	١٠	١ ٢٠
٤ « ١٧ رمضان »	١٠	١ ٢٠
٥ « غادة كربلاء »	١٠	١ ٢٠
٦ « الحجاج بن يوسف »	١٠	١ ٢٠
٧ « فتح الاندلس »	١٠	١ ٢٠
٨ « شارل وعبد الرحمن »	١٠	١ ٢٠
٩ « ابو مسلم الخراساني »	١٠	١ ٢٠
١٠ « العباسة اخت الرشيد »	١٠	١ ٢٠
١١ « الامين والمأمون »	١٠	١ ٢٠
١٢ « عروس فرغانة »	١٠	١ ٢٠
١٣ « احمد بن طولون »	١٠	١ ٢٠
١٤ « عبد الرحمن الناصر »	١٠	١ ٢٠
١٥ « الانقلاب العثماني »	١٠	١ ٢٠

٤ - رواياته الاخرى التاريخية

اسير المهدي	١٠	٢
طبعة ثالثة		
استبداد المالک	٨	١ ٢٠
ثانية		
المملوك الشارد	٨	١ ٢٠
ثالثة		
جهاد المحبين اديبة غرامية	٦	١ ٢٠
ثانية		

UNIVERSITY OF TORONTO  
PUBLIC LIBRARY





OLIN  
P5  
7876  
A97  
I58  
1911a



OLIN  
PJ  
7876  
.A97  
I58  
1911a